التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سور

العنكبوت الروم
لقمان السجدة
الأحزاب سبأ
فاطر

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الحادي عشر



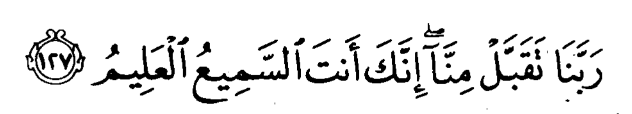
دار المعارف

مراجعة

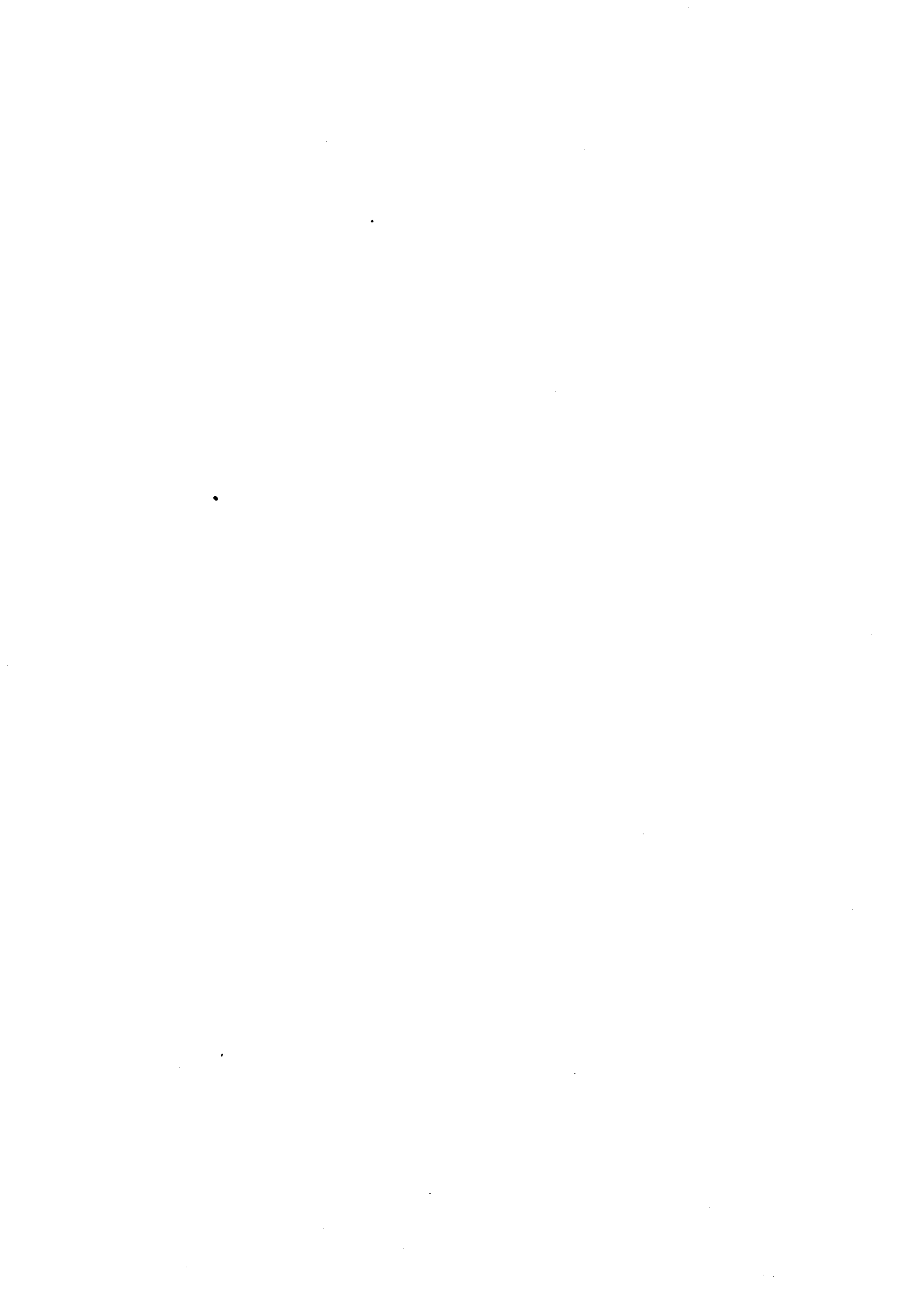
د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة العنكبوت هى السورة التاسعة والعشرون فى ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة الروم، أى : أنها من أواخر السور المكية فى النزول، إذ أن ترتيبها فى النزول الثالثة والثمانون من بين السور المكية، ولم ينزل بعدها قبل الهجرة سوى سورة المطففين[1] وعدد آياتها تسع وستون آية .

٢ - وجمهور العلماء على أنها مكية، ومنهم من يرى أن فيها آيات مدنية .

قال الآلوسى : عن ابن عباس أنها مكية وذهب إلى ذلك - أيضا - الحسن وجابر وعكرمة . وعن بعضهم أنها آخر مانزل بمكة ... وقال يحيى بن سلام : هى مكية، إلا من أولها إلى قوله - تعالى - : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنو وليعلمن المنافقين ... ﴾[2] .

والذى تطمئن إليه النفس أن سورة العنكبوت كلها مكية، وليس هناك روايات يعتمد عليها فى كون بعض آياتها مدنية .

٣ - وقد افتتحت سورة العنكبوت ببعض الحروف المقطعة ﴿ الم ﴾، ثم تحدثت عن تكاليف الإيمان، وأنه يستلزم الامتحان والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وعن الحسنة التى أعدها - سبحانه - لعباده المؤمنين الصادقين . قال - تعالى - : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ .

٤ - ثم حكت جانبا من أقوال المشركين، ومن دعاواهم الكاذبة، وردت عليهم بما يبطل أقوالهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ...

قال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون، وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ .

---

(١) راجع كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٣٢ .

٥ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك، إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، فأشارت إلى قصة نوح مع قومه، ثم ذكرت بشيء من التفصيل جانبا من قصة إبراهيم مع قومه، ومن قصة لوط مع قومه، وأتبعت ذلك بإشارات مركزة تتعلق بقصة شعيب وهود وصالح وموسى مع أقوامهم ...

ثم اختتمت هذه القصص ببيان العاقبة السيئة التى صار إليها المكذبون لرسلهم، فقال - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

٦ - ثم ضربت السورة الكريمة مثلا لحال الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة، فشبهت ما هم عليه من كفر وشرك - فى ضعفه وهوانه وهلهلته - ببيت العنكبوت، وأمرت النبى - ﷺ - وأصحابه، أن يزدادوا ثباتا على ثباتهم، وأن يستعينوا على ذلك، بتلاوة القرآن الكريم، وبإقامة الصلاة، وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

٧ - ثم أمرت السورة الكريمة المؤمنين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وأرشدتهم إلى ما يقولونه لهم، ومدحت من يستحق المدح منهم، وذمت من يستحق الذم، وأقامت الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

٨ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، حضهم فيه على الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإيمان، ورغبهم فى ذلك بوسائل ، منها : إخبارهم بأن الآجال بيد الله - تعالى - وحده، وكذلك الأرزاق بيده وحده، وأن من استجاب لما أمره الله - تعالى - به ، أعطاه - سبحانه - الكثير من خيره وفضله .

قال - تعالى - ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت، ثم إلينا ترجعون ﴾.

٩ - ثم ساق - سبحانه - فى أواخر السورة، ألوانا من تناقضات المشركين، حيث إنهم إذا سألهم سائل عمن خلق السموات والأرض ... قالوا : الله - تعالى - هو الذى خلقهما، ومع ذلك فهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى، وإذا أحاط بهم الموج وهم فى السفن ... ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾، وهم يعيشون فى حرم آمن ، والناس يتخطفون من حولهم .. ومع ذلك فهم بالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون .

هذا شأنهم، أما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم الله - تعالى - بما يقر أعينهم فقال فى ختام السورة : ﴿ والذين جاهدوا فينالنهدينّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

١٠ - وهكذا نرى هذه السورة الكريمة، وقد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن الإيمان وتكاليفه، وعن سنن الله فى خلقه، وعن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وعن هوان الشرك والشركاء ، وعما يعين المؤمن على طاعة الله، وعن علاقة المؤمنين بغيرهم، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم فى مكان لا يستطيع فيه أن يؤدى شعائر دينه، وعن سوء عاقبة الأشرار، وحسن عاقبة الأخبار ... نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

القاهرة : مدينة نصر — المؤلف،

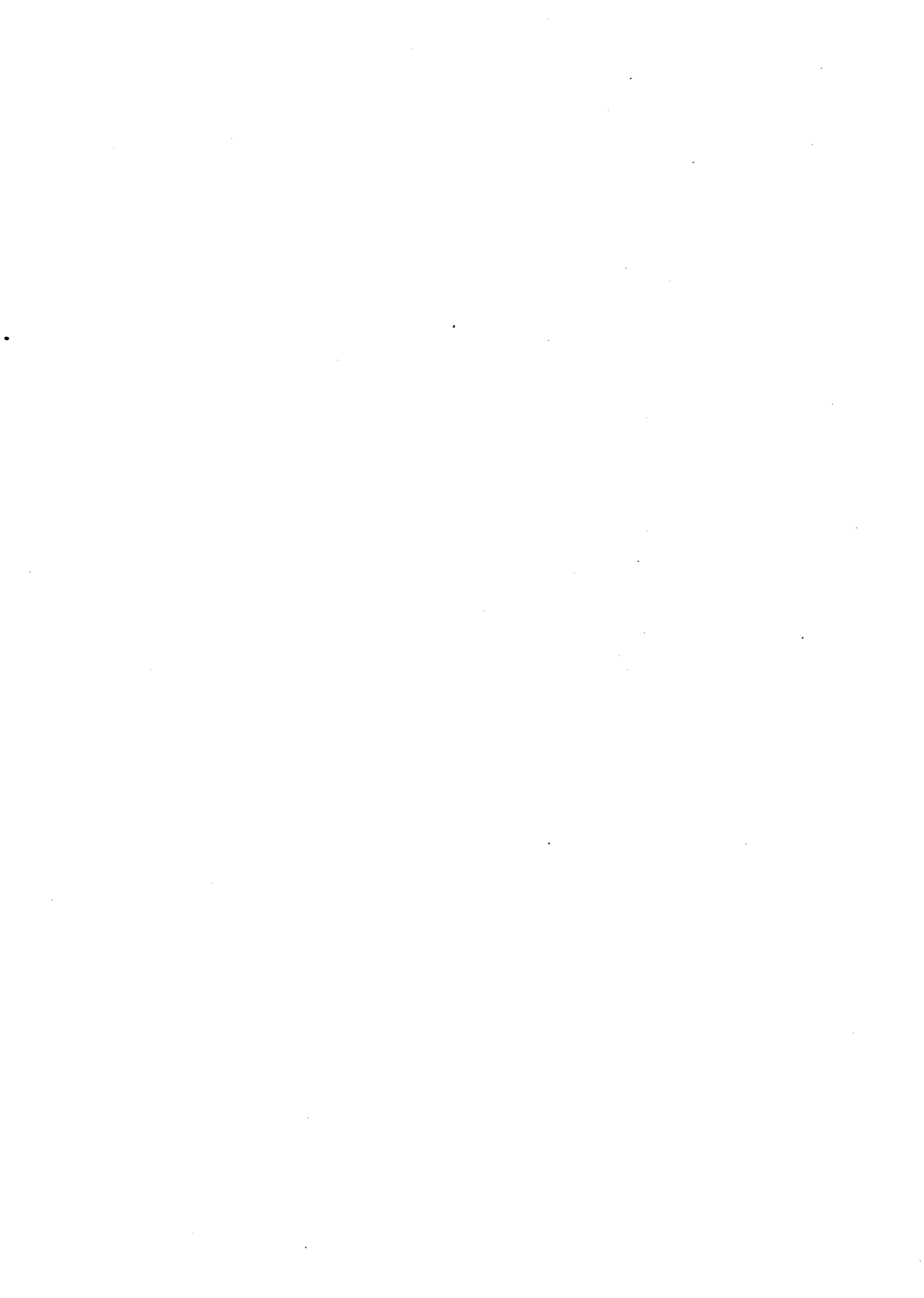
١٦ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ — د . محمد سيد طنطاوى

٦ / ٣ / ١٩٨٥ م



تفسير

سُورَةُ ٱلْعَنكَبُوتِ



التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة العنكبوت من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ﴿ الم ﴾ ، ويبلغ عدد السور التى افتتحت بحروف التهجى ، تسعًا وعشرين سورة .

وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن الكريم ، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله ، فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ...

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ﴾ للإنكار و﴿ حسب ﴾ من الحسبان بمعنى الظن . وقوله : ﴿ يفتنون ﴾ من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان .

يقال : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من الخبيث .

وجملة « أن يتركوا » سدت مسد مفعولى حسب ، وجملة « أن يقولوا » فى موضع نصب ، على معنى : لأن يقولوا ، وهى متعلقة بقوله : ﴿ يتركوا ﴾ . وجملة « وهم لا يفتنون » فى موضع الحال من ضمير « يتركوا » .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان ، واختبار ، وابتلاء ، وبدون نزول المصائب بهم ، لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان ؟ إن ظنهم هذا ظن باطل ، ووهم فاسد ، لأن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فقط ، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان الابتلاء والاختبار ، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

قال القرطبى : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد .. فكانت صدورهم تضيق بذلك ، وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده ، اختبار للمؤمنين وفتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال ، فهى باقية فى أمة محمد ﷺ ، موجود حكمها بقية الدهر ... »[1].

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، هذا الظن فى غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة فى النهاية للمؤمنين .

والمقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فليعلمن .. ﴾ إظهار علمه - سبحانه - ، أو المجازاة على الأعمال .

أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك - أيها الرسول الكريم - ، ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ... ﴾ أى فليظهرن الله - تعالى - فى عالم الواقع حال الذين صدقوا فى إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٠٤ .

أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين ، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا فى إيمانهم بما يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، ولترتب المجازاة على العلم ، أقيم السبب مقام المسبب .

قال الإمام ابن جرير : قوله : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ... ﴾ أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم فى قولهم آمنا ، وليعلمن الكاذبين منهم فى قولهم ذلك ، والله عالم بذلك منهم ، قبل الاختبار ، وفى حال الاختبار ، وبعد الاختبار ، ولكن معنى ذلك : وليظهرن الله صدق الصادق منهم فى قوله آمنا بالله ، من كذب الكاذب منهم ...

وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين ، عذبهم المشركون ، ففتن بعضهم ، وصبر بعضهم على أذاهم ، حتى أتاهم الله بفرج من عنده »[1] .

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[2] وقوله - تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولارسوله ولا المؤمنين وليجة .. ﴾[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[4] .

وقد ساق الإمام القرطبى عند تفسيره لهاتين الآيتين من سورة العنكبوت عددا من الأحاديث النبوية ، منها قوله : روى البخارى عن خباب بن الأرت قالوا : شكونا إلى رسول الله ﷺ ، وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[5] .

والخلاصة ، أن المقصود من الآيتين تنبيه الناس فى كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ، ظن خاطىء ، وإلى أن هذا الابتلاء سُنة ماضية فى السابقين وفى اللاحقين إلى يوم القيامة .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٠ ص ٨٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .
(٣) سورة التوبة . الآية ١٦ .
(٤) سورة محمد . الآية ٣١ .
(٥) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٢٤ .

ثم بين - سبحانه - أن عقابه للمرتكبين السيئات واقع بهم ، وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون ﴾ .

و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، وقوله : ﴿ أن يسبقونا ﴾ سد مسد مفعولى حسب ، وأصل السبق : الفوت والتقدم على الغير . والمراد به هنا : التعجيز ، والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصى ، « أن يسبقونا » أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن فى إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم ؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد : « ساء ما يحكمون » أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك مايدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿ من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم ﴾ . أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله - تعالى - يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطمعه فى ثوابه وعطائه ، فليثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، « فإن أجل الله لآت » . أى : فإن الأجل الذى حدده الله - تعالى - لموت كل نفس وللبعث والحساب ، لآت لامحالة فى وقته الذى حدده - سبحانه - « وهو السميع » لأقوال خلقه « العليم » بما يخفونه ومايعلنونه .

فالرجاء فى لقاء الله ، بمعنى الطمع فى ثوابه ، ومنهم من فسره بمعنى الخوف من حسابه - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها ... وقيل : « يرجو » يخاف ، كما فى قول الشاعر :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها .. »[1] أى : إذا لسعته النحل لم يخف لسعها .

وعلى كلا التفسيرين للرجاء ، فإن الآية الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعدهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملا غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٠٣ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : ومن جاهد فى طاعة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لغنى عن العالمين ﴾ جميعا ، لأنه - سبحانه - لاتنفعه طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص ، وإنما لنفسه يعود ثواب المطيع وعليها يرجع عقاب المسىء .

ثم وضح - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب جزيل فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ... ﴾ أى : لنسترن عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها - بفضلنا وإحساننا - من صحائف أعمالهم .

ثم بعد ذلك ﴿ ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾ أى : ولنجزينهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، بأن نعطيهم على الحسنة عشر أمثالها .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المحذوفة ، وجوابها أى : والله لنكفرن . ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على الاشتغال . أى : ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم ...

وقال ﴿ أحسن ﴾ لأنه سبحانه إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم بما هو دونه . فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن طاعة الله - تعالى - يجب أن تقدم على كل طاعة ، فقال :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٦٨ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه الترمذى ، من أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه حين أسلم ، قالت له أمه حمنة بنت أبى سفيان : يا سعد بلغنى أنك صبأت ، فوالله لايظلنى سقف بيت ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد - ﷺ - .... فجاء سعد إلى النبى ﷺ فشكى إليه ما قالته أمه .

فنزلت هذه الآية .. فجاء سعد إليها فقال لها : يا أماه لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يئست منه أكلت وشربت ... »[1]

وقوله : ﴿ حسنا ﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف . أى : ووصينا الإنسان بوالديه إيصاء حسنا ، وعبر بالمصدر للمبالغة فى وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون بارًا بهما ، وعطوفًا عليهما ، وسخيًا معهما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن جاهداك ﴾ معطوف على ما قبله بإضمار القول : أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له ﴿ إن جاهداك ﴾ أى : إن حملاك وأمراك ﴿ لتشرك بى ﴾ فى العبادة أو الطاعة ﴿ ماليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ بيان للواقع ، فهذا القيد لا مفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله فى هذا الكون ، سوى الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تذييل المقصود به التحذير من معصيته - سبحانه - .

أى : إلى مرجعكم جميعا - أيها الناس - يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم حسابا دقيقا ، وأجازى الذين أساءوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات لندخلنهم ﴾ بفضلنا وإحساننا ﴿ فى الصالحين ﴾ أى فى زمرة الأقوام ﴿ الصالحين ﴾ الذين رضينا عنهم ، ورضوا عنا .

* * *

ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب المريضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانبا من أقوالهم الفاسدة ، ودعاواهم الكاذبة فيقول :

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله .. ﴾ بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطرب يقينهم ، بعد بيان حال المؤمنين الصادقين فى قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ ....

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ... ﴾ قال مجاهد : نزلت فى ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك . وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر ، فقُتل بعضهم »[1] .

والمعنى : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ بلسانه دون أن يواطىء هذا القول قلبه ﴿ آمنا بالله ﴾ .

وقوله ﴿ فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ بيان لحال هذا البعض من الناس عندما تنزل بهم المصائب والنكبات .

أى : فإذا أوذى هذا البعض - بعد قوله آمنا بالله - من أجل هذا القول ومن أجل تركه

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٣٠ .

الدين الباطل ، ودخوله فى الدين الحق ﴿ جعل فتنة الناس ﴾ له أى جعل عذابهم له ، وإيذاءهم إياه ﴿ كعذاب الله ﴾ أى بمنزلة عذاب الله فى الشدة والألم ، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه ، ويضعف يقينه ، بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان .

وفى جعل هذا البعض ﴿ فتنة الناس كعذاب الله ﴾ دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره ، لأن عذاب الناس له دافع ، أما عذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله - سبحانه - على من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه أو نهايته .

ثم بين - سبحانه - حال هذا الفريق إذا ما مَنَّ الله - تعالى - على المؤمنين الصادقين بنصر ، فقال : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ، ليقولن إنا كنا معكم ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ ليقولن ﴾ بضم اللام يعود إلى ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ من يقول ﴾ ، باعتباره معناها ، كما أن إفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها ، أى : هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا يثبتون على إيمانهم أما إذا جاءكم النصر - أيها الرسول الكريم - فإن هؤلاء الضعاف فى إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وتأكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين ، ونحن إنما أكرهنا على ماقلنا ، ومادام الأمر كذلك فأشركونا معكم فيما ترتب على النصر من مغانم وخيرات .

وقوله - سبحانه - : ﴿أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ﴾ رد عليهم فى دعواهم الإيمان ، وفى قولهم للمؤمنين : ﴿ إنا كنا معكم ﴾ والاستفهام لإنكار ما زعموه ، ولتقرير علم الله - تعالى - الشامل للسر والعلانية .

أى : إن الله - تعالى - عالم بما فى صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر . وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله - تعالى - فى حاجة إلى قولهم ، فهو - سبحانه - يعلم السر وأخفى ﴿ وليعلمن الله ﴾ - تعالى - علما تاما ﴿ الذين آمنوا ﴾ به حق الإيمان ﴿ وليعلمن ﴾ حال المنافقين ، علما لايخفى عليه شىء من حركاتهم وسكناتهم . وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب . وأكد - سبحانه - علمه بلام القسم وبنون التوكيد ، للرد على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه ، حتى يقلعوا عن نفاقهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين فى ثباتهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما زعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ، ورد عليها فقال : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التضليل والإغراء : اتبعوا سبيلنا أى

طريقنا الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب .

واللام فى قوله : ﴿ ولنحمل ﴾ لام الأمر ، كأنهم آمرين أنفسهم بذلك ، لِيُغْروا المؤمنين باتباعهم .

أى : اطمئنوا إلى أننا لن نتخلى عنكم ، ولن ننقض عهودنا معكم فى حمل خطاياكم لو اتبعتمونا ، أو هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء . أى : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم .

وقد رد الله - تعالى - زعمهم هذا بقوله : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ﴾ أى : وما هؤلاء الكافرون بحاملين لشىء من خطايا غيرهم التى زعموا حملها يوم القيامة ، وانهم لكاذبون فى كل أقوالهم .

و﴿من﴾ الأولى بيانية ، والثانية لنفى حمل أى خطايا مهما صغرت . وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يخرس ألسنتهم ، ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان .

ثم بين - سبحانه - أن الأمر على عكس ما زعموه فقال : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ . أى : ليس الأمر - كما - زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين ، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة ، وسيحملون فوقها خطايا أخرى ، هى خطايا تسببهم فى إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق .

وعبر عن الخطايا بالأثقال ، للإشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذى سيترتب عليها .

﴿ وليسألُنَّ يوم القيامة ﴾ سؤال تأنيب وتوبيخ ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ أى : عما كانوا يختلقونه فى الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا »[2] .

* * *

(١) آية ٢٥ من سورة النحل .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٧ .

وبعد هذا الحديث عن أنواع الناس ، وعن أقوال المشركين الفاسدة ، وعن سوء عاقبتهم ، ساق - سبحانه - جانبا من قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ . شروع فى بيان افتتان الأنبياء - عليهم السلام - بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثا لهم على الصبر ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى ... »[1] .

و« نوح » - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شىء من التفصيل ، فى سور : هود والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح .

وقوم الرجل : اقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٤٢ .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قالوا : بعث الله نوحا وهو فى سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد ، حقيق بالاجتناب فى البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض يبتغيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك»[1] .

والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح - عليه السلام - مع قومه ، تسلية الرسول - ﷺ - وتثبيته ، فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به فى صبره ، وفى مطاولته لقومه .

وقوله - سبحانه - ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ بيان لسوء عاقبة المكذبين لنوح - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم تلك المدة الطويلة .

والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشىء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا .

أى مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم والكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ : أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم الذين ركبوا معه فى السفينة . قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين ما بين ذكر وأنثى ، وقيل كانوا أقل من ذلك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٦ .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ للسفينة ، أو للحادثة والقصة .

أى : فأنجينا نوحا ومن ركب معه فى السفينة ، وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على مر الأيام والأعوام .

قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة فى قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التى حملتهم وأقلتهم بقيت مدة طويلة ، وهى مستقرة على جبل الجودى ، الذى يرى كثير من المؤرخين ان مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ... ﴾ .

ولفظ ﴿ إبراهيم ﴾ منصوب بفعل مضمر. أى: واذكر - أيها المخاطب - إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ﴿ ذلكم ﴾ الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ﴿ خير لكم ﴾ من الشرك ، ومن كل شىء فى هذه الحياة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إن كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذى يتنافى مع الجهل ..

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل ، فقال كما حكى القرآن عنه : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ... ﴾ .

والأوثان : جمع وثن . وتطلق الأوثان على التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو مايشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وتخلقون إفكا ﴾ أى : وتكذبون كذبا واضحا ، حيث سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنكم ولا عن نفسها شيئا .

أو يكون قوله ﴿ وتخلقون ﴾ بمعنى وتصنعون وتنحتون . أى : وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاهة هذه الأوثان فقال : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله ﴾ من أوثان وأصنام ﴿ لا يملكون لكم رزقا ﴾ أى : لا يملكون لكم شيئا من الرزق حتى ولو كان غاية فى القلة .

وما دام الأمر كذلك : ﴿ فابتغوا عند الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ الرزق ﴾ الذى يكفيكم

ويغنيكم ﴿ واعبدوه ﴾ وحده - سبحانه - ﴿ واشكروا له ﴾ نعماءه ومننه وعطاياه .

فأنتم وجميع الخلق ﴿ إليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ لا إلى غيره ، فيجازيكم على أعمالكم وهكذا نرى إبراهيم - عليه السلام - قد سلك فى دعوته قومه إلى الحق أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله - عز وجل - الذى إليه المرجع والمآب .

ثم أخذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم ، فقال - تعالى - :

وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية - وهى قوله - تعالى - : ﴿ وإن تكذبوا ﴾ والآيات التى بعدها إلى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه .. ﴾ محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم

– صلوات الله عليه – لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها .

فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله ؟ قلت : المراد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة فى معنى أمم جَمة مكذبة ... »[١] .

وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل – عليه السلام – ، يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾[٢] .

وقوله – سبحانه – : ﴿ وإن تكذبوا ... ﴾ معطوف على محذوف ، والتقدير : إن تطيعونى – أيها الناس – فقد فزتم ونجوتم ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا فى ذلك ، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم ، فكانت عاقبة المكذبين خسرا .

ثم بين لهم إبراهيم – عليه السلام – وظيفته فقال : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فمرده إلى الله تعالى وحده .

ثم ساق – سبحانه – ما يدل على أن البعث حق ، وأنه – تعالى – لايعجزه شىء ، فقال : ﴿ أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾ .

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله – تعالى – الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ، وهى أهون عليه .

إنهم ليرون كيف يبدىء الله الخلق في النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة ، وفى كل ما لم يكن ، ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء ؟

فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم البعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى ما ذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٠ .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه - سبحانه - لايعجزه شىء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يهديهم إلى الحق فقال : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة . وأحوال شتى ... ثم قل لهم بعد كل ذلك ، الله الذى خلق الخلق ابتداء على تلك الصور المتنوعة والمتكاثرة ، هو وحده الذى ﴿ ينشئ النشأة الآخرة ﴾ أى : هو وحده الذى ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدهم فى المرة الأولى .

فجملة ﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ سيروا ... ﴾ وداخلة معها فى حيز القول ..

والكيفية فى هذه الآية باعتبار بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة ...

وفى الآية السابقة وهى قوله : ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ﴾ باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها .

والمقصود بالأمر بالسير : التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنبات الأرض ، أنه يوقظ الحس ، ويبعث على التفكير ، ويفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التى لم تألفها العين ، ولم يتأملها القلب قبل ذلك .

وجاء الأمر بالسير عاما ، لأن كل إنسان - فى كل زمان ومكان - يأخذ من وجوه العبرة والعظة - عن طريق هذا السير ما يتناسب مع عقله ، وثقافته ، وبيئته ، وفكره ، ومستواه المادى ، والاجتماعى ، والحضارى ...

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ تعليل لما قبله . أى : هو - سبحانه - قادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لايعجزها شىء ولايحول دون نفاذها حائل .

وهو - سبحانه - ﴿ يعذب من يشاء ﴾ ويرحم من يشاء برحمته ، ﴿ وإليه ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿ تُقلبون ﴾ أى : ترجعون جميعا فيحاسبكم على أعمالكم .

﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله - تعالى - ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض ، أم كنتم فى السماء ، إذ ليست هناك قوة فى هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب إليه - سبحانه - والوقوف بين يديه للحساب والجزاء .

قال الشوكانى : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ قال الفراء : ولا من فى السماء بمعجزين الله فيها ... والمعنى : أنه لا يعجزه - سبحانه - أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتنى فلان هاهنا ولابالبصرة . يعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها ... »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ مؤكد لما قبله . أى : لستم بقادرين على الهرب من لقاء الله - تعالى - . فى الآخرة . وليس سواه من ناصر ينصركم ، أو من قريب يدفع عنكم حكمه وقضاءه - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته .. وكفروا - أيضا - بالأدلة الدالة على ﴿ لقائه ﴾ بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء ﴿ أولئك ﴾ الذين كفروا بكل ذلك ﴿ يئسوا من رحمتى ﴾ أى : انقطع أملهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما وعبر - سبحانه - بالماضى لدلالة علمه التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم .

وأضاف - عز وجل - الرحمة إليه ، للإشارة إلى سبقها لغضبه ، وأنها تشمل عبادة المؤمنين .

﴿ وأولئك ﴾ أى : الذين كفروا بآيات الله وبلقائه ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ لايعلم مقدار شدته وفظاعته إلا هو - سبحانه - .

ثم قص - سبحانه - بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به عليهم . فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ١٩٨ .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ فما كان جواب قومه ... ﴾ بيان لما رد به الظالمون على نبيهم إبراهيم - عليه السلام - بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضح الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولفظ « جواب » بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ ..

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر المقابلة بين الإحراق والقتل .

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن من قومه من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على الإحراق ، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، وتحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة ...

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ فصيحة . أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار ، وألقوه فيها بعد اشتعالها ، فأنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا وسلاما عليه ...

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .. أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم - عليه السلام - حيث أخرجناه سليما من النار ﴿ لآيات ﴾ بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه له الخلق والأمر .

وجمع - سبحانه - الآيات لأن فى نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله - تعالى - لا دلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية ، وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا به ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله - تعالى - .

ولذا خص - سبحانه - هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - لقومه بعد أن نجاه الله من شرورهم فقال : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا ، مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ﴾ .

ولفظ « مودة » وردت فيه قراءات : فقد قرأه بعض القُراء السبعة بالنصب ، على أنه مفعول به لقوله : ﴿ اتخذتم ﴾ أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى :

وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادتها . وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، على حساب الحق والهدى .

وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما فى يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة . ﴿ ومأواكم النار ﴾ أى : ومنزلكم الذى تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة النار ﴿ ومالكم من ناصرين ﴾ يخلصونكم من هذه النار ، أو يخففوا سعيرها عنكم .

وبعض القراء السبعة قرأ لفظ ﴿ مودة ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى : أن اتخذتموه من عبادة الأوثان ، هو مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكفر بعضكم

ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا .

والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم .. أما فى الآخرة فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ...

وقوله - تعالى - : ﴿ فآمن له لوط ... ﴾ بيان للثمرة الطيبة التى ترتبت على دعوة إبراهيم لقومه ، إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله ، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق ، وما هم عليه هو الباطل .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ فآمن له لوط ﴾ يشعر بأن لوطا - عليه السلام - وحده ، هو الذى لبى دعوة إبراهيم ، وصدقه فى كل ما أخبر به .

ولوط - عليه السلام - يرى كثير من العلماء أنه ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - فهو لوط بن هاران بن آزر .

والضمير فى قوله - سبحانه - : ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى ... ﴾ يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط ، لأنه أقرب مذكور . أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به ، وقال : إنى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، لأبلغ دعوته ، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته .

ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، لأن الحديث عنه .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ أى : وقال إبراهيم : إنى مهاجر ، أى : من قومى ، إلى ربى .. أى إلى الجهة التى أمرنى بأن أهاجر إليها ﴿ إنه ﴾ - عز وجل - ﴿ هو العزيز ﴾ الغالب على أمره ... ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة ..

وقيل : الضمير فى ﴿ وقال ﴾ للوط - عليه السلام - ، وليس بشىء لما يلزم عليه من التفكيك »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس فقال : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ... ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٥٢ .

أى : ووهبنا لإبراهيم - بعد أن هاجر ومعه زوجه « سارة » وابن أخيه « لوط » - وهبنا له ابنه إسحاق ، ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته - أيضا - الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن .

فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التى أنزلها - سبحانه - على موسى وعيسى وداود ومحمد - صلوات الله عليه - ، وهم جميعا من نسل إبراهيم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق ويعقوب ؟

قلت : قد دل عليه فى قوله : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره ، وعلو قدره .

فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التى هى : التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾ بيان لنعمة أخرى أنعم بها - سبحانه - على نبيه إبراهيم - عليه السلام - .

أى : وهبنا له الذرية الصالحة ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة فى الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته .

﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ الذين سنعطيهم أجزل العطاء وأوفاه .

وهكذا جمع الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه فى تبليغ رسالة ربه .

وبمناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه . لوط - عليه السلام - الذى آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام .. قال - تعالى - :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥١ .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه .. ﴾ منصوب بالعطف على إبراهيم فى قوله - تعالى - : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه .. ﴾ أو بفعل مضمر .

أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح :

﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ أى : إنكم لتفعلون الفعلة

البالغة أقصى دركات القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الذكور دون الإناث .

قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .

وقال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

وجاء قوله - عليه السلام - مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر ... ﴾ بيان لتلك الفاحشة التى كانوا يقترفونها ، والاستفهام للتأنيب والتقريع .

والسبيل : الطريق . والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة ، بأن تنتهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التى تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم - عليه السلام - قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ شهواتهم .

فماذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام - ؟ لقد كان جوابهم فى غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يالوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها .

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصح نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[1] .

---

(١) سورة النمل . الآية ٥٦ .

ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ ، أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يسبقهم بها من أحد من العالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام - ، وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق . قبل أن ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :

﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق : قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ ، حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا فى مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بخشيته وشفقته : ﴿ إن فيها لوطا ﴾ أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبى من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها ؟ وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشيته فقالوا : ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .

﴿ لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط - عليه السلام - حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .

والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى : بقى ، وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد . ومنه قولهم : هذا الشىء حدث فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - فى قومه ، فقال - عز وجل - : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم . وضاق بهم ذرعا ﴾ .

و « أن » هنا مزيدة لتأكيد المجىء . و « سىء بهم » أى : اعترته المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه من اعتداء قومه عليهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا ، على قدر سعة خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع ... وإنما ضاق ذرعه بهم ، لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه .. »[1] . أى : وحين جاءت الملائكة إلى لوط - عليه السلام - ورآهم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم . وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء الضيوف .

والتعبير بقوله - سبحانه - ﴿ وضاق بهم ذرعا ﴾ : تعبير بليغ ، وتصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه ، وعجزه عن وجود مخرج للمكروه الذى حل به . و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل ، أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

ولاحظ الملائكة - عليهم السلام - على لوط قلقه وخوفه ، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه ، يالوط : ﴿ لا تخف ولا تحزن ﴾ أى : لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ﴿ إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى سننزله بقومك ، إلا امرأتك فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى سينزل بها العذاب على قومه فقالوا : ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

والرجز : العذاب الذى يزعج المعذب به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع . يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - ﴿ رجزا من السماء ﴾ أى : عذابا شديدا كائنا من السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت . أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٧٤ .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة . تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكر .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها . بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ كما قال : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

* * *

ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة شعيب وهود وصالح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسرا ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٧ .

وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا .. ﴾ معطوف على مقدر محذوف ، لدلالة ما قبله عليه . ومدين : اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - . وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود الحجاز والشام .

وقد أرسل الله - تعالى - إليهم شعيبا - عليه السلام - ليأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التى كانت منتشرة فيهم ، والتى من أبرزها التطفيف فى المكيال والميزان .

والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، رسولنا شعيبا - عليه السلام - .

﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أى : فقال لهم ناصحا ومرشدا ، الكلمة التى قالها كل نبى لأمته : ياقوم اعبدوا الله - تعالى - وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من شرك .

وقال لهم - أيضا : وارجوا النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فإن الإفساد فى الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجهلاء الجاحدين لنعم الله - تعالى - . يقال : عَثِى فلان فى الأرض يعثو ويعثَى - كقال وتعب - ، إذا ارتكب أشد أنواع الفساد فيها .

فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - كما جاء فى الحديث الشريف ، قد أمر قومه بإخلاص العبادة لله ، وبالعمل الصالح الذى ينفعهم فى أخراهم ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فماذا كان موقفهم منه ؟

كان موقفهم منه : التكذيب والإعراض ، كما قال - سبحانه - : ﴿ فكذبوه ﴾ أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه .

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ أى : فأهلكهم الله - تعالى - بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهى الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطرابا شديدا .

ولا تعارض هنا بين قوله - تعالى - : ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ وبين قوله - سبحانه - فى سورة هود : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ لأنه يجوز أن الله - تعالى - جعل لإهلاكهم سببين : الأول : أن جبريل - عليه السلام - صاح بهم صيحة شديدة أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم . وبعضهم قال : إن الرجفة والصيحة بمعنى واحد .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم .

والمراد بدارهم : مساكنهم التى يسكنونها ، أو قريتهم التى يعيشون بها وقوله : ﴿ جاثمين ﴾ من الجثوم ، وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم - من باب ضرب - ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

أى : فأصبحوا فى مساكنهم هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .

ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ .

وعاد : هم قوم هود - عليه السلام - وكانوا يسكنون بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضرموت .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح .

أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ، والحال أنه قد تبين لكم - يا أهل مكة - وظهر لكم بعض مساكنهم ، وأنتم تمرون عليهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ المقصود منه غرس العبرة والعظة فى نفوس مشركى مكة ، عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين ، فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار ، مشاهدة آثار التمزيق والتدمير ، بعد القوة والتمكين .

﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ السيئة . بسبب وسوسته وتسويله ، ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ الحق ، وعن الطريق المستقيم .

﴿ وكانوا ﴾ أى : عادا وثمود ﴿ مستبصرين ﴾ أى : وكانت لهم عقول يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغى على الرشد ، فأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .

وقوله - تعالى - : ﴿ مستبصرين ﴾ من الاستبصار ، بمعنى التمكن من تعقل الأمور ، وإدراك خيرها من شرها ، وحقها من باطلها .

ثم أشار - سبحانه - إلى ماحل بقارون وفرعون وهامان فقال : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ﴾ أى : وأهلكنا - أيضا - قارون ، وهو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذى قال لقومه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وهامان الذى كان وزيرا لفرعون وعونا له فى الكفر والظلم والطغيان .

قال الآلوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسلية النبى - ﷺ - فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى - عليه السلام - وقد لقى منه مالقى . أو لأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود ، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده الاستبصار شيئا ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا ..[1] .

ثم بين - سبحانه - ما جاءهم به موسى - عليه السلام - وموقفهم منه فقال : ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات ﴾ أى : جاءهم جميعا بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه .

﴿ فاستكبروا فى الأرض ﴾ أى : فاستكبر قارون وفرعون وهامان فى الأرض . وأبوا أن يؤمنوا بموسى ، بل وصفوه بالسحر وبما هو برىء منه .

﴿ وما كانوا سابقين ﴾ أى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو ناجين من قضائنا فيهم ، ومن إهلاكنا لهم .

فقوله : ﴿ سابقين ﴾ من السبق ، بمعنى التقدم على الغير . يقال فلان سبق طالبه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه .

والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيعوا - رغم قوتهم وغنائهم - أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عذابنا إدراكا تاما فأبادهم وقضى عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، فقال : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ﴾ .

أى : فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح ، وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى أصر عليها دون أن يرجع عنها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٥٨ .

﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ أى : فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصباء فأهلكته .

قال القرطبى : قوله : ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار . وتستعمل فى كل عذاب[1] .

﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب - عليهما السلام - .

﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ وهو قارون .

﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .

﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أى : وما كان الله - تعالى - مريدا لظلمهم ، لأنه - سبحانه - اقتضت رحمته وحكمته ، أن لا يعذب أحدا بدون ذنب ارتكبه .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أى : ما ظلم الله - تعالى - هؤلاء المهلكين ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وعرضوها للدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واتباعهم للهوى والشيطان .

وبذلك نرى الآيات قد قصت على الناس مصارع الغابرين ، الذين كذبوا الرسل ، وحاربوا دعوة الحق ، ليكون فى هذا القصص عبرة للمعتبرين ، وذكرى للمتذكرين .

ثم ضرب الله مثلا ، لمن يتخذ آلهة من دونه : وتوعد من يفعل ذلك باشد أنواع العذاب ، فقال - تعالى - :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٤ .

والمَثَل والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم أطلق المثل على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة - ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة . وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل ، أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والعنكبوت : دويبة معروفة ، تنسج لنفسها فى الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنها شيئا ، وتطلق هذه الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى استعمالها التأنيث . والواو والتاء زائدتان ، كما فى لفظ طاغوت .

والمعنى : حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله - تعالى - أصنامًا يعبدونها ، ويرجون نفعها وشفاعتها ... كحال العنكبوت فى اتخاذها بيتًا ضعيفًا مهلهلًا ، لا ينفعها لا فى الحر ولا فى القر ، ولا يدفع عنها شيئًا من الأذى .

فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - آلهة ، هى فى ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوى العلم لما عبدوا تلك الآلهة .

قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلًا ومعتمدًا فى دينهم ، وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس فى الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت . ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟

قلت : معناه ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن ... »[1] .

وقال الآلوسى : قوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا يعلمون شيئًا من الأشياء ، لعلموا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . و « لو » شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها للتمنى فلا جواب لها ، وهو غير ظاهر »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٦٢ .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شىء ، وأنه سيجازى هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

و « ما » موصولة ، وهى مفعول يعلم ، والعائد محذوف ، و « من شىء » بيان لما .

أى : إن الله - تعالى - يعلم علمًا تامًا الذى يعبده هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات أم من غير ذلك ، ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب على كل شىء ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله .

﴿ وتلك الأمثال ﴾ التى سقناها فى كتابنا العزيز ، والتى من بينها المثال السابق .

﴿ نضربها للناس ﴾ على سبيل الإرشاد والتنبيه والتوضيح .

﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ أى : وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله - تعالى - ، الفاقهون لما يتلى عليهم .

ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه - ﷺ - بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال - تعالى - :

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

أى : خلق الله - تعالى - السموات والأرض بالحق الذى لا باطل معه ، وبالحكمة التى لا يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقًا مع مصالح عبادنا ومنافعهم ..

ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى - أيها العاقل - فى خلق الرحمن من تفاوت أو تصادم ، أو اضطراب .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ يعود إلى خلق السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من بدائع وعجائب .

أى : إن فى ذلك الذى خلقناه بقدرتنا ، من سماوات مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصيها العد فى هذا الكون ، إن فى كل ذلك لآية بينة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله - عز وجل - .

وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون فى هذه الآيات والدلائل ، وهم المنتفعون بها فى التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى حسن عبادته وطاعته .

والمقصود بالتلاوة فى قوله - تعالى - : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب ﴾ : القراءة المصحوبة بضبط الألفاظ ، وبتفهم المعانى . والخطاب للرسول - ﷺ - ويشمل كل من آمن به . أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ما أوحينا إليك من آيات هذا القرآن قراءة تدبر واعتبار واتعاظ ، وداوم على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك فى المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة .

﴿ وأقم الصلاة ﴾ أى : وواظب على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا بك فى ذلك .

وقوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص . أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة بالطريقة التى يحبها الله - تعالى - ، فإن من شأن الصلاة التى يؤديها المسلم فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ، أن تنهى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء - وهى كل ما قبح قوله وفعله - ، وعن المنكر - وهو كل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة - .

قال الجمل : « ومعنى نهيها عنها ، أنها سبب الانتهاء عنها ، لأنها مناجاة لله - تعالى - ، فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته ، وإعراض كلى عن معاصيه .

قال ابن مسعود : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد من الله إلا بعدًا ..

وروى عن أنس - رضى الله عنه - أن فتى من الأنصار ، كان يصلى مع النبى - ﷺ - ، ثم يأتى الفواحش ، فذكر للنبى - ﷺ - فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله »[1] .

والخلاصة : أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وبإتمام سننها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنسانًا يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٧٧ .

بعض المعاصى ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما الذنب ذنب هذا المرتكب للمعاصى ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوبًا بالخشوع والإخلاص ... وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه ..ولعلها تنهاه فى يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الصلاة ستنهاه » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أى : ولذكر الله - تعالى - بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة والذكر ، أفضل وأكبر من كل شىء آخر ، لأن هذا الذكر لله - تعالى - فى كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن الصلة بالله - تعالى - .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر .. أى : ولذكر الله - تعالى - إياكم ، أكبر من ذكركم إياه - سبحانه - ..

وروى عن جماعة من السلف أن المعنى : ولذكر العبد لله - تعالى - ، أكبر من سائر الأعمال .

أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله - تعالى - ..

وقيل : المراد بذكر الله : الصلاة . كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ ، أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله - تعالى - هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ، ناهية عن السيئات »[1] .

ويبدو لنا أن المراد بذكر الله - تعالى - هنا : ما يشمل كل قول طيب وكل فعل صالح ، يأتيه المسلم بأخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال ..

وأن المسلم متى أكثر من ذكر الله - تعالى - ، كان ثوابه - سبحانه - له ، وثناؤه عليه ، أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ تذييل قصد به الترغيب فى إخلاص العبادة لله ، والتحذير من الرياء فيها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٠ ص ١٦٥ .

أى : داوموا - أيها المؤمنون . على تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر واعتبار ، وأقيموا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإن الله - تعالى - يعلم ما تفعلونه وما تصنعونه من خير أو شر ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ..

ثم أمر الله - تعالى - رسوله والمؤمنين . أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، ما داموا لم يرتكبوا ظلماً ، وأقام - سبحانه - الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال :

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

والمجادلة : المخاصمة . يقال : جادل فلانٌ فلاناً ، إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منهما على أن يغلب صاحبه بقوة حجته . أى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التى هى أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق

(*) أول الجزء الحادى والعشرين .

الحق بأسلوب لين كريم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .. ﴾[1] .

وقوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن .

أى : ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم . بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم ، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب .

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة ، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عمومًا ، ماعدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم .

وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمراد بالذين ظلموا : من بقى على الكفر منهم .

فيكون المعنى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم .

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب ، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب ، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ... ﴾ يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم .

أى : جادلوهم بالطريقة الحسنى ماداموا لم يظلموكم ، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد « آمنا بالذى أنزل إلينا » وهو القرآن ، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل .

قال الشوكانى : أى : آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه ،[2] .

﴿ وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ﴿ ونحن ﴾ جميعًا معاشر المؤمنين ﴿ له مسلمون ﴾ أى : مطيعون وعابدون له وحده ، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل - .

---

(١) سورة النحل . الآية ١٢٥ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٠٥ .

قال القرطبى ما ملخصه : اختلف العلماء فى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب .. ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - ، والتنبيه على حججه وآياته ... وقوله : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى ظلموكم ..

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله .. ﴾ .

وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به .. ﴾ .

والكاف بمعنى مثل : واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا . أى : ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك ، وهو القرآن .

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله . والمراد بالكتاب جنسه . والضمير فى « به » يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد - ﷺ - وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم . لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه ، أما غيرهم ممن بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلاً .

وقوله : ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ أى : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك .

و « من » للتبعيض ، لأنهم لم يؤمنوا جميعًا ، وإنما آمن منهم من هداه الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم .

﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، ﴿ إلا الكافرون ﴾ أى : إلا الموغلون فى الكفر ، المصرون عليه إصرارًا تامًا .

والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٥٠ .

وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران .

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى - ، فقال : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تاليًا لكتاب من الكتب ، ولا عارفًا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من كتاب ﴾ لتأكيد نفى كونه - ﷺ - قارئًا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه .

وقوله : ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ لتأكيد نفى كونه - ﷺ - يعرف الكتابة أو الخط .

قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته - ﷺ - فى الكتب المتقدمة ، كما قال - تعالى - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل .. ﴾ وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفًا بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم ... »[1] .

والمراد بالمبطلين ، كل من شك فى كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم .

وسماهم - سبحانه - مبطلين ، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق ، لأن الرسول - ﷺ - قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه ، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة .

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ... ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٥ .

أى : هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول - ﷺ - كما زعم المبطلون - ، بل هو آيات بينات واضحات راسخات ، فى صدور المؤمنين به ، الذين حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته ، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب .

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم ، والإعلاء من شأنهم ، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع ، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق فى أحكامهم وتصرفاتهم .

أى : وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها ، وينكر كونها من عند الله - تعالى - ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق ، ولكل ما هو صدق .

ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشركين الفاسدة وأمرت الرسول - ﷺ - أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم ، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم ، حيث استعجلوا العذاب الذى لا يستعجله عاقل . فقال - تعالى - :

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ﴾ الآيات الكونية ، كعصا موسى ، وناقة صالح . ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .

أى : وقال المبطلون للنبى - ﷺ - على سبيل التعنت والعناد ، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك ، لكى نؤمن بك ونتبعك ؟

وقوله : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ﴾ إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى ما يرد به عليهم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى ردك على هؤلاء الجاهلين ، إنما الآيات التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده ، ينزلها حسب إرادته وحكمته ، أما أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى ، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى - شيئاً .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .. ﴾ كلام مستأنف من جهته - تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم ، والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب الناطق بالحق ، يتلى على مسامعهم صباح مساء ، ويهديهم إلى ما فيه سعادتهم ، لو تدبروه وآمنوا به ، واتبعوا أوامره ونواهيه ؟

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ يتلى عليهم ﴾ ، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة عليهم ، وغير منقطعة عنهم ، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا يعقلون .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الكتاب الذى أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم - ، والذى تتلوه عليهم صباح مساء ، لرحمة عظيمة ، وذكرى نافعة ، لقوم يؤمنون بالحق ، ويفتحون عقولهم للرشد ، لا للتعنت والجحود والعناد .

ثم أرشده – سبحانه – إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدًا ﴾ . أى : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء الجاهلين : يكفينى كفاية تامة أن يكون الله – تعالى – وحده ، هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده .

وهو – سبحانه – ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ علمًا لا يعزب عنه شىء ، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب ، وسيجازيكم بما تستحقونه من عقاب .

﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ وأعرضوا عن الحق ﴿ وكفروا بالله ﴾ – تعالى – مع وضوح الأدلة على أنه – سبحانه – هو المستحق للعبادة والطاعة .

الذين فعلوا ذلك : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة ، حيث آثروا الغى على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم فرطًا فى الدنيا والآخرة .

وقوله – عز وجل – : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ... ﴾ بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم . أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك – أيها الرسول الكريم – بل أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك . بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء ، على سبيل التحدى لك . كما قالوا فى موطن آخر : ﴿ ... اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[1] .

ثم يبين الله – تعالى – حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول : ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ... ﴾ . أى : يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم ، والحق أنه لولا أجل مسمى ، ووقت معين ، حدده الله – تعالى – فى علمه لنزول العذاب بهم ، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير .

ومع ذلك فقل لهم – أيها الرسول الكريم – إن هذا العذاب آت لاريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله – تعالى – ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك : ﴿ ليأتينهم بغتة وهم لايشعرون ﴾ . أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لايشعرون به ، بل يأتيهم بغتة فيبهتهم ، ويستأصل شأفتهم .

ثم كرر – سبحانه – أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ، والتسلية للرسول – ﷺ – عما لقيه منهم . فقال : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ .

أى : يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب ، الذى لايطلبه أحد فى ذهنه مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب .

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ .

أى : ستحيط بهم جهنم من كل جانب . يوم يحل بهم العذاب ﴿ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أى : من جميع جهاتهم .

﴿ ويقول ﴾ - سبحانه - لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى : تذوقوا العذاب المهين الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين ، الذين استعجلوا العذاب لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق ، فقال - تعالى - :

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ... ﴾ : هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ...

روى الإمام أحمد عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله - ﷺ - : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرًا فأقم » .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك .. ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة المنورة ... »[١] .

وفى ندائهم بقوله : ﴿ ياعبادى ﴾ وفى وصفهم بالإيمان ، تكريم وتشريف لهم ، حيث أضافهم - سبحانه - إلى ذاته ، ونعتهم بالنعت المحبب إلى قلوبهم .

وقوله : ﴿ إن أرضى واسعة ﴾ تحريض لهم على الهجرة من الأرض التى لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة فى تلك الأرض التى لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل اخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله - تعالى - من حيث لا يحتسب .

ومن المفسرين الذين أجادوا فى شرح هذا المعنى ، صاحب الكشاف - رحمه الله - فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبًا ، وأصح دينا ، وأكثر عبادة ...

ولعمرى إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتلفت ، وأضم للهم المنتشر ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد عن الفتن ... من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ... »[٢] .

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿ فإياى فاعبدون ﴾ بمعنى الشرط ، وإياى منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما يشبهه . أى : فاعبدو إياى فاعبدون .

والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياى فاعبدوا ، لأن أرضى واسعة ، ولن تضيق بكم .

ثم رغبهم بأسلوب آخر فى الهجرة من الأرض الظالم أهلها ، بأن بين لهم بأن الموت سيدركهم فى كل مكان ، فقال - تعالى - : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون ﴾ .

أى : كل نفس سواء أكانت فى وطنها الذى عاشت فيه أم فى غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لكأسه ، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون جميعًا لنحاسبكم على أعمالكم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنبوئنهم من الجنة غرفا ... ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٦١ .

أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلنهم من الجنة غرفا عالية فخمة . هذه الغرف من صفاتها أنها ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ زيادة فى إكرام أصحابها ، وفضلاً عن ذلك فقد جعلناهم ﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديًا .

والمخصوص بالمدح فى قوله : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ محذوف . أى : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ صفة لهؤلاء العاملين .

أى : من مناقبهم الجليلة أنهم يصبرون على طاعة الله ، وعلى كل ما يحسن معه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره .

ثم رغبهم - سبحانه - فى الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث ، حيث بين لهم أن هجرتهم لن تضيع شيئًا من رزقهم الذى كتبه الله لهم ، فقال - سبحانه - : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ .

روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عندما أمرهم النبى - ﷺ - بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة ، فنزلت هذه الآية .

وكلمة « كأين » : مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير . ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . و « من دابة » تمييز لها .

وجملة : « لا تحمل رزقها » صفة لها ، وجملة « الله يرزقها » هى الخبر .

والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم من غير العقلاء . أى : وكثير من الدواب التى خلقها الله - تعالى - بقدرته ، لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، لضعفها أو عجزها ... ومع هذا فالله - تعالى - برحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعًا ، ويرزقكم أنتم - أيضًا ، لأنه لا يوجد مخلوق - مهما اجتهد ودأب يستطيع أن يخلق رزقه .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ السميع ﴾ لكل شىء ﴿ العليم ﴾ بما تسرون وما تعلنون .

وقدم - سبحانه - رزق الدابة التى لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم فقال : ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ لينفى من قلوب الناس القلق على الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هى كل شىء ، فإن واهب الأسباب ، لا يترك أحدًا بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر فى النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله قد تنقص الرزق ..

وهكذا يسوق – سبحانه – من المرغبات فى الهجرة فى سبيله ، ما يقنع النفوس ، ويهدى القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على تلبية ندائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم ، فسبحان من هذا كلامه .

ثم ختم – سبحانه – السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون من تناقض فى أفكارهم وفى تصوراتهم ، وببيان حال هذه الحياة الدنيا . وببيان جانب من النعم التى أنعم بها على أهل مكة ، وببيان ما أعده للمجاهدين فى سبيله من ثواب ، فقال – تعالى – :

وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى
ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ

لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ... ﴾ بيان لما كان عليه مشركو العرب من اعتراف بأن المستقل بخلق هذا الكون هو الله - تعالى - .

أى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، من الذى أوجد هذه السموات وهذه الأرض ، ومن الذى ذلل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولن بدون تردد : الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك بقدرته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ تعجيب من تناقضهم فى أفعالهم ، ومن انحراف فى تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم .

أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هوالخالق للسموات والأرض ، والمسخر للشمس والقمر ، فلماذا أشركتم معه فى العبادة آلهة أخرى ؟ ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته - عز وجل - ؟

ثم بين - سبحانه - أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن يشاء ويضيقها على من يشاء فقال : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له .. ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ له ﴾ يعود على ﴿ من ﴾ على حد قولك : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه عليه من عباده ، وهو وحده الذى يضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده . لأنه - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شىء عنده بمقدار .

ويجوز أن يكون المعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى بقدرته أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى .

فعلى المعنى الأول : يكون البسط فى الرزق لأشخاص ، والتضييق على آخرين ، وعلى المعنى الثانى يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن فى أوقات مختلفة .

والله - تعالى - قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه فسادهم ، ويعلم من يستحق أن يبسط له فى رزقه ، ومن يستحق التضييق عليه فى رزقه .

ثم أكد - سبحانه - للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المشركين بقدرة الله - تعالى - فقال : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ﴾ أى : ماء كثيرًا ﴿ فأحيا به الأرض من بعد موتها ﴾ أى : فجعل الأرض بسبب نزول الماء عليها تصبح خضراء بالنبات بعد أن كانت جدباء قاحلة .

لئن سألتهم من فعل ذلك ﴿ ليقولن الله ﴾ هو الذى فعل ذلك .

﴿ قل الحمد لله ﴾ أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الثناء على الله - تعالى - : الحمد لله الذى أظهر حجته ، وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين ، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ إضراب عما هم عليه من انحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسلية للرسول - ﷺ - عما يعتريه بسببهم من حزن .

أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئًا مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة .

وفى التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته ، وآمنت به وصدقته ، ثم بين - سبحانه - هوان هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار الآخرة فقال : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

واللهو : اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه . أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا .

واللعب : العبث . وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح .

أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه فى سرعة انقضائها وزوال متعها ، الأشياء التى يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتًا ، ثم ينفضون عنها .

أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الدائمة الباقية ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انقضاء .

ولفظ « الحيوان » مصدر حى . سمى به ذو الحياة ، والمراد به هنا : نفس الحياة الحقة .

وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يحيط بهم البلاء فقال - تعالى - : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين .. ﴾ . أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرت بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا أن الغرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله - تعالى - مخلصين له العبادة والدعاء .

﴿ فلما نجاهم إلى البر ﴾ بفضله وكرمه ، وأنقذهم من الغرق المحقق ﴿ إذا هم يشركون ﴾ مع الله - تعالى - غيره فى العبادة والطاعة .

وقد فعلوا ذلك : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة .

﴿ وليتمتعوا ﴾ بمتع هذه الحياة وزينتها إلى حين ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع بزينة الحياة الدنيا دون أن يعملوا شيئًا ينفعهم فى أخراهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ : الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كى ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام . فالشرك سبب لهذا الكفران . وأدخلت لام كى على مسببه ، لجعله كالغرض لهم منه ، فهى لام العاقبة فى الحقيقة .

وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، مجاز فى التخلية والخذلان والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : « افعل ما شئت »[1] .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة الحرم الآمن ، الذى يعيشون فى جواره مطمئنين ، فقال : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ .

أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التى هم فيها ، ولم يدركوا ويشاهدوا أنا جعلنا بلدهم مكة حرمًا آمنًا ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، والحال أن الناس من حولهم يقتل بعضهم بعضًا ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة . والتخطف : الأخذ بسرعة .

قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضًا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة بهم »[2] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ للتعجب من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله - تعالى - . أى : أفبعد هذه النعمة

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٦٤ .

الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التى تستدعى استجابتهم للحق يكفرون .

فالآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره ، من تعجب وتوبيخ وتقريع .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبا ، بأن زعم بأن لله - تعالى - شريكا ، أو كذب بالحق الذى جاءه به الرسول - ﷺ - بأن أعرض عنه ، وأبى أن يستمع إليه .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ للتقرير ، والمثوى : المكان الذى يثوى فيه الشخص ، ويقيم به ، ويستقر فيه .

أى : أليس فى جهنم مأوى ومكانًا يستقر فيه هؤلاء الكافرون لنعم الله - تعالى - ؟ بل إن فيها مكانًا لاستقرارهم ، وبئس المكان ، فإنها ساءت مستقرا ومقاما .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

أى : هذا الذى ذكرناه سابقًا من سوء مصير ، هو للمشركين الذين يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم فى سبيل إعلاء ديننا ، وقدموا أنفسهم وأموالهم فى سبيل رضائنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة والطاعة ، فإننا لن نتخلى عنهم ، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ، ونجعل العاقبة الطيبة لهم ، فقد اقتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وتلك سنتنا التى لا تتخلف ولا تتبدل .

وبعد فهذا تفسير لسورة « العنكبوت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر - ظهر الأحد ١٩ من جمادى الأولى ١٤٠٥ هـ
٦ / ١ / ١٩٨٥ م

تفسير
سُورَةُ الرُّومِ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الروم هى السورة الثلاثون فى ترتيب المصحف أما ترتيبها فى النزول فهى السورة الثانية والثمانون ، وقد كان نزولها بعد سورة الانشقاق .

٢ - وقد افتتحت بالحديث عن قصة معينة ، وهى قصة الحروب التى دارت بين الفرس والروم ، والتى انتهت فى أول الأمر بانتصار الفرس ، ثم كان النصر بعد ذلك للروم .

قال - تعالى - : ﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

٣ - ثم وبخت السورة الكريمة الكافرين ، لعدم تفكرهم فى أحوال أنفسهم ، وفى أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، وتوعدتهم بسوء المصير بسبب انطماس بصائرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق ، ووعدت المؤمنين بحسن الجزاء .

قال - تعالى - : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ .

٤ - ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك اثنى عشر دليلا على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وقد بدئت هذه الأدلة بقوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

٥ - وبعد أن أقام - سبحانه - هذه الأدلة المتعددة على وحدانيته وقدرته ، أتبع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وبالإنابة إليه - تعالى - فقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا

فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء ، ودعاهم إلى التعاطف والتراحم ، ونفرهم من تعاطى الربا ، فقال - تعالى - : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

٧ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وبين الآثار السيئة التى تترتب على جحود هذه النعم ، ودعا الناس للمرة الثانية إلى اتباع الدين القيم ، الذى لا يقبل الله - تعالى - دينا سواه ، فقال - تعالى - : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصَّدَّعون . من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

٨ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة الله فى الرياح وفى إرسال الرسل ، وأمر كل عاقل أن يتأمل فى آثار هذه النعم ، ليزداد إيمانا على إيمانه ، فقال - تعالى - ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ﴾ .

٩ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أهوال الساعة ، وحكى أقوال أهل العلم والإيمان ، فى ردهم على المجرمين عندما يقسمون أنهم مالبثوا فى هذه الدنيا سوى ساعة واحدة ، وأمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يصبر على أذى أعدائه ، فقال - تعالى - : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ .

١٠ - وهكذا نجد أن سورة «الروم» قد أفاضت فى الحديث عن الأدلة المتعددة ، التى تشهد بوحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، وبأن يوم القيامة حق وصدق ، كما ساقت آيات متعددة فى المقارنة بين مصير الأخيار ، ومصير الأشرار ، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، كما حضت على التعاطف والتراحم بين المسلمين ، ونهت عن تعاطى الربا ، لأنه لا يربو عند الله - تعالى - ، وإنما الذى يعطى من صدقات هو الذى يربو عند الله - عز وجل - كما ذكرت أنواعا من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على عباده ، وأمرتهم بشكره - سبحانه - عليها ، لكى يزيدهم من فضله .

هذه أهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يراها من يتدبر هذه السورة الكريمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - ١٧ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

٧ / ٣ / ١٩٨٥ م



التفسير

قال الله تعالى : .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)

سورة الروم من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد ذكرنا فى أكثر من سورة آراء العلماء فى هذه الحروف ، ورجحنا أن هذه الحروف قد ذكرها - سبحانه - فى افتتاح بعض السور القرآنية ، للتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله ، لأن الله - تعالى - قد أنزله على رسوله - ﷺ - بمثل الحروف التى ينطق بها المشركون ، ومع ذلك فهم أعجز من أن يأتوا بسورة من مثله .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ غلبت الروم . فى أدنى الأرض .. ﴾ روايات منها ، ما رواه ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض .. ﴾ قالو : يا أبا بكر .

إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين : قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ - أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحريم الرهان - فبايعوه على أربع قلائص - جمع قلوص ، وهى من الإبل : الشابة - إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شىء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر للنبى - ﷺ - فقال : ما بضع سنين عندكم ؟ قالوا : دون العشر .

قال : اذهب فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك .[1] .

وقال بعض العلماء : اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان قد غزا بلاد الشام مرتين : فى سنة ٦١٣ ، وفى سنة ٦١٤ ، أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون ، وشمتوا فى المسلمين .. فنزلت هذه الآيات .

فلم يمض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين ، إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة ٦٢١ م . أى : قبل الهجرة بسنة[2] .

وأدنى بمعنى أقرب . والمراد بالأرض : أرض الروم .

أى : غلبت الروم فى أقرب أرضها من بلاد الفرس .

قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، - على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما - ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس[3] .

وقال الآلوسى : والمراد بالأرض : أرض الروم ، على أن « أل » نائبة مناب الضمير المضاف إليه ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم . أو المراد بها أرض مكة ونواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربية بالنظر إلى الروم[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ﴾ بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ، بأن الله - تعالى - سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٠٥ . وتفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ١٣ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٢ ص ٤٧٦٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٠ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٧ .

أى وهم - أى الروم - من بعد هزيمتهم من الفرس ، سينتصرون عليهم ، خلال بضع سنين .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ سيغلبون . فى بضع سنين ﴾ ، لتأكيد هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمر الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - حيث أخبر عن أمور ستقع فى المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ جملة معترضة لبيان قدرة الله - تعالى - التامة النافذة ، فى كل وقت وآن . أى : لله - تعالى - وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس : وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته ، وليس لأحد من الخلق أن يخرج عما قدره - سبحانه - وأراده .

﴿ ويومئذ ﴾ أى : ويوم أن يتغلب الروم على الفرس ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل - سبحانه - بهذا النصر شماتة المشركين فى المسلمين ، وازداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم .

قال ابن كثير : وقد كانت نصرة الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، فى قول طائفة كبيرة من العلماء ... فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ مؤكد لما قبله . أى : ينصر - سبحانه - من يريد نصره ، ويهزم من يريد هزيمته ، وهو ، العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء .

ثم زاد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا وتقوية فقال : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ .

ولفظ « وعد » منصوب بفعل محذوف .

أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعدا مؤكدا ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أنه لا يخلف وعده .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ، لا نطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواذ الشيطان عليهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٠ .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ يعود للأكثر من الناس . أى : هؤلاء الأكثرون من الناس ، من أسباب جهلهم بسنن الله - تعالى - فى خلقه ، أنهم لا يهتمون إلا بملاذ الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها .

﴿ وهم عن الآخرة ﴾ وما فيها من حساب وثواب وعقاب ﴿ هم غافلون ﴾ لأنهم آثروا الدار العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم - كما قال - تعالى - : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿ يعلمون ظاهرا ﴾ بدل من قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده . ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا .. وفى تنكير قوله : ﴿ ظاهرا ﴾ إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهر الحياة الدنيا[1] .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الكافرين وأشباههم ، انهماكهم فى شئون الدنيا انهماكا تاما ، جعلهم غافلين عما ينتظرهم فى أخراهم من حساب وعقاب . ورحم الله القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ثم حضهم - سبحانه - على التفكر فى خلق أنفسهم ، وعلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر والتدبر يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٨ .

وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

والاستفهام فى قوله – تعالى – : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى .. ﴾ لتوبيخ أولئك الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما خلق ﴾ للنفى ، والباء فى قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ للملابسة . وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على الحق .

والمعنى : أبلغ الجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالانهماك فى متع الحياة الدنيا ، ولم يتفكروا فى أحوال أنفسهم وفى أطوار خلقها ، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا ، أن الله – تعالى – : ما خلق السموات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسة بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وبالحكمة التى لا يحوم حولها عبث ، وقد قدر – سبحانه – لهذه المخلوقات جميعها أجلا معينا تنتهى عنده ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكر فى تكوين أنفسهم ، وفى ملكوت السموات والأرض ، لأن هذا التفكر من شأنه أن يهدى إلى الحق ، كما تلفت أنظارهم إلى أن لهذا الكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله – تعالى – بذلك ، وبقيام الساعة .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة ببيان موقف الأكثرية من الناس من قضية البعث والجزاء فقال : ﴿ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

أى : وإن كثيرا من الناس لفى انشغال تام بدنياهم عن آخرتهم ، ولا يؤمنون بما فى الآخرة من حساب وثواب وعقاب ، بل يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى رأس هذا الصنف من الناس مشركو مكة الذين أرسل النبى – ﷺ – فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإن كثيرا من الناس .. ﴾ للإشعار بأن هناك عددا قليلا من الناس - بالنسبة لهؤلاء الكثيرين - قد آمنوا بلقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذى يرضى خالقهم - عز وجل - .

ثم قرعهم - سبحانه - للمرة الثانية على عدم اتعاظهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. ﴾ .

أى : أقعد مشركو مكة فى ديارهم ، ولم يسيروا فى الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ بيان لحال هؤلاء الأقوام السابقين ﴿ وأثاروا الأرض ﴾ أى : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة فى كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتهيئتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها .

﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ أى : حرثوا الأرض وشقوا عن باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر دراية بعمارة الأرض .

وهؤلاء الأقوام السابقون : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله - تعالى - ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أى : فما كان الله - تعالى - من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب .

﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصى ما كان سببا فى هلاكهم .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ ، الذى حل بهؤلاء الكافرين فقال : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ﴾ .

ولفظ « عاقبة » قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى - بفتح التاء - على أنه خبر « كان » قدم على اسمها ، وهو لفظ « السوأى » الذى هو تأنيث الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأحسن . وجرد الفعل « كان » من التاء مع أن السوأى مؤنث ، لأن التأنيث غير حقيقى .

فيكون المعنى : ثم كانت العقوبة السيئة وهى العذاب فى جهنم ، عاقبة الذين عملوا فى دنياهم الأعمال السيئات .

وقرأ الباقون برفع لفظ « عاقبة » على أنه اسم كان، وخبرها لفظ « السوأى » أى : ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساءوا فى دنياهم ، أسوأ العقوبات وأقبحها ، أو كانت عاقبتهم العاقبة السوأى وهى الإلقاء بهم فى النار وبئس القرار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة ، أى : لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا بحذف حرف الجر .

أى ؛ كانت عاقبتهم فى الآخرة أسوأ العقوبات وأقبحها وهى العذاب فى جهنم ، لأنهم فى الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا - ﷺ - وكانوا بها يستهزئون .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته ، وبين أحوال الناس وأقسامهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾

أى : ﴿ الله ﴾ - تعالى - وحده هو ﴿ يبدأ الخلق ﴾ أى : ينشئه ويوجده على غير مثال سابق ، ﴿ ثم يعيده ﴾ أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ للحساب والجزاء ، فيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وأفرد - سبحانه - : الضمير فى ﴿ يعيده ﴾ باعتبار لفظ الخلق . وجمعه فى قوله : ﴿ ترجعون ﴾ باعتبار معناه .

ثم ذكر - سبحانه - حال المجرمين يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ و ﴿ يبلس ﴾ من الإبلاس بمعنى السكوت والذهول وانقطاع الحجة ، يقال : أبلس الرجل ، إذا وقف ساكتا حائرا مبهوتا لا يجد كلاما ينقذه مما هو فيه من بلاء .

أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون بالذهول والحيرة والسكوت المطبق ، لانقطاع حجتهم ، وشدة حزنهم وهمهم ، ويأسهم من النجاة يأسا تاما .

﴿ ولم يكن لهم ﴾ فى هذا اليوم ﴿ من شركائهم ﴾ الذين عبدوهم فى الدنيا ﴿ شفعاء ﴾ يشفعون لهم ، ويجيرونهم من عذاب الله .

﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ أى : أنهم فى هذا اليوم العسير لم يكن لهم من شفعاء يشفعون لهم . بل إنهم صاروا فى هذا اليوم الشديد ، كافرين بشركائهم الذين توهموا منهم الشفاعة ، لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق ، ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضر .

ثم كرر - سبحانه - هذا المعنى على سبيل التأكيد والتهويل من شأنه فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ يتفرقون ﴾ للناس جميعا . والمراد بتفرقهم أن كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التى أمرهم - سبحانه - بالتوجه إليها ، لينال كلٌّ جزاءه .

ثم بين - سبحانه - كيفية هذا التفرق فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ .

والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن . والمراد بها هنا : الجنة .

ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج .

أى : ويوم تقوم الساعة ، فى هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين ، فأما فريق الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، فسيكونون فى الآخرة فى جنة عظيمة ، يسرون بدخولها سرورا عظيما ، وينعمون فيها نعيما لا يحيط به الوصف .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ بالله وبرسله وباليوم الآخر ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا ﴿ فأولئك ﴾ الكافرون ﴿ فى العذاب محضرون ﴾ أى : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه ، بحيث لا يستطيعون الهروب منه - والعياذ بالله .

وبعد هذا البيان المؤثر لأهوال يوم القيامة ، ولأحوال الناس فيه .. ساق - سبحانه -

أنواعا متعددة من الأدلة والبراهين على وحدانيته - عز وجل - وقدرته ، ورحمته بخلقه ، فقال - تعالى - :

فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ
تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

﴿وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قالوا الإمام الرازى : لما بين - سبحانه - عظمته فى الابتداء بقوله ﴿ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ ، وعظمته فى الانتهاء ، بقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ وأن الناس يتفرقون فريقين ، ويحكم - عز وجل - على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى ، بعد كل ذلك أمر بتنزيهه عن كل سوء ، وبحمده على كل حال ، فقال : ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾[1] .

والفاء فى قوله : ﴿ فسبحان .. ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ « سبحان » اسم مصدر ، منصوب بفعل محذوف . والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - : عن كل مالا يليق بجلاله . والمعنى : إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك ، فسبحوا الله - تعالى - ونزهوه عن كل نقص ﴿ حين تمسون ﴾ أى : حين تدخلون فى وقت المساء ، ﴿ وحين تصبحون ﴾ أى : تدخلون فى وقت الصباح .

وقوله - تعالى - : ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ جملة معترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه ، وأن فوائد هذا الثناء تعود عليهم لا عليه - سبحانه - .

وقوله ﴿ وعشيا ﴾ معطوف على ﴿ حين تمسون ﴾ أى : سبحوا الله - تعالى - : حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين يستركم الليل بظلامه . وحين تكونون فى وقت الظهيرة ، فإنه - سبحانه - هو المستحق للحمد والثناء من أهل السموات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات .

قال ابن كثير : وعن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى ، سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .

وفى حديث آخر : « من قال حين يصبح : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .. أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها حين يمسى ، أدرك ما فاته فى ليلته[2] » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٥١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣١٤ .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته فقال : ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ كإخراجه الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب ، والمؤمن من الكافر ﴿ ويخرج الميت من الحى ﴾ كما فى عكس هذه الأمور ، كإخراجه النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن .

﴿ ويحيى الأرض ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ : أى : بعد قحطها وجدبها ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ، وقوله - تعالى - : ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ تذييل قصد به تقريب إمكانية البعث من العقول والأفهام . أى : ومثل هذا الإخراج البديع للنبات من الأرض ، وللحى من الميت ، نخرجكم - أيها الناس - من قبوركم يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

ثم أورد - سبحانه - بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته التى لا يعجزها شىء ، فقال - تعالى - ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ .

والآيات : جمع آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشىء العجيب ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ .. والمراد بها هنا : الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

والمعنى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على عظمته ، وعلى كمال قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه .

و « إذا » فى قوله : ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ هى الفجائية .

أى : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التى لا يرى فيها رائحة للحياة ، ثم صرتم بعد خَلْقِنا إياكم فى أطوار متعددة ، بشرا تنتشرون فى الأرض ، وتمشون فى مناكبها ، وتتقلبون فيها تارة عن طريق الزراعة ، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار .. كل ذلك طلبا للرزق ، ولجمع الأموال .

وعبر - سبحانه - بثم المفيدة للتراخى، لأن انتشارهم فى الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم فى بطون أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد .

قال الشوكانى : وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم ، بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان ، كما حكاها الله - تعالى - فى

مواضع ، من كونه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما مكسوا لحما .[١] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى : ومن آياته الدالة على رحمته بكم ، أنه - سبحانه - خلق لكم ﴿ من أنفسكم ﴾ أى : من جنسكم فى البشرية والإنسانية أزواجا .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ من أنفسكم أزواجا ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدام - عليه السلام - متضمن لخلقهن من أنفسكم « فمن » للتبعيض والأنفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون « من » ابتدائية ، والأنفس مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر ، قيل : وهو الأوفق لما بعد[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ بيان لعلة خلقهم على هذه الطريقة . أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، ويميل بعضكم إلى بعض ، فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى النوع أكثر ائتلافا وانسجاما﴿ وجعل ﴾ - سبحانه - ﴿ بينكم ﴾ يا معشر الأزواج والزوجات ﴿ مودة ورحمة ﴾ أى : محبة ورأفة ، لم تكن بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذى شرعه - سبحانه - بين الرجال والنساء ، والذى وصفه - تعالى - بهذا الوصف الدقيق ، فى قوله - عز وجل - : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم قبل ذلك ﴿ لآيات ﴾ عظيمة تهدى إلى الرشد وإلى الاعتبار ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بخلقه .

ثم ذكر - سبحانه - آية ثالثة فقال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل شىء ، خلقه للسموات والأرض بتلك الصورة البديعة ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالرومية .. إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها ، ومئات اللهجات ﴿ وألوانكم ﴾ أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، وهذا أصفر ، وهذا أشقر .. مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء . بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقا تاما فى خلقتهما وشكلهما .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٣٠ .

قال صاحب الكشاف : الألسنة : اللغات . أو أجناس النطق وأشكاله . خالف - عز وجل - بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة .. ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضربا واحدا ، لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ... وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون[1] .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى وضحناه لكم ﴿ لآيات ﴾ بينات ﴿ للعالمين ﴾ - بفتح اللام - وهى قراءة الجمهور ، أى : إن فى ذلك لآيات لجميع أصناف العالم من بار وفاجر ، ومؤمن وكافر .

وقرأ حفص - بكسر اللام - أى : إن فى ذلك لآيات لأولى العلم والفهم من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - آية رابعة فقال : ﴿ ومن آياته منامكم ﴾ أى : نومكم ﴿ بالليل والنهار ﴾ لراحة أبدانكم وأذهانكم ، ﴿ وابتغاؤكم من فضله ﴾ أى : وطلبكم أرزاقكم فيهما من فضل الله وعطائه الواسع .

قال الجمل : قيل فى الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما يلائمه ، والتقدير : ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ، فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم مقام الجار ، والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولا سيما فى أوقات القيلولة فى البلاد الحارة »[2] .

﴿ إن فى ذلك ﴾ كله ﴿ لآيات لقوم يسمعون ﴾ هذه التوجيهات سماع تدبر وتفكر واعتبار فيعملون بما يسمعون .

ثم ساق - سبحانه - آية خامسة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا .

أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار .

وانتصاب « خوفا وطمعا » على أنهما مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ بهما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبطر ولا ييأس من رحمة الله . ﴿ وينزل من السماء ماء ﴾ كثيرا ﴿ فيحيى به ﴾ أى : بسبب هذا الماء ﴿ الأرض بعد

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٣٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٨٩ .

موتها ﴾ أى : بأن يحولها من أرض جدباء هامدة إلى أرض خضراء زاخرة بالنبات ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ هذه الارشادات ، ويستعملون عقولهم فى الخير لا فى الشر ، وفى الحق لا فى الباطل ، وفى استنباط المعانى الدالة على كمال قدرة الله - تعالى - ورحمته .

ثم ذكر - سبحانه - آية سادسة فقال : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ والمراد بقيامهما : ثباتهما وبقاؤهما بتلك الصورة العجيبة البديعة .

أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات وللأرض ، وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة ، وقيامهما وثباتهما واستمساكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته .

قال ابن كثير : وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ . وقوله : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ . وكان عمر بن الخطاب . رضى الله عنه - إذا اجتهد فى اليمين قال : لا ، والله الذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هى قائمة ثابتة بأمره وتسخيره إياها[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ بيان لامتثالهم لأمره بدون تقاعس ، عندما يدعوهم الداعى للخروج من قبورهم للبعث والحساب . و « ثم » بعدها كلام محذوف ، و « إذا » الأولى شرطيه ، والثانية فجائية ، والداعى هو إسرافيل بأمر الله - تعالى - : وقوله : ﴿ من الأرض ﴾ متعلق بقوله ﴿ دعاكم ﴾ .

أى : ثم بعد موتكم ووضعكم فى قبوركم ، إذا دعاكم الداعى دعوة واحدة من الأرض التى أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع .

قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السموات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، واقتداره - سبحانه - على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال - تعالى - : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[2] .

وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[3] وكما فى قوله - عز وجل - : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده . وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل . الآية ١٢٥ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٠٥ .
(٣) سورة النازعات الأيتان ١٣ ، ١٤ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٥٢ .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بآية جامعة لكل معانى القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : ﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ أى من الملائكة والجن والإنس ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، كل ذلك له وحده - سبحانه - لا لأحد غيره .

وقوله : ﴿ كل له قانتون ﴾ مؤكد لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلائق له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون ، طوعا وكرها ، إذ لا يمتنع عليه - سبحانه - شىء يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر .

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أكثر من عشرة أدلة ، على وحدانية الله - تعالى - وعلى انفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه الأدلة خلق الإنسان من تراب ، وصيرورته بعد تقلبه فى أطوار التكوين بشراً سويا ، وإيجاده - سبحانه - للذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى إلى الوقت المقدر فى علمه - تعالى - : وإيجاده للناس على هذه الصورة التى اختلفت معها ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله - تعالى - الليل مناما لراحة الناس ، والنهار معاشا لابتغاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة بأمره وتدبيره .. إلى غير ذلك من الأدلة المبثوثة فى الأنفس والآفاق .

ثم أكد - سبحانه - ما يدل على إمكانية البعث ، فقال - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده .. ﴾ .

أى : وهو - سبحانه - الذى يبدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم يعيد هذه المخلوقات بعدموتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء .

والضمير فى قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ للإعادة المفهومة من قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والعود أو الرد ، أو الإرجاع أهون عليه .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يخلق المخلوقات من العدم ، ثم يعيدها إلى الحياة مرة أخرى فى الوقت الذى يريده ، وهذه الإعادة للأموات أهون عليه ، أى : أسهل عليه من البدء .

وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب ، بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشىء من مادته الأولى أسهل من ابتدائه .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد وضح هذا المعنى فقال : قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم ، ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة

شىء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع اذا خَطِئَ فى بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزو أخرق ، وتسمون الماهر فى صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى ، حتى مرن عليها وهانت عليه .

فإن قلت لم أخرت الصلة فى قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ وقدمت فى قوله ﴿ هو على هين ﴾ ؟ قلت . هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليه هين ، وان كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمٍّ – أى : شيخ فان – وعاقر . وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى .. »[1] .

ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى هين ، أى : إرجاعكم إلى الحياة بعد موتكم هين عليه .

والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل فى كثير من كلامهم ، ومنه قول الشاعر :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

أى : بنى لنا بيتا دعائمه غزيزة طويلة ومنه قولهم : الله أكبر أى : كبير .

وقوله – تعالى – : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض .. ﴾ أى : وله – سبحانه – الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله ، لا فى السموات ولا فى الأرض ، إذ لا يشاركه أحد فى ذاته أو صفاته فهو – سبحانه – ليس كمثله شىء .

﴿ وهو العزيز ﴾ الذى يَغلب ولا يُغلب ﴿ الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

وبعد هذا التطواف المتنوع فى آفاق الأنفس ، وفى أعماق هذا الكون ، ضرب – سبحانه – مثلا لا مجال للجدل فيه ، لوضوحه واعتماده على المنطق السليم ، وأمر رسوله – ﷺ – أن يمضى فى طريقه المستقيم ، كما أمر المؤمنين بأن يلتجئوا إليه – سبحانه – وحده ، وأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه ، فقال – تعالى – :

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى
مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٥٦ .

أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

و ﴿ من ﴾ فى قوله – سبحانه – : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ ابتدائية ، والجار والمجرور فى محل نصب ، صفة لقوله : ﴿ مثلا ﴾ .

أى : ضرب لكم – أيها الناس – مثلا ، يظهر منه بطلان الشرك ظهورا واضحا ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التى هى أقرب شىء لديكم .

قال القرطبى : والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التلبية : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .. »[1] .

وقوله – تعالى – : ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ تصوير وتفصيل للمثل ، والاستفهام للإنكار والنفى . و ﴿ من ﴾ الأولى للتبعيض ، والثانية لتأكيد النفى ، وقوله ﴿ شركاء ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ لكم ﴾ وقوله : ﴿ مما ملكت أيمانكم ﴾ متعلق بمحذوف حال من شركاء .

وقوله : ﴿ فأنتم فيه سواء ﴾ جواب للاستفهام الذى هو بمعنى النفى . والجملة مبتدأ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣ .

وخبر . وقوله : ﴿ تخافونهم ﴾ خبر ثان لأنتم ، وقوله : ﴿ كخيفتكم أنفسكم ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم .

والمعنى : ضرب الله - تعالى - لكم - أيها الناس - مثلا منتزعا من أنفسكم التى هى أقرب شىء إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يشارككم فى أموالكم التى رزقناكم إياها ، عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم فى الحرية وفى جواز التصرف فى تلك الأموال . فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم - الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين لم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم - فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم ؟!! .

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم فى أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - : غيره فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شىء .

فالمقصود من الآية الكريمة ، إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل .

ولذا ختمها - سبحانه - بقوله : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على وحدانيتنا ، لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام القرطبى : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه - وذلك أنه قال - سبحانه - : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ، فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ، فهذا حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب !!

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة ، والخلق كلهم عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شىء من العالم شريكا لله - تعالى - فى شىء من أفعاله .

ثم قال - رحمه الله - : وهذه المسألة أفضل للطالب ، من حفظ ديوان كامل فى الفقه ،

لأن جميع العبادات البدنية ، لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب فافهم ذلك[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم ينتفعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعناد عليهم فقال : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم .. ﴾ .

أى : لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلى فى إبطال الشرك ، بل لجوا فى كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الزائفة ، وأفكارهم الفاسدة ، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع ﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى : إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذى يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله - تعالى - : عنه بسبب زيفه واستحبابه العمى على الهدى .

إنه لا أحد يستطيع ذلك ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم من عقابه - سبحانه - لهم .

ثم أمر سبحانه رسوله - ﷺ - أن يثبت على الحق الذى هداه - عز وجل - إليه فقال :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا .. ﴾ والفاء هى الفصيحة ، وقوله : ﴿ أقم ﴾ من الإقامة على الشىء والثبات عليه ، وعدم التحول عنه .

قوله : ﴿ حنيفا ﴾ من الحنف ، وهو الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجنف ، و ﴿ حنيفا ﴾ حال من فاعل ﴿ أقم ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من بطلان الشرك فاثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وأقبل على هذا الدين الذى أوحاه الله إليك ، بدون التفات عنه ، أو ميل إلى سواه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أى : فقوم وجهك له وعدِّله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشىء عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه .

والمراد بالفطرة فى قوله - تعالى - : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس ﴾ الملة . أى : ملة الإسلام والتوحيد .

أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسى لادراكه . والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣ .

أى : اثبت - أيهاالرسول الكريم - على هذا الدين الحق ، والزموا - أيها الناس - فطرة الله ، وهى ملة الحق ، التى فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى - : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه - تعالى - : فطر خلقه على معرفته وتوحيده .

وفى الحديث : « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم - أى حولتهم - الشياطين عن دينهم » .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : فطرة الله التى فطر الناس عليها .. »[1] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحّد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول الله - ﷺ - أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته ، مع مافيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص[2] .

وقوله : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التى فطر - سبحانه - الناس عليها .

أى : الزموا فطرة الله التى هى دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها ، لأن هذا الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه لكم .

و ﴿ ذلك ﴾ الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم ، هو ﴿ الدين القيم ﴾ أى : القويم المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه ، فى قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم .

أى : ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٠ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٩ .

الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم للأهواء الزائفة ، والتقاليد الفاسدة .

ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين القيم فقال : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ .

قال القرطبى : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما : أنه القطع . ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله - عز وجل - بالطاعة . والثانى : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة ، ولفظ ﴿ منيبين ﴾ منصوب على الحال[1] .

والمعنى : أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده ، حالة كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين له فى كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع واطمئنان .

﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ المبدلين لفطرة الله - تعالى - المتبعين لأهوائهم وشهواتهم .

وقوله ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ بدل مما قبله .

أى : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا فى شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة .

﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى : كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وعقيدة زائفة ، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلهم ، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء وعندما يوسع الله - تعالى - فى أرزاقهم ، وعندما يضيق عليهم هذه الأرزاق ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١ .

سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

أى : ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ من قحط أو مصيبة فى المال أو الولد ، ﴿ دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ أى : إذا نزل بهم الضر ، أسرعوا بالدعاء إلى الله - تعالى - متضرعين إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء .

هذا حالهم عند الشدائد والكروب ، أما حالهم عند العافية والغنى وتفريج الهموم ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

و ﴿ إذا ﴾ الأولى شرطية ، والثانية فجائية .

أى : هم بمجرد نزول الضر بهم يلجأون إلى الله - تعالى - لإزالته ، ثم إذا ماكشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته ، أسرع فريق منهم بعبادة غيره - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : ﴿ إذا فريق منهم ﴾ : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم يذكرون الله - تعالى - فى كل الأحوال ، ويصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند الرخاء .

والتنكير فى قوله - سبحانه - « ضر ، ورحمة » للإشارة إلى أن هذا النوع من الناس ، يجزعون عند أقل ضر ، ويبطرون ويطغون لأدنى رحمة ونعمة .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ هى العاقبة . أى : فعلوا ما فعلوا من الجزع عند الضر ، ومن البطر عند النعم ، ليكون مآل حالهم إلى الكفر والجحود لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير .

ثم التفت إليهم - سبحانه - بالخطاب مهددا ومتوعدا فقال : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى : فتمتعوا - أيها الجاحدون لنعم الله - بهذا المتاع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ما سيترتب على ذلك من عذاب مهين .

وقوله - تعالى - : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ التفات

من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شأنهم . والاستفهام للنفى والتوبيخ .

والسلطان : الحجة والبرهان .

أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غيرنا فى العبادة ، هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد لهم بأن شركهم لا يخالف الحق ، وتنطق بأن كفرهم لا غبار عليه ؟

كلا ، إننا ما أنزلنا عليهم شيئا من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا فى الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فالآية الكريمة تتهكم بهم لسفههم وجهلهم ، وتنفى أن يكون شركهم مبنيا على دليل أو ما يشبه الدليل ، أو أن يكون هناك من أمرهم به سوى تقاليدهم الباطلة ، وأهوائهم الفاسدة وأفكارهم الزائفة .

ثم عادت الصورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية فى حالتى العسر واليسر ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ من صحة أو غنى أو أمان ﴿ فرحوا بها ﴾ أى : فرحوا بها فرح البطر الأشر ، الذى لا يقابل نعم الله - تعالى - بالشكر ، ولا يستعملها فيما خلقت له .

فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ شدة أو مصيبة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أى : بسبب شؤم معاصيهم ، وإهمالهم لشكر الله - تعالى - على نعمه ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ أى : أسرعوا باليأس من رحمة الله ، وقنطوا من فرجه ، واسودت الدنيا فى وجوههم ، شأن الذين لا يعرفون سنن الله - تعالى - فى خلقه ، والذين يعبدون الله على حرف ، فهم عند السراء جاحدون مغرورون .. وعند الضراء قانطون يائسون .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بإذا ، وفى جانب المصيبة بإن ، للإشعار بأن رحمته - تعالى - بعباده متحققة فى كل الأحوال . وأن ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب .

ونسب - سبحانه - الرحمة إلى ذاته فقال : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة ﴾ دون السيئة فقد قال : ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ لتعليم العباد الأدب مع خالقهم - عز وجل - ، وإن كان الكل بيده - سبحانه - وبمشيئته ، وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ .

والتعبير بإذا الفجائية فى قوله ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ ، للاشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله - تعالى - حتى ولو كانت المصيبة هينة يسيرة ، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم . إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق .

ثم عقب - سبحانه - على أحوالهم هذه ، بالتعجيب من شأنهم ، وبالتقريع لهم على جهلهم ، فقال : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ .

أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - بمقتضى حكمته ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده . ويضيقه على من يشاء منهم ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل .

إن واقع الناس يشهد ويعلن : أن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فما لهؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة ، حيث إنهم يبطرون عند السراء ، ويقنطون عند الضراء ؟ فالمقصود بالآية الكريمة توبيخهم على عدم فهمهم لسنن الله فى خلقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل شىء ﴿ لآيات ﴾ واضحات ، وعبر بينات ، لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ، ويعملون بما يقتضيه إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المسلم بالنسبة للمال الذى وهبه الله إياه ، فقال - تعالى - :

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن

﴿شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فآت ذا القربى حقه .. ﴾ للنبى - ﷺ - ولكل من يصلح له من أمته . والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أن بسط الأرزاق وقبضها بيدى وحدى ، فأعط - أيها الرسول الكريم - ذا القربى حقه من المودة والصلة والإحسان ، وليقتد بك فى ذلك أصحابك وأتباعك .

وأعط - أيضا - ﴿ المسكين ﴾ الذى لا يملك شيئا ذا قيمة ، حقه من الصدقة والبر ، وكذلك ﴿ ابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله فى سفره ، ولو كان غنيا فى بلده .

وقدم - سبحانه - الأقارب ، لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات التى جعلها - سبحانه - للقريب على قريبه .

قال القرطبى : واختلف فى هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ، وهو الصحيح ، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله - عز وجل - ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة[١] .

وقال الجمل فى حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك فى صدقة التطوع ، وقد احتج أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى - رحمه الله - قاس سائر الأقارب - ما عدا الفروع والأصول - على ابن العم ، لأنه لا ولادة بينهم .

ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل فى المسكين .. »[٢] .

ثم بين - سبحانه - الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال : ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٢٩٤ .

أى : ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله - تعالى - للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، هم الكاملون فى الفلاح ، والظفر بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل ، نفرهم من تعاطى الربا فقال : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ .

والربا : الزيادة مطلقا . يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ . أى : زادت .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن المراد بالربا هنا ، الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرمها الشارع . ويشهد لذلك ماروى عن السدى ، من أن الآية نزلت فى ربا ثقيف ، كانوا يرابون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا .

وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة[١] .

ويبدو لنا أن المراد بالربا هنا ، الربا الذى حرمه الله - تعالى - بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ، حتى إذا جاء التحريم النهائى له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم .

قال صاحب الكشاف : هذه الآية فى معنى قوله - تعالى - ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات . ﴾ سواء بسواء . يريد : وما أعطيتم أكلة الربا ﴿ من ربا ليربو فى ﴾ أموالهم ، أى : ليزيد ويزكو فى أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه[٢] .

ثم حض - سبحانه - على التصدق فى سبيله فقال : ﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾ أى من صدقة تتقربون بها إلى الله ، و ﴿ تريدون ﴾ بأدائها ﴿ وجه الله ﴾ أى : رضاه وثوابه .

﴿ فأولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ هم المضعفون ﴾ أى: ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم ، فالمضعفون جمع مضعف - بكسر العين - على أنه اسم فاعل من أضعف ، إذا صار ذا ضِعْف - بكسر فسكون - كأقوى وأيسر ، إذا صار ذا قوة ويسار .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأولئك هم المضعفون ﴾ ولم يقل : فأنتم المضعفون ، لأنه رجع

---

(١) تفسير الألوسى جـ ٢١ ص ٤٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨١ .

من المخاطبة إلى الغيبة ، كأنه قال لملائكته : فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم ، هم المضعفون ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿ الله الذى خلقكم ﴾ على غير مثال سابق ﴿ ثم رزقكم ﴾ من فضله بأنواع من الرزق الذى لا غنى لكم عنه فى معاشكم ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد انقضاء أعماركم فى هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ للانكار والنفى . أى : ليس من شركائكم الذين عبدتموهم من يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك ، فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم معى فى العبادة ؟ إن الله - تعالى - وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو المميت .

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ تنزه وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك الجاهلين .

وبعد هذا التوجيه الحكيم ، يسوق - سبحانه - الآثار السيئة التى تترتب على الكفر والمعاصى ، ويأمر بالاعتبار بالسابقين ، ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر هاهنا ، الفيافى . وبالبحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف . وبالبحر : البحر المعروف .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله - ﷺ - صالح ملك أيلة ، وكتب له ببحره - يعنى ببلده -[1] .

والمعنى : ظهر الفساد فى البر والبحر ، ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، والأحقاد والعدوان ، ونقص البركة فى الزروع والثمار والمطاعم والمشارب ، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة ..

قال ابن كثير - رحمه الله - : وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فيها ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « الحد يقام فى الأرض ، أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا » .

والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ، أو أكثرهم ، أو كثير منهم ، عن تعاطى المحرمات . وإذا ارتكبت المعاصى كان سببًا فى محق البركات .. وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات . وقد ثبت فى الحديث الصحيح : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب »[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ بما كسبت أيدى الناس .. ﴾ بيان لسبب ظهور الفساد . أى : عم الفساد وطم فى البر والبحر ، بسبب اقتراف الناس للمعاصى . وانهماكهم فى الشهوات ، وتفلتهم من كل ما أمرهم الله - تعالى - به ، أو نهاهم عنه . كما قال - تعالى - : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

فظهور الفساد وانتشاره ، لا يتم عبثًا أو اعتباطًا ، وإنما يتم بسبب إعراض الناس عن طاعة الله - تعالى - ، وارتكابهم للمعاصى ...

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على الوقوع فى المعاصى من بلاء واختبار ، فقال : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

واللام فى « ليذيقهم » للتعليل وهى متعلقة بظهر . أى : ظهر الفساد ... ليذيق - سبحانه - الناس نتائج بعض أعمالهم السيئة ، كى يرجعوا عن غيهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة .

(١و٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٦ .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف ، أى : عاقبهم بانتشار الفساد بينهم ، ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوغ فى المعاصى ، ولعلهم يرجعون عنها ، إلى الطاعة والعمل الصالح .

ثم يلفت - سبحانه - أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس فى الشرك والظلم ، فيقول : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، كان أكثرهم مشركين ﴾ . أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : سيروا فى الأرض سير المتأملين المعتبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم ...

لقد كانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر ، وانغماس فريق منهم فى المعاصى والفواحش .

فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كعاقبة السابقين ، فى الهلاك والنكال .

ثم أكد - سبحانه - ما سبق أن أمر به رسوله - ﷺ - من ثبات على الحق فقال : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم .. ﴾ أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار . فاثبت على هذا الدين القويم ، الذى أوحيناه إليك ، ولا تتحول عنه إلى جهة ما .

﴿ من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ أى : اثبت على هذا الدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا يقدر أحد على ردِّه أو دفع عذابه إلا الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ .

أى : يتفرقون . وأصله يتصدعون ، فقلبت تاؤه صادًا وأدغمت . والتصدع التفرق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :

وكنـا كنـدْمـانَىْ جَـذِيـمَـةَ حقبـة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أى : لن يتفرقا .

والمعنى : اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأى يوم القيامة ، الذى يتفرق فيه الناس إلى فريقين ثم بين - سبحانه - الفريق الأول فقال : ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أى : من كفر من الناس ، فعاقبة كفره واقعة عليه لا على غيره ، وسيتحمل وحده ما سيترتب على ذلك من عذاب مهين .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ فعليه كفره ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار ،

لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة »[١] .

ثم بين - سبحانه - الفريق الثانى فقال : ﴿ ومن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون ﴾ أى : ومن عمل فى دنياه عملاً صالحًا ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مهد وسوى لنفسه مكانًا مريحًا يستقر فيه فى الآخرة .

والمهاد : الفراش . ومنه مهاد الصبى أى فراشه . ويقال مهدت الفراش مهدا ، أى : بسطته ووطأته . ومهدت الأمور . أى : سويتها وأصلحتها .

فالجملة الكريمة تصوير بديع للثمار الطيبة التى تترتب على العمل الصالح فى الدنيا ، حتى لكأن من يعمل هذا العمل ، يعد لنفسه فى الآخرة مكانًا معبدًا ، ومضجعًا هنيئا ، ينزل فيه وهو فى أعلى درجات الراحة والنعيم :

قال ابن جرير : قوله - تعالى - ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ أى : فلأنفسهم يستعدون ، ويسوون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ، وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :

أمهد لنفسك ، حان السقْم والتلف ولا تضيعن نفسا مالها خلف[٢]

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته حكمته وعدالته فقال : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين ﴾ .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من تقسيم الناس إلى فريقين ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، الجزاء الحسن الذى يستحقونه ، وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله ، لأنه يحبهم ، أما الكافرون ، فإنه - سبحانه - لا يحبهم ولا يرضى عنهم .

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن الموقف الجحودى الذى وقفه بعضهم من هذه النعم .. قال - تعالى - :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨٣ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ٣٣ .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ... ﴾ بيان لأنواع أخرى من الظواهر الكونية الدالة على قدرته - عز وجل - .

أى : ومن الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ونفاذ قدرته ، أنه - سبحانه - يرسل بمشيئته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير الكثير للناس .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ أى : الجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا : ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش . والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر ، فإنها رياح الرحمة . أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل ، فريح العذاب ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٥١ .

وقوله : ﴿ وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله .. ﴾ بيان للفوائد التى تعود على الناس من إرسال الرياح التى تعقبها الأمطار ، وهو متعلق بقوله ﴿ يرسل ﴾ .

أى : يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها ليمنحكم من رحمته الخصب والنماء لزرعكم ، ولتجرى الفلك عند هبوبها فى البحر بإذنه - تعالى - ولتبتغوا أرزاقكم من فضله - سبحانه - عن طريق الأسفار ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكى تشكروا الله - تعالى - على هذه النعم : فإنكم إذا شكرتموه - سبحانه - على نعمه زادكم منها .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ... ﴾ كلام معترض بين الحديث عن نعمة الرياح ، لتسلية الرسول - ﷺ - عما لحقه من قومه من أذى .

أى ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً كثيرين ، إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التى تدل على صدقه .

وقوله ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ معطوف على كلام محذوف . أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فمن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين لرسلهم .

﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ أى : وكان نصر المؤمنين حقًا أوجبناه على ذاتنا ، فضلاً منا وكرمًا ، وتكريمًا وإنصافًا لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص العبادة لنا .

« وحقا » خبر كان ، و « نصر المؤمنين » اسمها و « علينا » متعلق بقوله حقا .

قال ابن كثير : قوله ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرمًا وتفضلاً ، كقوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ .

وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « ما من أمرىء مسلم يرد عن عرض أخيه ، إلا كان حقًا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة : ثم تلا - ﷺ - هذه الآية »[1] .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الرياح وما يترتب عليها من منافع فتقول : ﴿ الله الذى يرسل الرياح ﴾ بقدرته ومشيئته .

﴿ فتثير سحابا ﴾ أى : هذه الرياح التى يرسلها الله - تعالى - تتحرك فى الجو وفق

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٢٨ .

إرادته - سبحانه - وتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر .

﴿ فيبسطه فى السماء كيف يشاء ﴾ : أى فيبسط الله - تعالى - هذا السحاب فى طبقات الجو ، بالكيفية التى يختارها - سبحانه - ويريدها ، بأن يجعله تارة متكاثفًا ، وتارة متناثرًا ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهات غيرها .

﴿ ويجعله كسفًا ﴾ أى : ويجعله قطعا بعضها فوق بعض تارة أخرى . والكسف : جمع كسفه ، وهى القطعة من السحاب .

﴿ فترى الودق ﴾ أى : المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أى يخرج ويتساقط من خلال هذا السحاب ، ومن بين ذراته . ﴿ فإذا أصاب به ﴾ ، أى : بهذا المطر ﴿ من يشاء ﴾ إصابته به ﴿ من عباده ﴾ بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أى : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سببًا فى حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم ..

وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون فى الأماكن البعيدة عن الأنهار . كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأمطار .

ثم بين - سبحانه - حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال : ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ .

وإن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير فى ﴿ ينزل ﴾ يعود للمطر ، وفى قوله ﴿ من قبله ﴾ يعود لنزول المطر - أيضًا - على سبيل التأكيد . وقوله : ﴿ لمبلسين ﴾ خبر كان . والإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا . يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت على سبيل اليأس والذل والانكسار .

أى : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيتهم فى غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذى طال انتظارهم له وتطلعهم إليه دون أن ينزل .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ من قبله ﴾ من باب التكرير والتوكيد ، كقوله - تعالى - : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ﴾[1] « ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك »[2] .

---

(١) سورة الحشر الآية ١٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٨٥ .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله .. ﴾ والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار . أى : فانظر - أيهاالعاقل - نظرة تعقل واتعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة .

وقوله - تعالى - : ﴿ كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ فى محل نصب على تقدير الخافض . أى : فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر ، وانظر وتأمل كيف يحيى الله - تعالى - بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء ويانعة ، بعد أن كانت جدباء قاحلة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ﴿ إن ذلك لمحيى الموتى ﴾ يعود على الله - تعالى - . أى : إن ذلك الإله العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التى لا يعجزها شىء . ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ على كل شىء قدير ﴾ ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى .

وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقى ، منتزع من واقع الناس ، ومن المشاهد التى يرونها فى حياتهم .

وبعد أن صور - سبحانه - أحوال الناس عند رؤيتهم للرياح التى تثير السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون . بعد أن صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عندما يرون ريحًا تحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بمزروعاتهم فقال - تعالى - ﴿ ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ .

والضمير فى « رأوه » يعود إلى النبات المفهوم من السياق . أى : هذا حال الناس عندما يرون الرياح التى تحمل لهم الأمطار ، أما إذا أرسلنا عليهم ريحًا معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد اصفرت واضمحلت وأصابها ما يضرها أو يتلفها .. فإنهم يظلون من بعد إرسال تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويجحدون آلاءه السابقة ، ويقابلون ما أرسلناه عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ، وملازمة طاعتنا .

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله : ﴿ ولئن ﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، والفاء فى « فرأوه » فصيحة ، واللام فى قوله « لظلوا » لام جواب القسم الساد مسد الجوابين ، والماضى بمعنى المستقبل .. وفيها ذكر - سبحانه - من ذمهم على عدم تثبتهم ما لا يخفى ، حيث كان من الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله - تعالى - فى كل حال ، ويلجأوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس منهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله - تعالى -

ويبادروا إلى الشكر بالطاعة ، إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ، فعكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم ... »[1] .

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما لحقه منهم من أذى ، بعد أن ذكر له جانبًا من تقلب أحوالهم ، فقال - تعالى - : ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ . أى : فاصبر - أيها الرسول - لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ إذا ناديتهم ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ إذا ما دعوتهم أو وعظتهم .

وقوله ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم .

ثم وصفهم بالعمى فقال : ﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ﴾ بسبب فقدهم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم .

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ أى : ما تستطيع أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ فهم مسلمون ﴾ أى : منقادون للحق ومتبعون له .

فالآيتان الكريمتان تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس بصائرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بالموتى وبالصم وبالعمى ، فى عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد ..

وبعد هذا التطواف فى أعماق الأنفس والآفاق . أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وبأمر النبى - ﷺ - بالصبر والثبات .. قال - تعالى - :

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٥٤ .

كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف .. ﴾ استدلال آخر على قدرته - تعالى - ومعنى ﴿ من ضعف ﴾ من نطفة ضعيفة ، أو فى حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر .. وقرأ الجمهور بضم الضاد ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها ، والضعف - بالضم والفتح - خلاف القوة ، وقيل بالفتح فى الرأى ، وبالضم فى الجسد ... »[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾ ولم يقل خلقكم ضعافًا .. للإشعار بأن الضعف هو مادتهم الأولى التى تركب منها كيانهم ، فهو شامل لتكوينهم الجسدى ، والعقلى ، والعاطفى ، والنفسى ... إلخ . أى : الله - تعالى - بقدرته ، هو الذى خلقكم من ضعف ترون جانبًا من مظاهره فى حالة طفولتكم وحداثة سنكم ...

﴿ ثم جعل ﴾ - سبحانه - ﴿ من بعد ضعف قوة ﴾ أى : ثم جعل لكم من بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية ..

﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة ﴾ أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ، مرحلة ضعف

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٤٦ .

آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه فى الضعف ، وهى مرحلة الشيب والهرم والشيخوخة التى هى أرذل العمر ، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير فى كثير من أحواله ..

﴿ يخلق ﴾ - سبحانه - ﴿ ما يشاء ﴾ خلقه ﴿ وهو العليم ﴾ بكل شىء ﴿ القدير ﴾ على كل شىء .

فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها المختلفة .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المجرمون عندما يبعثون من قبورهم للحساب فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ .

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ، وقيام الخلائق فى ذلك الوقت للحساب أى : وحين تقوم الساعة ؛ ويرى المجرمون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة ، يقسمون بأنهم ما لبثوا فى قبورهم أو فى دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان .

قال ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم - أيضًا - فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم[1] .

وقوله : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ تذييل قصد به بيان ما جبلوا عليه من كذب .

ويؤفكون من الافك بمعنى الكذب . يقال : أفك الرجل ، إذا صرف عن الخير والصدق أى : مثل هذا الكذب الذى تفوهوا به فى الآخرة كانوا يفعلون فى الدنيا ، فهم فى الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اختلاق الباطل .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أهل العلم والإيمان فى الرد عليهم ، فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ .

أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين فى الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فى علم الله وقضائه بعد مفارقتكم الدنيا إلى يوم البعث ، أى : إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لبعثكم ، والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فهذا يوم البعث ﴾ هى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٣١ .

الفصيحة . أى : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشاهدونه بأعينكم . ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه فى الدنيا .

فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأنيبهم على إنكارهم ليوم الحساب .

وقوله ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ زيادة فى تقريعهم . أى : فهذا يوم البعث ماثل أمامكم . ولكنكم كنتم فى الدنيا لا تعلمون أنه حق وصدق . بل كنتم بسبب كفركم وعنادكم تستخفون به وبمن يحدثكم عنه ، فاليوم تذوقون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به .

ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ فيومئذ ﴾ أى : فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب . ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أى لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم علمهم بأن الساعة حق . ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولاهم يقبل منهم الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والعمل الصالح .

قال الآلوسى : والاستعتاب : طلب العتبى ، وهى الاسم من الإعتاب ، بمعنى إزالة العتب . أى : لا يطلب منهم إزالة عتب الله - تعالى - وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لو اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل .. ﴾ .

أى : وبالله لقد ضربنا للناس فى هذا القرآن العظيم ، كل مثل حكيم ، من شأنه أن يهدى القلوب إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها ...

﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ أى ولئن جئت - أيها الرسول - هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

﴿ ليقولن ﴾ على سبيل التطاول والتبجح ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول - ﷺ - .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا التطاول والغرور بقوله : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ . والطبع : الختم على الشىء حتى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦١ .

ولا يعملون على إزالة جهلهم ، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء ، وهذا أسوأ أنواع الجهل ، لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل . فهو كما قال الشاعر :

قال حمار الحكيم توما لو أنصفونى لكنت أركب

لأننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر النبى - ﷺ - بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله - تعالى - بنصرك عليهم حق لا شك فى ذلك .

﴿ ولا يستخفنك ﴾ أى : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تتلو عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .

وهكذا ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعد به ، للمؤمنين الصادقين ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبعد : فهذه هى سورة الروم ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

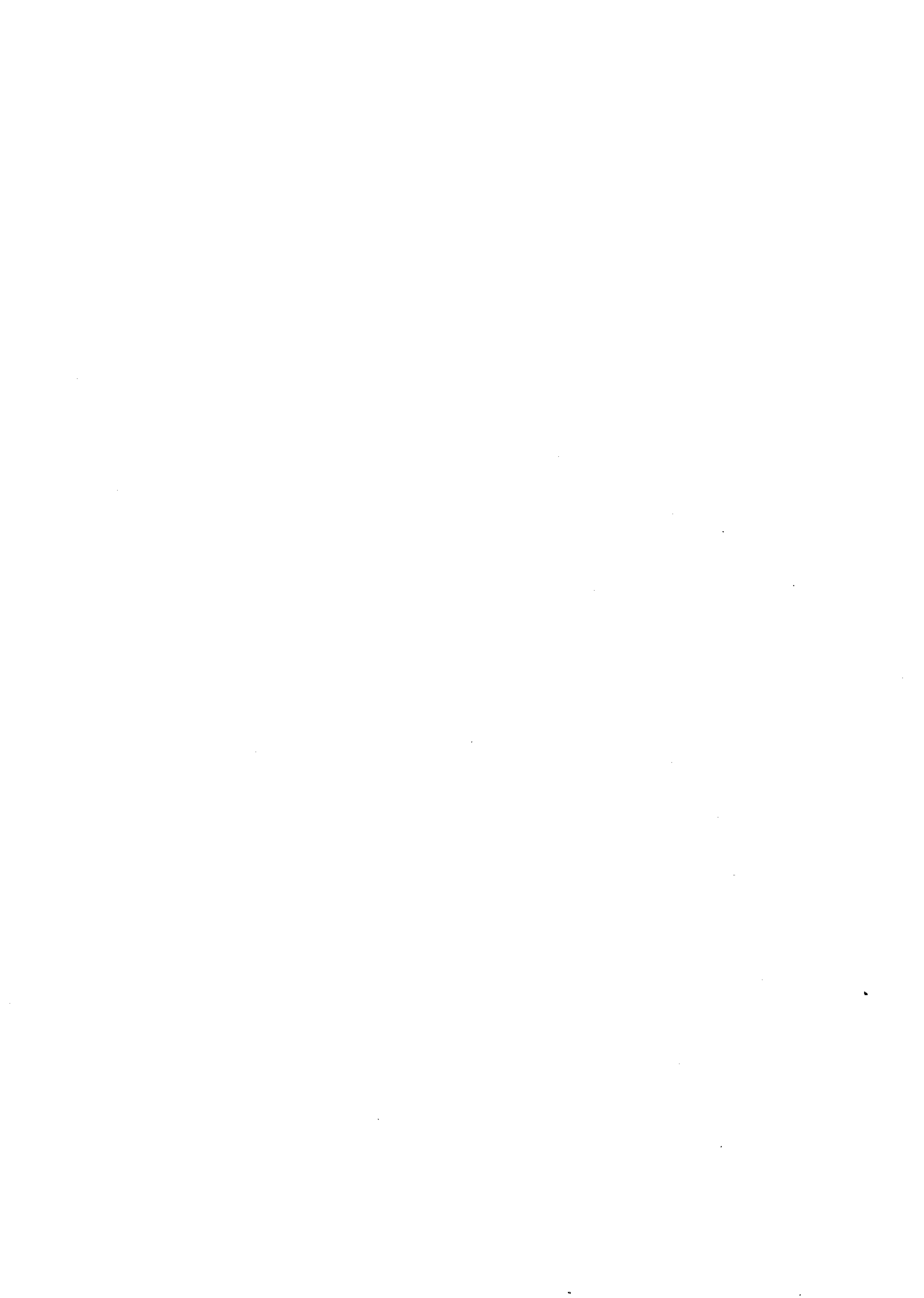
القاهرة - مدينة نصر
السبت : ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ
١٣ من مارس سنة ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى



تفسير

سُورَةُ لُقمان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

١ - سورة لقمان هى السورة الحادية والثلاثون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فهى السورة السادسة والخمسون من بين السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة الصافات[1] .

وعدد آياتها : أربع وثلاثون آية . وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره أنها مكية ، دون أن يستثنى شيئا منها .

وقال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ... وفى رواية عنه : أنها مكية إلا ثلاث آيات تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾[2] .

٢ - وتبدأ السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم تنتقل إلى الحديث عن جانب من صفات المشركين ، الذين يستهزئون بآيات الله - تعالى - ، ويعرضون عنها ، ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

ثم ساقت أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ .

٣ - ثم قص علينا - سبحانه - تلك الوصايا الحكيمة ، التى أوصى بها لقمان ابنه ، والتى اشتملت على ما يهدى إلى العقيدة السليمة ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى مراقبة الخالق - عز وجل - وإلى أداء العبادات التى كلفنا - سبحانه - بها .

ومن هذه الوصايا قوله - سبحانه - : ﴿ يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن

---

(١) راجع الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ مبحث المكى والمدنى .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦٤ .

المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

٤ - ثم بين - سبحانه - ألوانا من نعمه على عباده ، منها ما يتعلق بخلق السموات ، ومنها ما يتعلق بخلق الأرض ، كما بين - عز وجل - أن علمه محيط بكل شىء ، وأنه لا نهاية له .. قال - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير ﴾ .

٥ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بدعوة الناس جميعا إلى تقواه - عز وجل - وإلى بيان الأمور الخمسة التى لا يعلمها إلا هو - سبحانه - فقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ .

٦ - هذا ، والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد خاطبت النفس البشرية ، بما من شأنه أن يسعدها ويحييها حياة طيبة .

إنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين ، وأوصاف أعدائهم : وبينت عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التى أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه ، وساقت أنواعا من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده ، وبينت أن هناك أمورا لا يعلمها إلا الله - تعالى - وحده .

وقد ساقت السورة ما ساقت من هدايات ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يرضى العواطف ، ويقنع العقول ..

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٣٠ من رجب ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥/٤/٢٠ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)

سورة لقمان من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى ...

وقد فصلنا القول فى معانيها ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران وغيرهما .

وقلنا فى نهاية سردنا لأقوال العلماء فى ذلك : ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة ..

واسم الاشارة فى قوله - سبحانه - : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح . لأنه هو المتحدث عنه .

قال الآلوسى : وأما حمله على الكتب التى خلت قبل القرآن .. فهو فى غاية البعد[1] ، والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع ، تقول : حكمت الفرس ، إذا وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والشرود .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ٥٨ .

والمقصود ، أن هذا القرآن ممتنع أن يتطرق إليه الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه ، منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة ، فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر . ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ . ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم .. « أى المبرأ من الكذب والتناقض »[1] .

والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - ﷺ - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

وقوله ﴿ هدى ورحمة ﴾ منصوبان على الحالية من ﴿ آيات ﴾ .

أى : هذا الكتاب أنزلنا عليك يا محمد آياته ، لتكون هداية ورحمة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وفى كل أحوالهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أى : يؤدونها فى أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسننها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هى تلك التى يصحبها الإخلاص ، والخشوع ، والأداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبى - ﷺ - .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أى : ويعطون الزكاة التى أوجبها الله - تعالى - فى أموالهم لمستحقيها ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الدنيا .

وقوله ﴿ يوقنون ﴾ من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة ..

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٥ .

أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقيها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

وفى إيراد « هم » قبل لفظ الآخرة . وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة ، أو غير بالغ مرتبة اليقين .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار الطيبة التى ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال - تعالى - : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وألئك هم المفلحون ﴾ .

والمفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية . وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث ، واستعمل منه الفلاح فى الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب .

والتنكير فى قوله ﴿ على هدى ﴾ للتعظيم ، وأتى بلفظ « على » للاشارة إلى التمكن والرسوخ ، ووصفه بأنه ﴿ من ربهم ﴾ لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم إليه ، وييسر لهم أسبابه .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من الناس ، كانوا على النقيض من سابقيهم ، فقال :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات اشهرها ، أنهما نزلتا فى النضر بن الحارث . أشترى قينة - أى مغنية - ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى

قينته ، فيقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد - ﷺ - من الصلاة والصيام ، و أن تقاتل بين يديه .[١] .

و﴿ لهو الحديث ﴾ : باطله ، ويطلق على كل كلام يلهى القلب ، ويشغله عن طاعة الله - تعالى - ، كالغناء ، والملاهى ، وما يشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله - تعالى - :

وقد فسره كثير من العلماء بالغناء ، والأفضل تفسيره بكل حديث لا يثمر خيرا .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ ومن الناس ﴾ للتبعيض ، أى : ومن الناس من يترك القول الذى ينفعه ، ويشترى الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة .

قال القرطبى ما ملخصه :هذه إحدى الآيات التى استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . ولا يختلف فى تحريم الغناء الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على الغزل والمجون .. فأما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق ..[٢] .

وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا .. ﴾ تعليل لاشتراء لهو الحديث . والمراد بسبيل الله - تعالى - : دينه وطريقه الذى اختاره لعباده .

وقد قرأ الجمهور : ﴿ ليضل ﴾ بضم الياء - أى : يشترى لهو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم بسوء عاقبة ما يفعله ، ولكى يتخذ آيات الله - تعالى - مادة لسخريته واستهزائه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليضل ﴾ - بفتح الياء - فيكون المعنى : يشترى لهو الحديث ليزداد رسوخا فى ضلاله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : القراءة بالضم بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ؟ .

قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدف عنه ، ويزيد فيه ويمده ، فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه . والثانى : أن

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٥٤ وراجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٦٧ وما بعدها .

يوضع ليَضل موضع ليُضل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف ..»[١] .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة على الهداية .

أى : أولئك الذين يشترون لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عن دين الله – تعالى – ، وليستهزئوا بآياته ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل الاحتقار والهوان .

ثم فصل – سبحانه – حال هذا الفريق الشقى فقال : ﴿ وإذا تتلى عليه ﴾ أى : على النضر وأمثاله ﴿ آياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق نبينا – ﷺ – . ﴿ ولى مستكبرا ﴾ أى : أعرض عنها بغرور واستعلاء . ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أى : كأن حاله فى استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذى لم يسمعها إطلاقا .

﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : كأن فى أذنيه صمما وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع .

والجملتان الكريمتان حال من قوله ﴿ مستكبرا ﴾ والمقصود بهما توبيخ هذا الشقى وأمثاله ، وذمهم ذما موجعا لإعراضهم عن الحق .

وقوله – تعالى – : ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته .

أى : فبشر هذا الشقى الذى اشترى لهو الحديث ، وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذى يناسب غروره واستكباره .

ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذى أعده الله – تعالى – للمؤمنين ، وذكرت جانبا من مظاهر قدرته – سبحانه – ، ورحمته بعباده ، فقال – تعالى – :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٩١ .

مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

أى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿ لهم ﴾ فى مقابلة ذلك ﴿ جنات النعيم ﴾ أى : لهم جنات عالية يتنعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ﴿ وعد الله حقا ﴾ أى : هم خالدون في تلك الجنات خلودا أبدا ، فقد وعدهم - سبحانه - بذلك ، ووعده حق وصدق ، ولن يخلفه - سبحانه - تفضلا منه وكرما .

قال الجمل . وقوله ﴿ وعد ﴾ مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله : ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ فى معنى وعدهم الله ذلك . وقوله ﴿ حقا ﴾ مصدر مؤكد لغيره . أى : لمضمون تلك الجملة الأولى وعاملها مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذلك وعدا . وتقدير الثانية ، وحقه حقا .[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب . الحكيم فى كل أفعاله وتصرفاته .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته وعزته وحكمته فقال : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها .. ﴾ .

والعمد : جمع عماد . وهو ما تقام عليه القبة أو البيت . وجملة « ترونها » فى محل نصب حال من السموات .

أى هو : - سبحانه - وحده ، الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يسندها . وبغير أعمدة تعتمد عليها . وأنتم ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء . ولاشك أن خلقها على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما ، هو المستحق للعبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ بيان لنعمة ثانية مما أنعم به - سبحانه - على عباده .

والرواسى : جمع راسية . والمراد بها الجبال الشوامخ الثابتة .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠١ .

أى : ومن رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت كراهة أن تميد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها .

﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أى : وأوجد ونشر فى الأرض التى تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التى لا غنى لكم عنها والتى فيها منفعتكم ومصلحتكم .

والبث : معناه : النشر والتفريق . يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها .

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة فقال : ﴿ وأنزلنا ﴾ أى : بقدرتنا ﴿ من السماء ماء ﴾ أى : ماء كثيرا هو المطر ، ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ أى : فأنبتنا فى الأرض بسبب نزول المطر عليها . ﴿ من كل زوج ﴾ أى : صنف ﴿ كريم ﴾ أى حسن جميل كثير المنافع .

والإشارة فى قوله : ﴿ هذا خلق الله ... ﴾ تعود إلى ما ذكره - سبحانه - من مخلوقات قبل ذلك . والخلق بمعنى المخلوق .

هذا الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض والجبال ... هو من مخلوقنا وحدنا ، دون أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى : إذا علمتم ذلك فأرونى وأخبرونى ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه - سبحانه - إنهم لم يخلقوا شيئا ما ، بل هم مخلوقون لله - تعالى - .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تحدى المشركين ، وإثبات أنهم فى عبادتهم لغير الله ، قد تجاوزوا كل حد فى الجهالة والضلالة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ إضراب عن تبكيتهم وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال الواضح عليهم .

أى : بل الظالمون فى ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله - تعالى - الخلاق العليم .

ثم ساق - سبحانه - على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من الوصايا الحكيمة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ

لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

قال ابن كثير – رحمه الله – : اختلف السلف فى لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ والأكثرون على أنه لم يكن نبيا .

وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ..

قال له مولاه : اذبح لنا شاة وجئنى بأخبث ما فيها ؟ فذبحها وجاءه بلسانها وقلبها . ثم قال له مرة ثانية : اذبح لنا شاة وجئنى بأحسن ما فيها ؟ فذبحها وجاءه – أيضا – بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا ؟ فقال لقمان : إنه ليس من شىء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شىء أخبث منهما إذا خبثا .

وقال له رجل : ألست عبد فلان ؟ فما الذى بلغ بك ما أرى من الحكمة ؟ فقال لقمان : قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى مالا يعنينى[١] .

ومن أقواله لابنه : يابنى اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأتك الربح من غير بضاعة .

يابنى ، لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت نائم على فراشك .

يابنى ، اعتزل الشر كيما يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .

يابنى ، عليك بمجالس العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله - تعالى - يحيى القلب الميت بنور الحكمة .

يابنى ، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها ، واستقبلت الآخرة ، ودار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترتحل ..[٢] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : ولقمان : اسم أعجمى لاعربى وهو ابن باعوراء . قيل : كان فى زمان داود - عليه السلام - وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم قال الآلوسى : وإنى أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما ، ولم يكن نبيا[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ... ﴾ كلام مستأنف مسوق لإبطال الإشراك بالله - تعالى - عن طريق النقل ، بعد بيان إبطاله عن طريق العقل ، فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ... ﴾ .

والحكمة : اكتساب العلم النافع والعمل به . أو هى : العقل والفهم . أو هى الإصابة فى القول والعمل .

والمعنى : والله لقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - عبدنا لقمان العلم النافع والعمل به .

وقوله - سبحانه - ﴿ أن اشكر لله ﴾ بيان لما يقتضيه إعطاء الحكمة . أى : آتيناه الحكمة وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من نعم لكى يزيدك منها .

قال الشوكانى : قوله : ﴿ أن اشكر لله ﴾ أن هى المفسرة : لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . وقيل التقدير : قلنا له أن اشكر لى .. وقيل : بأن اشكر لى فشكر ، فكان حكيما بشكره .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٣٦ .

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٠٣ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٨٢ .

والشكر لله : الثناء عليه فى مقابلة النعمة - واستعمالها فيما خلقت له - ، وطاعته فيما أمر به[1] .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ .

أى : ومن يشكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن نفع شكره إنما يعود إليه ، ومن جحد نعم الله - تعالى - واستحب الكفر على الإيمان ، فالله - تعالى - غنى عنه وعن غيره ، حقيق بالحمد من سائر خلقه لإنعامه عليهم بالنعم التى لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود .

فالجملة الكريمة المقصود بها ، بيان غنى الله - تعالى - عن خلقه ، وعدم انتفاعه بطاعتهم ، لأن منفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم . وإنما ضرر ذلك يعود عليهم .

وعبر - سبحانه - فى جانب الشكر بالفعل المضارع ، للاشارة إلى أن من شأن الشاكرين أنهم دائما على تذكر لنعم الله - تعالى - ، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت ، عادوا إلى طاعته - سبحانه - وشكره .

وعبر فى جانب الكفر بالفعل الماضى ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغى من أى عاقل ، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجرا تاما ، وأن يجعله فى خبر كان .

وجواب الشرط محذوف ، وقد قام مقامه قوله - تعالى - : ﴿ فإن الله غنى حميد ﴾ والتقدير : ومن كفر فضرر كفره راجع إليه . لأن الله - تعالى - غنى حميد .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال - تعالى - : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يابنى لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وقوله ﴿ يعظه ﴾ من الوعظ ، وهو الزجر المقترن بالتخويف . وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب .

قالوا : واسم ابنه « ثاران » أو « ماثان » أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة : يابنى ﴿ لا تشرك بالله ﴾ - تعالى - لا فى عبادتك ، ولا فى قولك ، ولا فى عملك ، بل أخلص كل ذلك لخالقك - عز وجل - .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٤ ص ٢٣٧ .

وفى ندائه بلفظ ﴿ يابنى ﴾ إشفاق عليه . ومحبة له ، فالمراد بالتصغير إظهار الحنو عليه ، والحرص على منفعته .

قيل : وكان ابنه كافرا فمازال يعظه حتى أسلم . وقيل : بل كان مسلما ، والنهى عن الشرك المقصود به ، المداومة على ما هو عليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين .

وجملة ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ تعليل للنهى . أى : يابنى حذار أن تشرك بالله فى قولك أو فعلك ، إن الشرك بالله - تعالى - لظلم عظيم ، لأنه وضع للأمور فى غير موضعها الصحيح ، وتسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق .

وقوله - تعالى - : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه .. ﴾ كلام مستأنف ، جىء به على سبيل الاعتراض فى أثناء وصية لقمان لابنه ، لبيان سمو منزلة الوالدين ، ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر بوحدانية الله - تعالى - ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا .. ﴾[1] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، أن لاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ..[2] . أى : أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه ، وأن يحسن إليهما ، وأن يطيع أمرهما فى المعروف .

ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليها فقال : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾ أى : حملته أمه فى بطنها وهى تزداد فى كل يوم ضعفا على ضعف ، بسبب زيادة وزنه ، وكبر حجمه ، وتعرضها لألوان من التعب خلال حمله ووضعه .

والوهن : الضعف . يقال : وهن فلان يهن وهنا . إذا ضعف . ولفظ « وهنا » حال من أمه بتقدير مضاف . أى : حملته أمه ذات وهن ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنا . وقوله : ﴿ على وهن ﴾ متعلق بمحذوف صفة للمصدر . أى : وهنا كائنا على وهن .

وقوله : ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ بيان لمدة إرضاعه . والفصال : الفطام عن الرضاع .

أى : وفطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته ، كما قال - تعالى - : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ... ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

وهاتان الجملتان ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ﴾ جاءتا بعد الوصية بالوالدين عموما ، تأكيدا لحق الأم ، وبيانا لما تبذله من جهد شاق فى سبيل أولادها ، تستحق من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فقوله : ﴿ حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟

قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثم قال رسول الله - ﷺ - لمن قال له : من أبر ؟ قال : « أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : « ثم أباك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أى : وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له : اشكر لخالقك فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما تحملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما ، واعلم أن مصيرك إلى خالقك - عز وجل - وسيحاسبك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حدود الطاعة للوالدين فقال : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ ..

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ ووصينا ...﴾ بإضمار القول . أى : ووصينا الإنسان بوالديه . وقلنا له : ﴿ وإن جاهداك ﴾ أى : وإن حملاك ﴿ على أن تشرك بى ﴾ فى العبادة أو الطاعة ، ﴿ ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وجملة ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ لبيان الواقع ، فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله - عز وجل - .

ثم أمر - سبحانه - بمصاحبتهما بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : ﴿ وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ .

أى : إن حملاك على الشرك . فلا تطعهما ، ومع ذلك فصاحبهما فى الأمور الدنيوية التى لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٤ .

وقوله ﴿ معروفا ﴾ صفة لمصدر محذوف . أى : صحابا معروفا . أو منصوب بنزع الخافض . أى : بالمعروف .

ثم أرشد - سبحانه - إلى وجوب اتباع أهل الحق فقال : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى .. ﴾ . أى : واتبع - أيها العاقل طريق الصالحين من عبادى ، الذين رجعوا إلى بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص .

﴿ ثم إلى مرجعكم ﴾ جميعا يوم القيامة - أيها الناس - ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاما حتى تموت .. وفيهما دليل على صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال إن كانا فقيرين .. وقد قالت أسماء بنت أبو بكر الصديق ، للنبى - ﷺ - وقد قدمت عليها خالتها وقيل : أمها من الرضاعة : يارسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : « نعم » وراغبة قيل معناه : عن الإسلام ، أو راغبة فى الصلة[1] .

ثم ذكر - سبحانه - بقية الوصايا أوصى بها لقمان ابنه فقال : ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، يأت بها الله ﴾ ..

والضمير فى قوله : ﴿ إنها ﴾ يعود إلى الفعلة التى يفعلها من خير أو شر . و﴿ تك ﴾ مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل الشرط . والجواب : « يأت بها الله » والمثقال : أقل ما يوزن به الشىء . والخردل : فى غاية الصغر والدقة .

والمعنى : يابنى إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان فى نهاية القلة والصغر ، كمثال حبة من خردل ، وسواء أكان هذا الشى القليل مخبوءا فى صخرة من الصخور الملقاة فى فجاج الأرض ، أو كائنا فى السموات أم فى الأرض ، فإن الله - تعالى - يعلمه ويحضره ويجازى عليه ﴿ إن الله ﴾ - تعالى - لطيف خبير أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، عظيمها وصغيرها .

فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله - تعالى : لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون ، مهما دق وقل وتخفى فى أعماق الأرض أو السماء .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٦٥ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالأمر بالمعروف ، وبالنهى عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : ﴿ يابنى أقم الصلاة ﴾ أى : واظب على أدائها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

﴿ وأمر بالمعروف ﴾ أى بكل ما حض الشرع على قوله أو فعله ﴿ وانه عن المنكر ﴾ أى : عن كل مانهى الشرع عن قوله أو فعله .

﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هى فى الجنة فقط .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ يعود إلى الطاعات المذكورة قبله .

وعزم الأمور : أعاليها ومكارمها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى - على الإنسان .

قال صاحب الكشاف : ﴿إن ذلك ﴾ مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام .. ومنه الحديث : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه » ومنه عزمات الملوك ، وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده ، عزمت عليك إلا فعلت كذا . فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ، ولا مندوحة فى تركه .

وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها[2] .

ثم نهاه عن التكبر والغرور والتعالى على الناس فقال : ﴿ ولا تصعر خدك للناس.. ﴾ .

والصعر فى الأصل : مرض يصيب البعير فيجعله معوج العنق ، والمراد به هنا ، التكبر واحتقار الناس ، ومنه قول الشاعر :

وكنا إذا الجبَّار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

أى : ولا تمل صفحة وجهك عن الناس ، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والمغرورون ، بل كن هينا لينا متواضعا ، كما هو شأن العقلاء ..

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ أى : ولا تمش فى الأرض مشية المختالين المعجبين

---

(١) سورة الأنبياء . الآية ٤٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٦ .

بأنفسهم . و﴿ مرحا ﴾ مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف . أى : تمرح مرحا . والجملة فى موضع الحال . أو مفعول لأجله . أى : من أجل المرح .

وقوله : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهى . والمختال : المتكبر الذى يختال فى مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشى الخيلاء . أى يمشى مشية المغرور المعجب بنفسه .

والفخور : المتباهى على الناس بماله أو جاهه أو منصبه .. يقال فخر فلان - كمنع - فهو فاخر وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس ، على سبيل التطاول عليهم ، والتنقيص من شأنهم .

أى : إن الله - تعالى - لا يحب من كان متكبرا على الناس ، متفاخرا بماله أو جاهه .

ثم أمر بالقصد والاعتدال فى كل أموره فقال : ﴿ واقصد فى مشيك ﴾ أى وكن معتدلا فى مشيك ، بحيث لا تبطىء ولا تسرع . من القصد وهو التوسط فى الأمور .

﴿ واغضض من صوتك ﴾ واخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته .

وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجهارة الصوت وارتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح - سبحانه - الذين يخفضون أصواتهم فى مجلس رسول الله - ﷺ - فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهى عن رفعه بدون موجب .

أى : إن أقبح الأصوات وأبشعها لهو صوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه - سبحانه - الرافعين لأصواتهم فى غير حاجة إلى ذلك ، بأصوات الحمير التى هى مثار السخرية مع النفور منها .

وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى ابنه بجملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره - أولا - بإخلاص العبادة لله - تعالى - ثم غرس فى قلبه الخوف من الله - عز وجل - ، ثم حضه على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور والتكبر والافتخار ، وعن رفع الصوت بدون مقتض لذلك .

وبتفيذ هذه الوصايا ، يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات .

ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على الناس ، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾ لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق .

وسخر : من التسخير ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به .

والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده . أى : لقد رأيتم - أيها الناس - وشاهدتم أن الله - تعالى - سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم .. وما فى الأرض من زرع وأشجار وحيوانات وجبال .. وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله - تعالى - على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ معطوف على ما قبله .

وقوله : ﴿ وأسبغ ﴾ بمعنى أتم وأكمل عليكم نعمه : وهى ما ينتفع به الإنسان ويستلذه من الحلال .

والنعمة الظاهرة : هى النعمة المشاهدة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة والمال ، والجاه ، وما يشبه ذلك مما يراه الإنسان ويشاهده .

والنعمة الباطنة : هى النعمة الخفية التى يجد الإنسان أثرها فى نفسه دون أن يراها . كنعمة الإيمان بالله - تعالى - وإسلام الوجه له - عز وجل - ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفسافها .

وفى تفسير النعم الظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، نرى أن ما ذكرناه أوجهها وأجمعها[1].

ثم بين - سبحانه - ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ﴾ .

وقوله : ﴿ يجادل ﴾ من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة . مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه .

والمراد من المجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته ..

وقوله : ﴿ بغير علم ﴾ حال من الفاعل فى ﴿ يجادل ﴾ ، وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد . أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون فى ذات الله ، وفى صفاته ، وفى وحيه ، وفى تشريعاته .. بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير « هدى » يهديه ويرشده إلى الحق ، وبغير ﴿ كتاب منير ﴾ أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه فى جداله ، سواء أكان هذا المستند عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ، فقال ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله .. ﴾ . أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزله الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - من قرآن كريم ، ومن وحى حكيم .

﴿ قالوا ﴾ على سبيل العناد والتقليد الأعمى ﴿ بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام والأوثان ، والسير على طريقتهم التى كانوا يسيرون عليها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد فى العقيدة على مجرد تقليد الآباء .

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للحال . أى : أيتبعون ما كان عليه آباؤهم ، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذى يقودهم إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر . وأما اتباع الغير

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٩٣ .

فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق ، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم فى شىء ، وقد قال - سبحانه - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[1] .

ثم فصل سبحانه بعد ذلك حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار الذين لايحسنون التدبر فى أنفسهم ، أو فيما حولهم ، فقال تعالى - :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ﴾ أى : ومن يتجه إلى الله - تعالى - ويذعن لأمره ، و يخلص له العبادة ، وهو محسن فى أقواله وأفعاله .

من يفعل ذلك ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ والعروة فى أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشىء من عراه ، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها . وتجمع على عرا .

والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل زره .

والوثقى : تأنيث الأوثق ، وهو الشىء المحكم الموثق . يقال : وثق - بالضم - وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم .

والمعنى : ومن يستسلم لأمر الله - تعالى - ويأتى بالأقوال والأفعال على وجه حسن ، فقد

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ٤١ .

ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط .

فقد شبه - سبحانه - المتوكل عليه فى جميع أموره ، المحسن فى أفعاله ، بمن ترقى فى حبل شاهق ، وتدلى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه .

وخص - سبحانه - الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعا .

وقوله : ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ أى : وإلى الله - تعالى - وحده تصير الأمور ، وترجع إليه ، و تخضع لحكمه وإرادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ... ﴾ تسلية للرسول - ﷺ - ، عما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : ومن استمر - أيها الرسول - على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا ... ﴾ بيان لسوء مصيرهم .

أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين ، فنخبرهم بما عملوه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليم ﴾ علما تاما ﴿ بذات الصدور ﴾ أى : بمكنونات الصدور وخفاياها ..

﴿ نمتعهم قليلا ﴾ فى هذه الحياة الدنيا . أى نمتعهم تمتيعا قليلا فى دنياهم ، بأن نعطيهم الأموال والأولاد على سبيل الاستدراج .

﴿ ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ أى نعطيهم فى حياتهم القصيرة ما يتمتعون به من مال وصحة ... ثم نلجئهم وندفعهم دفعا يوم القيامة الى عذاب مروع فظيع ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه .

والمراد بالاضطرار : الإلجاء والقسر والإلزام ، أى : أنهم لايستطيعون التفلت أو الانفكاك عن هذا العذاب الذى أعد لهم .

ووصف - سبحانه - العذاب بالغلظ ، لزيادة تهويله وشدته . فهو ثقيل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التى تهوى على رأس الإنسان ، فتشل حركته وتهلكه .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال :

﴿ ولئن سألتهم ﴾ أيها الرسول الكريم - ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ وأوجدهما على هذا النظام البديع .. ﴿ ليقولن ﴾ فى الجواب ﴿ الله ﴾ أى : الله - تعالى - هو الذى خلقهما ، وهو الذى أوجدهما .

﴿ قل الحمد لله ﴾ قل - أيها الرسول الكريم - الحمد لله - تعالى - وحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف أشركتم معه فى العبادة غيره ؟ إن قولكم هذا الذى تؤيده الفطرة ، ليتنافى مع ماأنتم عليه من كفر وضلال .

وقوله - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب عن أقوالهم إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علما سليما ، وإنما هم يقولون بألسنتهم ، وما يتباين تباينا تاما مع أفعالهم ، وهذا شأن الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم ..

ثم بين - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وشمول ملكه فقال : ﴿ لله ما فى السموات والأرض ﴾ . أى : لله - تعالى - وحده ، ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ..

﴿ إن الله هو الغنى ﴾ عن كل ما سواه ﴿ الحميد ﴾ أى : المحمود من أهل الأ رض والسماء ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، والرازق لكل شىء .

ثم ساق - تعالى - بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ قدرته ، فقال - سبحانه - :

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قال ابن كثير : قال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال - تعالى - ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام.. ﴾ .

وعن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا للنبى - ﷺ - أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ؟ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال - ﷺ - : « كلا عنيت » فقالوا : ألست

تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال - ﷺ - : « إنها فى علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾[1].

و« لو » شرطية ، وجوابها « ما نفدت كلمات الله ..» و« من » فى قوله ﴿ من شجرة ﴾ للبيان ، وفى الآية الكريمة كلام محذوف يدل عليه السياق .

والمعنى : ولو أن ما فى الأرض من أشجار تحولت بغصونها وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر - أيضا - تحول إلى مداد لتلك الأقلام ، وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى . وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله التى يحيط بها علمه - تعالى - ..

لنفدت الأقلام ، ولنفد ماء البحر ، لتناهى كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله - تعال - ولا معلوماته ، لعدم تناهيها .

﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يعجزه شىء ، ولا يغلبه غالب ﴿ حكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله .

فالآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله - تعالى - لا نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شىء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر .

وقال - سبحانه - ﴿ من شجرة ﴾ بالإفراد ، لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى أقلام .

وجمع - سبحانه - الأقلام ، للتكثير ، أى : أقلام كثيرة يصعب عدها .

والمراد بالبحر : البحر المحيط بالأرض ، لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد الكامل .

وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة الحصر ، وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد ؟ قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله ﴿ يمده ﴾ لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها . جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .

فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله ؟ .

قلت : معناه أن كلماته لا تفى بكتابتها البحار فكيف بكلمه ؟[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٠١ .

وقال الآلوسى : والمراد بكلماته - تعالى - كلمات علمه - سبحانه - وحكمته . وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب فى خلقه ، والتى إذا أراد - سبحانه - شيئا منها قال له : ﴿ كن فيكون ﴾[٢] .

ثم أتبع - سبحانه - ذلك بيان نفاذ قدرته فقال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ... ﴾ . أى : ما خلقكم - أيها الناس - جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها ، لأن قدرته - عز وجل - يتساوى معها القليل والكثير ، والصغير والكبير ، قال - تعالى - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - : ﴿ سميع ﴾ لكل شىء ﴿ بصير ﴾ بأحوال خلقه لا يخفى عليه شىء منهم .

ثم ذكر - سبحانه - الناس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه عليهم ، لكى يخلصوا له العبادة والطاعة ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

---

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٠٠ .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار... ﴾ للتقرير . والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ ، ويخلص العبادة لله - تعالى - .

وقوله ﴿ يولج ﴾ من الإيلاج بمعنى الإدخال . يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله ... ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه ، بحسب المطالع .

أى : لقد رأيت وشاهدت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - ، يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل ، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، على حسب مشيئته وحكمته ..

وأنه - سبحانه - ﴿ سخر الشمس والقمر .. ﴾ أى : ذللهما وجعلهما لمنفعة الناس ومصلحتهم ، كما جعلهما يسيران هما والليل والنهار ، بنظام بديع لا يتخلف .

وقوله : ﴿ كل يجرى إلى أجل مسمى ﴾ كل من الشمس والقمر يجريان فى مدارهما بنظام ثابت محكم ، إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لنهاية سيرهما ، وهو يوم القيامة. قال ابن كثير : قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة .

وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح . ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر الذى فى الصحيحين ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « يا أباذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها ، فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت »[1] .

وقال الجمل : قوله : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قاله هنا بلفظ ﴿ إلى ﴾ ، وفى سورتى فاطر والزمر ، بلفظ « لأجل » ، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى إليه الخلق ، وهما قوله : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم ... ﴾ الآية . وقوله ﴿ اتقوا ربكم واخشوا يوما ... ﴾ الآية ، فناسب هنا ذكر ﴿ إلى ﴾ الدالة على الانتهاء ، وما فى فاطر والزمر خال عن ذلك . إذ ما فى فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما فى الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى[2] .

وجملة ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ أن الله يولج .. ﴾ أى : لقد علمت أن الله - تعالى - قد فعل ذلك ، وأنه - سبحانه - خبير ومطلع على كل عمل تعملونه - أيها الناس - دون أن يخفى عليه شىء منها .

---

(١) تفسر ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٢ .
(٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٠٩ .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ... ﴾ يعود إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل فى النهار ، وتسخير الشمس والقمر . وهو مبتدأ . وقوله ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ خبره . والباء للسببية . أى : ذلك الذى فعلناه سببه ، أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى لا إله سواه ، وأن ما يدعون من دونه من آلهة أخرى هو ﴿ الباطل ﴾ الذى لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ، لأنه مخلوق زائل متغير ، لايضر ولا ينفع .

ثم ذكر - سبحانه - الناس بنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى فقال : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته .. ﴾ .

أى : ولقد علمت - أيضا - وشاهدت - أيها العاقل - حال السفن ، وهى تجرى فى البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه . ليطلعكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها ﴿ لآيات ﴾ واضحات على قدرة الله - تعالى - ورحمته لعباده ﴿ لكل صبار ﴾ أى : لكل إنسان كثير الصبر ﴿ شكور ﴾ . أى : كثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ورحمته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس عندما تحيط بهم المصائب وهم فى وسط البحر فقال : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

وقوله ﴿ غشيهم ﴾ من الغشاء بمعنى : الغطاء . فيقال : غشى الظلام المكان ، إذا حل به وأصل « الموج » الحركة والازدحام . ومنه قولهم : ماج البحر إذا اضطرب وارتفع ماؤه . والظلل : جمع ظلة - كغرفة وغرف - ، وهى ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما .

أى : وإذا ما ركب الناس فى السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلوهم وتغطيهم ... فى تلك الحالة لجأوا إلى الله - تعالى - وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء ..

﴿ فلما نجاهم ﴾ - سبحانه - بفضله وإحسانه ، وأوصلهم ﴿إلى البر ﴾ انقسموا إلى قسمين ، أما القسم الأول ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ أى : فمنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط فى عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء .

قال ابن كثير : قال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل ، ثم قال ابن كثير : وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فالمقتصد هاهنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مرادا هنا - أيضا - ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك

الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا ، والحالة هذه[١] .

وأما القسم الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ .

والختار : من الختر ، وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة . يقال : فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقض لعهوده ، ومنه قول الشاعر :

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله - تعالى - .

أى : وما يجحد بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقض لعهودنا ، شديد النكران لنعمنا .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بدعوة الناس إلا الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله - تعالى - فى كل أحوالهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء منها . فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ (٣٣) إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ (٣٤)

والمعنى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ بأن تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن تشكروه ولا تكفروه ، واخشوا يوما ، أى : وخافوا أهوال يوم عظيم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٣ .

﴿ لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى : لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشىء من النفع فى هذا اليوم . أو أن يقضى عنه شيئا من الأشياء .

﴿ ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ أى : ولا يستطيع المولود - أيضا - أن يدفع عن والده شيئا مما يحتاجه منه .

وخص - سبحانه - الوالد والمولود بالذكر ، لأن رابطة المحبة والمودة بينهما هى أقوى الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما فى هذا اليوم ، كان انتفاؤه بالنسبة لغيرهما من باب أولى .

وقوله : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أى : إن ما وعد الله - تعالى - به عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق وثابت ثبوتا لا يقبل الشك أو التخلف .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أى : فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها ومتعها ، ولا تشغلنكم عن طاعة الله - تعالى - وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد . فإن الكيِّس الفطن هو الذى يتزود لهذا اليوم بالإيمان الحق ، والعمل الصالح النافع .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : ولا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن امتثال أمره . فالمراد بالغرور : الشيطان . أو كل ما يصرفك عن طاعة الله - تعالى .

قال الآلوسى : ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان ، كما روى عن ابن عباس وغيره . بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ... وعن أبى عبيدة : كل شىء غرك حتى تعصى الله - تعالى - فهو غرور سواء أكان شيطانا أم غيره وعلى ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان .. وأصل الغرور : من غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته ، أى : غفلته ، ونال منه ما يريد . والمراد به الخداع ..

والظاهر أن « بالله » صلة « يغرنكم » أى : لا يخدعنكم بذكر شىء من شئونه - تعالى - ، يجركم بها على معاصيه - سبحانه -[1] .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الأمور التى استأثر - عز وجل - بعلمها فقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أى : عنده وحده علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٠٨ .

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ...﴾[1] .

﴿ وينزل الغيث ﴾ أى : وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله . ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ أى : ويعلم ما فى أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى .

﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس كائنة من كانت ﴿ ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر ، و من رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك عمرها إلى الغد .

﴿ وما تدرى نفس ﴾ من النفوس - أيضا - كائنة من كانت ﴿بأى أرض تموت ﴾ أى : بأى مكان ينتهى أجلها .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليم ﴾ بكل شىء ﴿ خبير ﴾ بما يجرى فى نفوس عباده . وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار ، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ هذه ا لآية » ..

وعن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال للنبى - ﷺ - : « إن امرأتى حبلى فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل الله الآية »[2] .

وهذه الأمور الخمسة من الأمور التى استأثر الله - تعالى - بها على سبيل العلم اليقينى الشامل المطابق للواقع ..

ولا مانع من أن يطلع الله - تعالى - بفضله وكرمه ، بعض أصفيائه على شىء منها .

وليست المغيبات محصورة فى هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله - تعالى - داخل فيما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر لأنها من أهم المغيبات ، أو لأن السؤال كان عنها .

وما يخبر به المنجم والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التى لم تتكشف بعد ، فمبناه على الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب .

أما علم الله - تعالى - بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقينى قطعى شامل . لا يحتمل الظن أو الشك أو الخطأ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٥٧ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « لقمان » نسأل الله – تعالى – أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة – مدينة نصر

الخميس : ٥ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

٢٥ من إبريل سنة ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ السَّجدَة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

١ - سورة « السجدة » هى السورة الثانية والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « المؤمنون » ، أى : أنها من أواخر السور المكية .

قال الآلوسى ما ملخصه : وتسمى - أيضًا - بسورة « المضاجع » . وهى مكية ، كما روى عن ابن عباس .

وروى عنه أنها مكية سوى ثلاث آيات ، تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا ... ﴾ وهى تسع وعشرون آية فى البصرى . وثلاثون آية فى المصاحف الباقية ... »[1] .

ومن فضائل هذه السورة ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : كان النبى - ﷺ - يقرأ فى الفجر يوم الجمعة ﴿ الم . تنزيل ... ﴾ السجدة . و ﴿ هل أتى على الإنسان ... ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : « كان النبى - ﷺ - لا ينام حتى يقرأ هذه السورة ، وسورة تبارك »[2] .

٢ - وتبدأ هذه السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه من عند الله - تعالى - ، وبالرد على الذين زعموا أن الرسول - ﷺ - قد افتراه من عند نفسه ...

ثم تسوق ألوانًا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن مظاهر قدرته ، وبديع خلقه ، وشمول إرادته ، وإحسانه لكل شىء خلقه ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ .

٣ - ثم تذكر السورة الكريمة بعد ذلك جانبًا من شبهات المشركين حول البعث والحساب ، وترد عليها بما يبطلها ، وتصور أحوالهم عندما يقفون أمام خالقهم للحساب تصويرًا مؤثرًا مرعبًا قال - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١١٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٦٣ .

٤ - وبعد أن تذكر السورة الكريمة ما أعده الله - تعالى - للمؤمنين من ثواب لا تعلمه نفس من الأنفس ، وما أعده للكافرين من عقاب .. بعد كل ذلك تبين أن عدالته - تعالى - قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار وإنما يجازى كل إنسان على حسب عمله .

قال - تعالى - : ﴿ أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا ، لا يستوون ﴾ .

٥ - ثم تشير السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من نعم ، وما منحه للصالحين من قومه من منن ، لكى يتأسى بهم المؤمنون ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه ، وجعلناه هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ .

٦ - ثم حضت السورة الكريمة المشركين على التدبر والتفكر فى آيات الله - تعالى - ، ونهتهم عن الجحود والعناد ، وحكت جانبًا من سفاهاتهم ، وأمرت النبى - ﷺ - بأن يرد عليهم ، وأن يمضى فى طريقه دون أن يعير سفاهاتهم اهتمامًا .

قال - تعالى - : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ .

٧ - وبعد فهذا عرض إجمالى لسورة « السجدة » ومنه نرى أنها زاخرة بالأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن القرآن حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٣ من شعبان ١٤٠٥ هـ - ٢٣ / ٤ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

سورة السجدة من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ...

وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظومًا من حروف ، وهى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله ...

ومع كل هذا التساهل فى التحدى . فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لا شك فى كونه من عند الله - عز وجل - .

وقوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ . وخبره ﴿ من رب العالمين ﴾ وجملة ﴿ لا ريب فيه ﴾ معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب ..[1] .

أى : تنزيل هذا الكتاب عليك - أيها الرسول الكريم - كائن من رب العالمين ، وهذا أمر لا شك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل .

وعجل - سبحانه - بنفى الريب ، حيث جعله بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن هذه القضية ليست محلاً للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين .

و « أم » فى قوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة . والاستفهام للتعجيب من قولهم وإنكاره .

والافتراء : الاختلاق . يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه . وأصله من الفرى بمعنى قطع الجلد ، وأكثر ما يكون للإفساد .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمدا - ﷺ - ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه ... ؟

---

(١) راجع حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤١٢ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ رد على أقوالهم الباطلة .

أى : لا تستمع - أيها الرسول الكريم - إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك - عز وجل - .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى إرساله - ﷺ - وفى إنزال القرآن عليه فقال : ﴿ لتنذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ .

والإنذار : هو التخويف من إرتكاب شىء تسوء عاقبته . و « ما » نافية . و « نذير » فاعل « أتاهم » و « من » مزيدة للتأكيد .

أى : هذا القرآن - يامحمد - هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قومًا لم يأتهم نذير من قبلك بما جئتهم به من هدايات وإرشادات وآداب .

وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك بالطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه .

ولا يقال : إن إسماعيل - عليه السلام - قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول - ﷺ - إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف ، فكانت رسالة الرسول - ﷺ - إلى قومه ، جديدة فى منهجها وأحكامها وتشريعاتها .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ... ﴾ .

والأيام جمع يوم ، واليوم فى اللغة : مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

وهو - سبحانه - قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة أو لحظة ، ولكنه - عز وجل - خلقهن فى تلك الأوقات ، لكى يعلم عباده التأنى والتثبيت فى الأمور .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ ستة أيام ﴾ قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة ، التى خلق الله فيها السموات والأرض ، مقداره ألف سنة من سنى الدنيا ..[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التى نعرفها ، إذ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٨٦ .

أيام هذه الأرض ، مقياس زمنى ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلًا ونهارًا على هذه الأرض .. وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة . أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن ، فعلمها عند الله . ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها ، فهى من أيام الله التى يقول عنها : ﴿ وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ إشارة إلى استعلائه وهيمنته على شئون خلقه .

وقال بعض العلماء : وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم .. وقد ذكر فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .

قال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعًا على الإيمان بالصفات ، من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ أى : ليس لكم - أيها الناس - إذا تجاوزتم حدوده - عز وجل - ﴿ من ولى ﴾ أى : من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم ، ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم عنده لكى يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعانى الواضحة ، وتسمعون هذه المواعظ البليغة ، التى من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله رب العالمين .

فالآية الكريمة جمعت فى توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبين الترهيب من معصيته ومخالفة أمره ، وبين الحض على التذكر والاعتبار .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢١ ص ٥١٠ .
(٢) راجع تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق بجلاله ، فقال : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يدبر ﴾ من التدبير بمعنى الإحكام والإتقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء على هذا النحو البديع الحكيم الذى نشاهده ، وأصل التدبير : النظر فى أعقاب الأمور محمودة العاقبة .

وقوله : ﴿ يعرج ﴾ من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصيرورة إليه - تعالى - .

والضمير فى « إليه » يعود إلى الأمر الذى دبره وأحكمه - سبحانه - .

أى : أن الله - تعالى - هو الذى يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذى يجعلها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه - تعالى - تلك الأمور والشئون المدبرة ، فى يوم ، عظيم هو يوم القيامة ﴿ كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ من أيام الدنيا .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ من السماء إلى الأرض ﴾ متعلقان بقوله : ﴿ يدبر ﴾ ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية . أى : يريده - تعالى - على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، منزلاً له من السماء إلى الأرض . وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم .

وقوله ﴿ ثم يعرج إليه ﴾ أى : ذلك الأمر بعد تدبيره . وهذا العروج مجاز عن ثبوته فى علمه .. أو عن كتابته فى صحف الملائكة بأمره - تعالى -[1] .

وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - هنا أنه ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ . وذكر فى سورة الحج ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . وذكر سورة المعارج ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ والجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج ، هو أحد الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . ويوم الألف فى سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه - تعالى - ، ويوم الخمسين ألفا - فى سورة المعارج - هو يوم القيامة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٢٠ .

الثانى : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا الوجه قوله - تعالى - : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ﴾[1] .

أى : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حالة أخرى خمسين ألف سنة .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ، وهو مبتدأ ، وما بعده أخبار له - عز وجل - .

أى : ذلك الذى اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأفعال المتقنة الحكيمة ، هو الله - تعالى - ، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أى : عالم كل ما غاب عن الحس ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شىء مما ظهر أو بطن ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده .

﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ أى : الذى أحكم وأتقن كل شىء خلقه وأوجده فى هذا الكون ، لأنه - سبحانه - أوجده على النحو الذى تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده .

قال الشوكانى : وقرأ الجمهور ﴿ خلقه ﴾ - بفتح اللام - على أنه فعل ماض صفة لشىء ، فهو فى محل جر . أو صفة للمضاف فيكون فى محل نصب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : ﴿ خلقه ﴾ - بسكون اللام - وفى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلاً من ﴿ كل شىء ﴾ بدل اشتمال ، والضمير عائد على كل شىء ، وهذا هو المشهور ... ﴾[2] .

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ آدم - عليه السلام - ، أى وبدأ خلق أبيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة ، وأبدع شكل ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه .

﴿ من سلالة ﴾ أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية .

﴿ من ماء مهين ﴾ أى : ممتهن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به : المنى الذى يخرج من الرجل .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٠٣ للشيخ الأمين الشنقيطى .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٦ ص ٢٤٩ .

﴿ ثم سواه ﴾ أى : هذا المخلوق الذى أوجده من طين ، أو من ماء مهين . والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وناسب بين أعضائه ، وأتمه فى أحسن صورة ...

﴿ونفخ فيه ﴾ - سبحانه - ﴿ من روحه ﴾ أى : من قدرته ورحمته ، التى صار بها هذا الإنسان إنسانًا كاملًا فى أحسن تقويم .

وإضافة الروح إليه - تعالى - للتشريف والتكريم لهذا المخلوق ، كما فى قولهم بيت الله .

﴿ وجعل لكم ﴾ بعد ذلك ﴿ السمع ﴾ الذى تسمعون به ﴿ والأبصار ﴾ التى تبصرون بها ، ﴿ والأفئدة ﴾ التى تعقلون بها ، وتحسون الأشياء بواسطتها .

وقوله : ﴿ قليلًا ما تشكرون ﴾ بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم المتكاثرة والمتنوعة . ولفظ « قليلًا » منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع معمولًا لتشكرون .

أى : شكرًا قليلًا تشكرون ، أو زمانًا قليلًا تشكرون .

وهكذا بنو آدم - إلا من عصم الله - ، أوجدهم الله - تعالى - بقدرته ، وسخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما سخر من مخلوقات ، وصانهم فى كل مراحل خلقهم بأنواع من الصيانة والحفظ ... ومع ذلك فقليل منهم هم الذين يشكرونه - عز وجل - على نعمه . وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - شبهات المشركين ورد عليها ، وصور أحوالهم الأليمة عندما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ

مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ هذا قول منكرى البعث أى : هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضل الماء فى اللبن إذا ذهب . والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل .. »[1] .

أى : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب أئذا صارت أجسادنا كالتراب واختلطت به ، أنعاد إلى الحياة مرة أخرى ، ونخلق خلقًا جديدًا ...؟

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ إضراب وانتقال من حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ما هو أشنع من ذلك وهو كفرهم بلقاء الله - تعالى - الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ... أى : بل هم لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجهل عليهم ، بلقاء ربهم يوم القيامة ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله - تعالى - قد أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن مردهم إليه لا محالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

وقوله ﴿ يتوفاكم ﴾ من التوفى . وأصله أخذ الشيء وافيا تاما . يقال : توفاه الله ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالى بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت : عزرائيل .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد على هؤلاء الجاحدين : سيتولى قبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم ملك الموت الذى كلفه الله - تعالى - بذلك ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفركم وجحودكم .

وأسند - سبحانه - هنا التوفى إلى ملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح . وأسنده إلى الملائكة فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة ﴾ لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٩١ .

وأسنده - سبحانه - إلى ذاته فى قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ لأن كل شىء كائنا ما كان ، لا يكون إلا بقضائه وقدره .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ، عندما يقفون للحساب ، تصويرًا مرعبًا مخيفًا فقال : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﴾ .

وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : لرأيت شيئًا تقشعر من هوله الأبدان .

وقوله : ﴿ ناكسو ﴾ من النكس ، وهو قلب الشىء على رأسه كالتنكيس .. وفعله من باب نصر - والخطاب يصح أن يكون للرسول - ﷺ - أو لكل من يصلح له .

أى : ولو ترى - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء ، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخزى ، لحسابهم على أعمالهم .. لو ترى ذلك لرأيت شيئًا ترتعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب .

وقوله : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون ﴾ حكاية لما يقولونه فى هذا الموقف العصيب . أى : يقولون بذلة وندم : ياربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال ، ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ، لكى ﴿ نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحًا إنا موقنون ﴾ الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق . وأن الجزاء حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق .

ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم ، قد جاء فى غير أوانه ، ولذا لا يقبله - سبحانه - منهم ، ولذا عقب - سبحانه - على ما قالوه بقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... ﴾ . أى : ولو شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن إرادتنا نافذة ، وقدرتنا لا يعجزها شىء .

﴿ ولكن حق القول منى ﴾ أى : ولكن ثبت وتحقق قولى .

﴿ لأملأن جهنم من الجنة ﴾ أى من الجن وسموا بذلك لاستتارهم عن الأنظار .

ومن ﴿ الناس أجمعين ﴾ بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء ، إلا أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن الذين سبق فى علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون مصيرهم إلى النار ، وأما الذين آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم ، وكمال استعدادهم ، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .

كما أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره ، بأن يجعل له طبيعة

خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . كما قال - تعالى - ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا . إنا هديناه السبيل ، إما شاكرًا وإما كفورا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم فى جهنم فقال - تعالى - : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ .

والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه . والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم .

والفاء فى قوله : ﴿ فذوقوا ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله والباء للسببية . والمراد بالنسيان لازمه ، وهو الترك والإهمال .

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم فى النار : ذوقوا لهيبها وسعيرها بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب . وإننا من جانبنا قد أهملناكم وتركناكم . بسبب إصراركم على كفركم ، وذوقوا العذاب الذى أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا « جزاء وفاقا » .

وكرر - سبحانه - لفظ ﴿ ذوقوا ﴾ على سبيل التأكيد ، وزيادة التقريع والتأنيب .

ثم تترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب ، وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر ، عن مشهد يشرح النفوس ، ويبهج القلوب ، إنه مشهد المؤمنين الصادقين ، وما أعد الله - تعالى - من ثواب قال - تعالى - :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

أى : ﴿ إنما يؤمن ﴾ ويصدق ﴿ بآياتنا ﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات .

﴿ خروا سجدًا ﴾ لله - تعالى - من غير تردد ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ أى : ونزهوه عن كل ما لا يليق به - عز وجل -

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن طاعته - سبحانه - ، وعن الانقياد لأمره ونهيه .

ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى عبادتهم وتقربهم إلى الله ، تصويرًا بديعًا فقال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾ .

والتجافى : التحرك إلى جهة أعلى . وأصله من جفا فلان السرج عن فرسه ، إذا رفعه . ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه .

والجنوب : جمع جنب . وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص .

والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الاتكاء للنوم .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن أماكن نومهم ، وراحتهم ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة ﴿ خوفًا ﴾ من سخطه عليهم ، ﴿ وطمعًا ﴾ فى رضاه عنهم .

﴿ ومما رزقناهم ﴾ من فضلنا وخيرنا ﴿ ينفقون ﴾ فى وجوه البر والخير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ... ﴾ بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم . أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت لملك مقرب ، أم لنبى مرسل ، ما أخفاه الله - تعالى - لهؤلاء المؤمنين المتهجدين بالليل والناس نيام ، من ثواب تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم ، وتبتهج له نفوسهم ..

وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ، وللثواب الذى لا تحيط به عبارة ، والذى أكرمهم الله - تعالى - به .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عددًا من الأحاديث الواردة فى فضل قيام الليل ، منها ما رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : كنت مع النبى - ﷺ - فى سفر ، فأصبحت يومًا قريبًا منه . ونحن نسير ، فقلت : يانبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار . فقال : « لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير

على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ - ﷺ - : تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ... »

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - إن الله - تعالى - قال : « أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[١] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن عدالته قد اقتضت عدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، وأن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله فقال - تعالى - .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٣٦٥ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أفمن كان مؤمنًا .. ﴾ للإنكار ، والفسوق : الخروج عن طاعة الله .

أى : أفمن كان فى هذه الدنيا مؤمنًا بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقًا وخارجًا عن طاعة الله - تعالى - وعن دينه الذى ارتضاه لعباده ؟

كلا ، إنهم لا يستوون لا فى سلوكهم وأعمالهم ، ولا فى جزائهم الدنيوى أو الأخروى .

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى شأن الوليد بن عقبة ، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، حيث قال الوليد لعلى : أنا أبسط منك لسانًا ، وأحد سنانا ، وأملأ فى الكتيبة جسدًا ، فقال له على : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية[1] .

ثم فصل - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : ﴿ أما الذين آمنوا ﴾ بالله حق الإيمان ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ .

﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أى : فلهم الجنات التى يأوون إليها ، ويسكنون فيها ﴿ نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ والنزل : أصله ما يهيأ للضيف النازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم عمم فى كل عطاء . أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولاً مصحوبًا بالتكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا .

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أى : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا - ﷺ - .

﴿ فمأواهم النار ﴾ أى : فمنزلتهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار .

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ هربًا من لهيبها وسعيرها وعذابها .

﴿ أعيدوا فيها ﴾ مرغمين مكرهين ، وردوا إليها مهانين مستذلين .

﴿ وقيل لهم ﴾ على سبيل الزجر والتأنيب وزيادة الحسرة فى قلوبهم .

﴿ ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ فى الدنيا ، وتستهزئون بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه .

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ أى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا ، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .

﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أى : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٠٤ .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ عما هم فيه من شرك وكفر وفسوق وعصيان .

ثم بين - سبحانه - حال من يدعى إلى الهدى فيعرض عنه ، فقال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلمًا وكفرًا ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم أعرض عنها جحودًا وعنادًا .

﴿ إنًّا من المجرمين منتقمون ﴾ أى : إنًّا من أهل الإجرام والجحود لآياتنا منتقمون انتقامًا يذلهم ويهينهم .

قال صاحب الكشاف : « ثم » فى قوله ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ للاستبعاد .

والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله ، فى وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل . كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، استبعادًا لتركه الانتهاز . ومنه « ثم » فى بيت الحماسة :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها .

فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الإفادة[1] .

ثم أشارت السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من نعم . وما منحه للصالحين من قومه من منن ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٥ .

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ التوراة التى أنزلها - سبحانه - لتكون هداية لبنى إسرائيل .

قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبى - ﷺ - ووجود من كان على دينه إلزامًا لهم . وإنما لم يختر عيسى - عليه السلام - للذكر وللاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى - عليه السلام -[1] .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ فلا تكن فى مرية من لقائه ﴾ يعود إلى موسى على أرجح الأقوال - أو إلى الكتاب .

أى : آتينا موسى الكتاب فلا تكن - أيها الرسول الكريم - فى مرية أو شك من لقاء موسى للكتاب الذى أوحيناه إليه ، بقبول ورضا وتحمل لتكاليف الدعوة به ، فكن مثله فى ذلك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون أن تخشى أحدًا سواه .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى : جنس الكتاب ﴿ فلا تكن فى مرية ﴾ أى : شك ﴿ من لقائه ﴾ أى : من لقائك ذلك الجنس .

وحمل بعضهم ﴿ الكتاب ﴾ على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة .

ونهيه - ﷺ - عن أن يكون فى شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك .

وقيل الكتاب ، المراد به التوراة ، وضمير ، لقائه ، عائد إليه من غير تقدير مضاف . ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله ، وفاعله موسى ، أى : فلا تكن فى مرية من لقاء موسى الكتاب ، أو مضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى . أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه ..[1] .

وهذا الرأى الأخير الذى عبر عنه الآلوسى - رحمه الله - بقوله « وقيل » وهو فى رأينا أرجح الآراء ، وأقربها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف .

قال الجمل فى حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال فى عودة الضمير فى قوله ﴿ من لقائه ﴾ : « وأظهرها أن الضمير إما لموسى وإما للكتاب . أى : لا ترتب فى أن موسى لقى الكتاب وأنزل عليه »[3] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤١٩ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٣٧ .
(٣) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤١٩ .

قال صاحب الكشاف : والضمير فى « لقائه » له - أى لموسى - ، ومعناه : إنا آتينا موسى - عليه السلام - مثل ما آتيناك من الكتب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله - تعالى - : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزلناه على نبينا موسى - عليه السلام - هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد .

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به فى الأمور المختلفة . والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم فى وجوه الخير والبر .

أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة فى الخير والصلاح ، يهدون غيرهم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كلفناهم به من عبادات ، وحين تحملوا الشدائد والمحن فى سبيل إعلاء كلمتنا .

وأنت ترى أن جعلهم أئمة فى الخير لم يكن اعتباطًا ، وإنما كان بسبب صبرهم على الأذى ، وعلى مشاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أمر يستلزم الصبر وحبس النفس .

وفى ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلكوا طريق الأئمة الصالحين ، ممن كانوا قبلهم ، وأن يبلغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر ويقين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ زيادة فى مدحهم ، وفى تقرير أنهم أهل للإمامة فى الخير . أى : وكانوا بسبب إدراكهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقانًا جازمًا بأنهم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل وبأنهم متبعون لشريعة الله - تعالى - التى لا يضل من اتبعها وسار على نهجها .

ثم أشار - سبحانه - إلى أن بنى إسرائيل جميعًا لم يكونوا كذلك ، وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده الذى يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا من أمور متنوعة . على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٦ .

ثم يسوق - سبحانه - فى أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم ، وما يزيد النبى - ﷺ - ثباتاً على ثباته ، ويقيناً على يقينه ، فيقول - عز وجل - :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا ... ﴾ لإنكار عدم اهتدائهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء . والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . والخطاب للمشركين وعلى رأسهم كفار مكة . و « كم » خبرية بمعنى كثير . فى محل نصب لأهلكنا .

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم ، ولم يتبين لهم - لانطماس بصائرهم - أننا قد أهلكنا كثيراً من أهل الأزمان السابقة من قبلهم ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

وقوله - تعالى - ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ حال من الضمير فى ﴿ لهم ﴾ ، لتسجيل أقصى أنواع الجهالة والعناد عليهم . أى : أبلغ بهم الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون المهلكة من قبلهم ، مع أنهم يمشون فى مساكن هؤلاء السابقين ، ويرون على ديارهم مصبحين وممسين ، ويرون بأعينهم آثارهم الدارسة ، وبيوتهم الخاوية على عروشها .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بما يزيد فى تبكيتهم وتقريعهم فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى يرونه من مصارع الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وعظات بليغات ، فهلا تدبروا فى ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم ؟

فقوله – تعالى – : ﴿ أفلا يسمعون ﴾ حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء عاقبة الظالمين ، بتدبر وتعقل واتعاظ ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل بهم ما حل بأهل الأزمنة الغابرة .

ثم نبههم – سبحانه – إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعًا ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ والأرض الجرز : هى الأرض اليابسة التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها .

قال القرطبى ما ملخصه : والأرض الجرز هى التى جرز نباتها أى : قطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز .

وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئًا إلا أكله ، وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شىء تجده ، وسيف جراز ، أى : قاطع ... »[1] .

أى : أعموا ولم يشاهدوا بأعينهم ﴿ أنا نسوق ﴾ بقدرتنا ورحمتنا ﴿ الماء ﴾ الذى تحمله السحب ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ أى : اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها .

﴿ فنخرج به ﴾ أى : فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة ﴿ زرعا ﴾ كثيرًا نافعًا ﴿ تأكل منه ﴾ أى : من هذا الزرع ﴿ أنعامهم ﴾ أى : تأكل منه ما يصلح لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبه ذلك .

وقوله ﴿ وأنفسهم ﴾ معطوف على أنعامهم . أى : تأكل أنعامهم من الزرع ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب .

وقدم – سبحانه – الأنعام على بنى آدم للترقى من الأدنى إلى الأشرف .

وقوله – تعالى – ﴿ أفلا يبصرون ﴾ حض لهم على التأمل فى هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العبادة له .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٠ .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه المشركون من غرور واستخفاف بالوعيد فقال : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ .

والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل فى الخصومة بين المتخاصمين ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ . أى : « احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين » .

أى : ويقول المشركون للنبى - ﷺ - ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، واستعجال العقاب : متى هذا الذى تحدثوننا عنه من أن الله - تعالى - سيفصل بيننا وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة ؟

لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذى يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم ، فادعوا ربكم أن يعجل بهذا اليوم .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يرد عليهم بما يخرسهم فيقول : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ . أى : قل - أيها الرسول - فى الرد على هؤلاء الجاهلين المغرورين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت لا محالة فى الوقت الذى يحدده الله - تعالى - ويختاره ، سواء أكان هذا اليوم فى الدنيا ، عندما تموتون على الكفر ، أم فى الآخرة عندما يحل بكم العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم ، ولا أنتم تمهلون أو تنظرون ، بل سينزل بكم العذاب سريعًا وبدون مهلة .

وما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ . أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن تلتفت إليها ، وامض فى طريقك أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم بفضلنا وإرادتنا ، إنهم - أيضًا - منتظرون ما سيئول إليه أمرك ، وسيكون أمرك بخلاف ما يمكرون وما ينتظرون .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة السجدة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

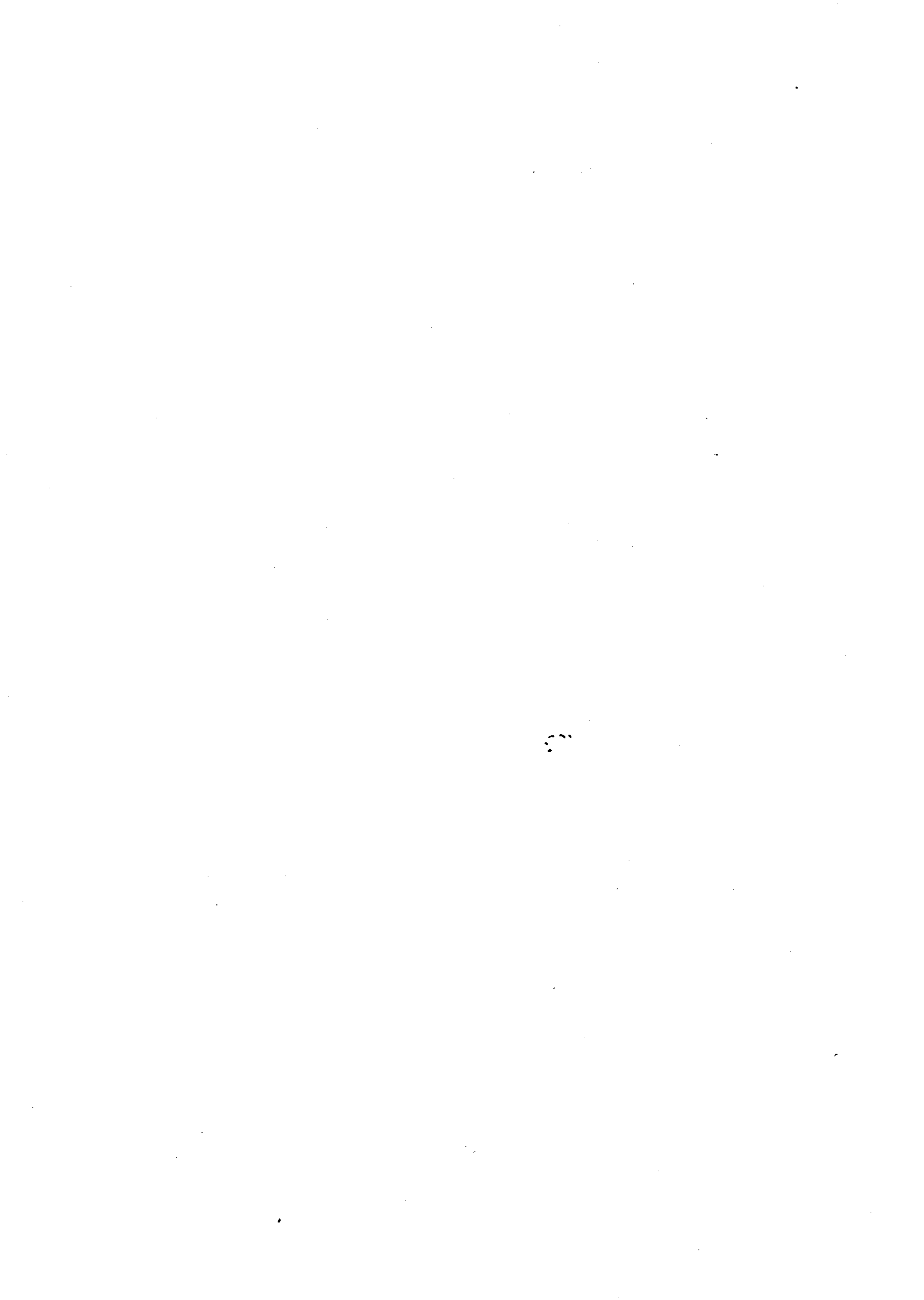
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
مساء السبت : ٧ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ
٢٧ / ٤ / ١٩٨٥ م



تفسير
سُورَةُ الأَحزَاب



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ - سورة الأحزاب هى السورة الثالثة والثلاثون فى ترتيب المصحف وهى من ا لسور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران ، أى : أنها من أوائل السور المدنية ، إذ لم يسبقها فى النزول بعد الهجرة سوى سور : البقرة والانفال وآل عمران .

ويبدو : أن نزولها كان فى الفترة التى أعقبت غزوة بدر ، إلى ما قبل صلح الحديبية . وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية .

٢ - وقد افتتحت سورة الأحزاب بنداء من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ، نهته فيه عن طاعة المنافقين والكافرين ، وأمرته بالمداومة على طاعة الله - تعالى - وحده ، وباتباع أمره ، وبالتوكل عليه - سبحانه - .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان حكم الله - تعالى - فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع فى ذلك الوقت ، فأبطلت التبنى ، كما أبطلت ما كان سائدا فى المجتمع من عادة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، فتصير محرمة عليه حرمة مؤبدة .

قال - تعالى - : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ .

٤ - ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التشريعية الأخرى ، كوجوب طاعة الرسول - ﷺ - طاعة تفوق طاعتهم لأنفسهم ، ولوجوب تعظيم المسلمين لزوجاته - ﷺ - كتعظيم أمهاتهم ، وكوجوب التوارث بين الأقارب بالطريقة التى بينها -

سبحانه - فى آيات أخرى ، وإبطال التوارث عن طريق المؤاخاة التى تمت بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار .

قال - تعالى - : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ .

٥ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بجانب من نعمه عليهم ، حيث دفع عنهم جيوش الأحزاب ، وأرسل على تلك الجيوش جنودا من عنده لم يروها ، وكشف عن رذائل المنافقين التى ارتكبوها فى تلك الغزوة ، ومدح المؤمنين الصادقين على وفائهم بعهودهم ، وكافأهم على ذلك بأن أورثهم أرض أعدائهم وديارهم .

قال - تعالى - : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قويا عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم . وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾.

وبعد هذا الحديث المفصل عن غزوة الأحزاب ، والذى استغرق ما يقرب من عشرين آية ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أزواج النبى - ﷺ - فأمرت النبى - ﷺ - أن يخيرهن بين التسريح بإحسان ، وبين الصبر على شظف العيش ، ليظفرن برضا الله - تعالى - كما وجهت نداء إليهن أمرتهن فيه ، بالتزام الآداب الدينية التى تليق بهن . لأنهن فى مكان القدوة لسائر النساء .

كما أمرتهن بالبقاء فى بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة مشروعة . ومثلهن فى ذلك مثل سائر نساء المسلمين . حتى يتفرغن لرعاية شئون بيوتهن التى هى من خصائصهن وليست من خصائص الرجال .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة ببيان الثواب الجزيل الذى أعده للمؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : ﴿ إن المسلمين والمسلمات . والمؤمنين والمؤمنات . والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات . والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات . والذاكرين الله كثيرا والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾.

٧ - ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى قصة زواج النبى - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش . وإلى الحكمة من ذلك . وإلى تطليق زيد بن حارثة لها . وإلى أن ما فعله

رسول - ﷺ - بالنسبة لهذه الحادثة . كان بأمر الله - تعالى - وإذنه .

قال - تعالى - : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما ﴾

ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتنزيهه . كما وجهت نداء إلى النبى - ﷺ - بينت له فيه وظيفته ، قال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما ، يأيها النبى إنَّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾.

٩ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك بشىء من التفصيل عن بعض الأحكام التى تتعلق بأزواج النبى - ﷺ - وبعلاقته - ﷺ - بهن من حيث القسم وغيره ، ومن حيث الزواج بغيرهن .

كما تحدثت عن الآداب التى يجب على المؤمنين أن يلتزموها عند دخولهم بيوت النبى - ﷺ - بدعوة منه . لأجل تناول طعام ، أو لأجل أمر من الأمور الأخرى التى تتعلق بدينهم أو دنياهم .

ثم ختمت هذه الآيات بقوله - تعالى - ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما ﴾.

١٠ - وبعد هذا البيان المفصل لكثير من الأحكام والآداب ، أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، فى تهديد المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وفى بيان أن سنن الله فى خلقه لا تتخلف ، وأن علم وقت قيام الساعة إلى الله - تعالى - وحده ، وأن الإصرار على الكفر يؤدى إلى سوء العاقبة ، وأن السير على طريق الحق . يؤدى إلى مغفرة الذنوب . وأن الإنسان قد ارتضى حمل الأمانة . التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال .

قال - تعالى - : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

١١ - ومن هذا العرض المجمل لآيات سورة الأحزاب ، نرى أنها قد اهتمت بموضوعات من أبرزها ما يلى :

(أ) كثرة التوجيهات والإرشادات ، من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إلى أفضل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأهدى السبل .

وهذه التوجيهات والإرشادات . نراها فى كثير من آيات سورة الأحزاب لاسيما التى نادت الرسول - ﷺ - بوصف النبوة .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن .

(ب) أمر المؤمنين بطاعة الله - تعالى - ، وبطاعة رسوله - ﷺ - ، ونهيهم عن كل مامن شأنه أن يتعارض مع تشريعات الإسلام ومع آدابه .

وهذه الأوامر والنواهى ، نراها فى كثير من آيات هذه السورة الكريمة .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ... ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ، فبرأه الله مما قالوا﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا﴾ .

(جـ) هذه السورة الكريمة تعتبر على رأس السور القرآنية التى اهتمت ببيان فضل نساء النبى - ﷺ - وحقوقهن ، وواجباتهن وخصائصهن .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ، فلا تخضعن بالقول ... ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ... ﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ... ﴾

وقوله - عز وجل - : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. ﴾.

(د) هذه السورة تعتبر من أجمع السور القرآنية التى تعرضت لكثير من الأحكام الشرعية ، والآداب الاجتماعية ، التى لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

ومن ذلك حديثها عن الظهار ، وعن التبنى . وعن التوارث بين الأقارب دون غيرهم ، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول - ﷺ - على طاعة الإنسان لنفسه ، وعن وجوب التأسى به ، وعن وجوب الابتعاد عن كل ما يؤذيه أو يجرح شعوره ، وعن وجوب الخضوع لحكم الله - تعالى - ولحكم رسوله - ﷺ - .

قال - تعالى - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

(هـ) السورة الكريمة فصلت الحديث عن غزوة الأحزاب ، التى وقعت فى السنة الخامسة من الهجرة بين المسلمين وأعدائهم .

فبدأت حديثها عن تلك الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله - تعالى - عليهم فى هذه الغزوة ، ثم صورت أحوالهم عند إحاطة جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة .

قال - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾.

ثم حكت أقوال المنافقين القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ، وبما يكشف عن سوء أخلاقهم .

قال - تعالى - : ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

ثم مدحت المؤمنين الصادقين لوفائهم بعهودهم ، ولشجاعتهم فى مواجهة أعدائهم .

قال - سبحانه - : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا﴾ .

وكما بدأت السورة حديثها عن غزوة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعم الله عليهم - ختمته - أيضا - بهذا التذكير ، لكى يزدادوا شكرا له - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها ، وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ .

(و) والخلاصة أن المتأمل فى سورة الأحزاب ، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الاجتماعية ، وبالتوجيهات الربانية ، تارة من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وتارة لأزواجه - ﷺ - ، وتارة للمؤمنين .

كما يراها تهتم اهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما ، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه

٨ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

٢٨ من إبريل ١٩٨٥ م د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق - ﷺ - وبهذا الوصف الكريم ، وهو الوصف بالنبوة ، على سبيل التشريف والتعظيم .

قال صاحب الكشاف : جعل - سبحانه - نداءه بالنبى والرسول فى قوله : ﴿ يأيها النبى﴾ . ﴿ يأيها الرسول ﴾ وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا آدم ، يا موسى ، يا عيسى ، ياداود : كرامة له وتشريفا ، وتنويها بفضله .

فإن قلت : إن لم يوقع اسمه فى النداء . فقد أوقعه فى الإخبار ، فى قوله : ﴿ محمد رسول الله ﴾ ؟

قلت : ذلك لتعليم الناس بأنه رسول ، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به[1] .

والمراد بأمره بتقوى الله : المداومة على ذلك ، والازدياد من هذه التقوى .

أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله ، وعلى مراقبته ، وعلى الخوف منه ، وأكثر من ذلك ، فإن تقوى الله ، على رأس الفضائل التى يحبها - سبحانه - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥١٨ .

قال ابن كثير : هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه - تعالى - إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى .

وقد قال خلف بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله[1] .

وبعد الأمر بالتقوى ، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ . أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله ، واجتنب طاعة الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى ، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

وفى إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيماء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبى - ﷺ - عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة ، طلبوا من النبى - ﷺ - أن يرجع عن قوله ، وأن يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود بالمدينة هددوه بالقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت[2] .

وقوله - تعالى - ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ : تعليل الأمر والنهى ، أى : اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله - تعالى - عليم بكل شىء ، وحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما يوحيه إليه فقال : ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك .. ﴾ أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع فى كل ما تأتى وتذر ، كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما .

فالجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .

وفى النص على أن الوحى إليه - ﷺ - وأن هذا الوحى من ربه الذى تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الاتباع التام الذى لا يشوبه انحراف أو تردد .

ثم أكد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا قويا فقال : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ، وكل من يخالف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٠ .

ما أمرناه به ، أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره ، وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى : وفوض أمرك إليه - عز وجل - وحده .

﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، واتباع وحيه ، والتوكل عليه - تعالى - وحده . كما تضمنت نهيه - ﷺ - عن طاعة الكافرين والمنافقين . وباتباع هذه الأوامر والنواهى ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

ثم أبطل - سبحانه - بعض العادات التى كان متفشية فى المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال - تعالى - :

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ نزلت فى رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهرى ، كان حفاظا لما يسمع ، وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل ، رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله - من شدة الهلع - ، فقال له أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . فقال له : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى . فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده .

وقيل سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا - ﷺ - له قلبان ، لأنه ربما كان فى شىء فنزع فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾[1] .

ويرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله - تعالى - للمظاهر من امرأته ، والمتبنى ولد غيره ، تمهيدا لما بعده .

أى : كما أن الله - تعالى - لم يخلق للإنسان قلبين فى جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له فى وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له فى زمن واحد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : أى : ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل .. لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك .

ولأن البنوة أصالة فى النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير .

فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الجوف ؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله - تعالى - : ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه .

يقال . ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه .

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، فى سورة المجادلة ، فى قوله - تعالى - : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهى عادة التبنى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٦ .
(٢) تفسير الكشاف - بتصرف وتلخيص - جـ٣ ص ٥٢١ .

والأدعياء : جمع دعى . وهو الولد الذى يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبنى بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة ، مولى النبى - ﷺ - ، فقد كان - ﷺ - قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد . فأراد الله - تعالى - أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ، كما قال فى أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[1] .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من التلفظ بالظهار ، ومن إجراء التبنى على ولد الغير ، وهو مبتدأ ، وما بعده خبر .

أى : ذلكم الذى تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم فى التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يقول - تعالى ذكره - هذا القول ، وهو قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، ودعاؤه من ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدعوى نسب الذى ادعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها : أنت على كظهر أمى[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ أى : والله - تعالى - يقول الحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو - سبحانه - دون غيره يهدى ويرشد إلى السبيل القويم الذى يوصل إلى الخير والصلاح . وما دام الأمر كذلك فاتركوا عاداتكم وتقاليدكم التى ألفتموها . والتى أبطلها الله - تعالى - بحكمته ، واتبعوا ما يأمركم به - سبحانه - .

ثم أرشدهم إلى الطريقة السليمة فى معاملة الابن المتبنى فقال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ أيانسبوا هؤلاء الأعياء إلى آبائهم ، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى - .

قال الآلوسى : أخرج الشيخان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن حارثة مولى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢١ ص ٧٥ .

رسول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد . حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ فقال - ﷺ - : « أنت زيد بن حارثة بن شراحيل »[1] .

وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب ، ثم بيع فى مكة ، واشتراه حكيم بن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة - رضى الله عنها - إلى النبى - ﷺ - وصار الناس يقولون : زيد بن محمد حتى نزلت الآية .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء فى حالة عدم معرفة آبائهم .

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن ذلك أعدل عند الله - تعالى - ، وأشرف للآباء والأبناء ، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم ، يا أخى أو يامولاى ، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين .

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية ، ومن اضطراب فى الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر والعفاف ، ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

أى . انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا مولاى . ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما ، فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم .

و ﴿ كان الله غفورا رحيما ﴾ - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذى حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذى كان يجعل المرأة محرمة على الرجل ، ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هى مطلقة فتتزوج غير زوجها ، ولا هى زوجة فتحل له فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٧ .

ومن مظاهر ذلك - أيضا - : إبطال عادة التبنى ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية .

ولقد حذر الإسلام من دعوى الإبن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا . ونفر من ذلك .

قال القرطبى : جاء فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرة ، كلاهما قال : سَمِعته أذناى ووعاه قلبى ، محمدا - ﷺ - يقول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم - ﷺ - ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيما بينهم ، فقال - تعالى - :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

أى : النبى - ﷺ - أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا ما دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه - ﷺ - لا يدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنما مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه - أى فى الشىء المستوقد - وأنا آخذ بِحُجزكم - أى : وأنا آخذ بما يمنعكم من السقوط كملابسكم ومعاقد الإزار - وأنتم تقحمون فيه » أى : وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٢١ .

قال القرطبى : قال العلماء : الحجزة : السراويل ، والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه ، وهذا مثل لاجتهاد نبينا - ﷺ - فى نجاتنا ، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التى بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا[١] .

وقال الإمام ابن كثير . قد علم الله - تعالى - شفقة رسوله - ﷺ - على أمته ، ونصحه لهم : فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدما على اختيارهم لأنفسهم .

وفى الصحيح « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » .

وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبى - ﷺ - أنه كان يقول : ﴿ أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ﴾ فأيما رجل مات وترك دينا فإلى ، ومن ترك مالا فلورثته ﴾[٢] .

وقال الآلوسى : وإذا كان - ﷺ - بهذه المثابة فى حق المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه - عليه الصلاة والسلام - عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها .

وسبب نزول الآية - على ما قيل - ما روى من أنه - ﷺ - أراد غزوة تبوك ، فأمر الناس بالخروج : فقال أناس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت . ووجه دلالتها على السبب أنه - ﷺ - إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى[٣] .

ثم بين - سبحانه - منزلة أزواجه - ﷺ - بالنسبة للمؤمنين فقال : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى : وأزواجه - ﷺ - بمنزلة أمهاتكم - أيها المؤمنون - فى الاحترام والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .

قالوا : وأما ما عدا ذلك كالنظر اليهن ، والخلوة بهن ، وإرثهن . فهن كالأجنبيات .

ثم بين - سبحانه - أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال - تعالى - ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٢٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨١ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦١ .

والمراد بأولى الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء والأبناء ، والإخوة ، والأخوات .

وقوله : ﴿ فى كتاب الله ﴾ متعلق بقوله ﴿ أولى ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الضمير فى ﴿ أولى ﴾ .

والمراد بالمؤمنين والمهاجرين . من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة قرابة .

قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله - عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك أنا معشر قريش ، لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم .. حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فرجعنا إلى مواريثنا[1] .

وشبيه بهذه الآية فى وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم ، قوله - تعالى - فى آخر آية من سورة الأنفال : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم ﴾ .

والاستثناء فى قوله - سبحانه - : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ رجح بعضهم أنه استثناء منقطع . وقوله ﴿ أن تفعلوا ﴾ مبتدأ ، وخبره محذوف .

والمراد بالكتاب فى قوله ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ القرآن الكريم ، أو اللوح المحفوظ .

والمعنى : وأولو الأرحام وهم الأقارب ، بعضهم أولى ببعض فى التوارث فيما بينهم ، وفى تبادل المنافع بعضهم مع بعض ، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة فى كتاب الله - تعالى - حيث بين لكم فى آيات المواريث التى بسورة النساء ، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب ، وهم بهذا البيان أولى فى ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .

هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث ، لكن إذا أردتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين معروفا ، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس ، ولا حرج عليكم فى ذلك .

وهذا الحكم الذى بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب ، كان مسطورا ومكتوبا فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٣ .

اللوح المحفوظ ، وفى آيات القرآن التى سبق نزولها ، فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام ، والتقدير : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل شىء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز .

وإما منقطع . والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به .

والإشارة بقوله : ﴿ كان ذلك ﴾ تعود إلى ما تقدم ذكره . أى : كان نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات ﴿ فى الكتاب مسطورا ﴾ أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن مكتوبا[1] .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ، وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث .

ثم ذكر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالعهد الذى أخذه عليه وعلى الأنبياء من قبله ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

والميثاق : العهد الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق ، المتضمن معنى الشد والربط على الشىء بقوة وإحكام .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أخذنا من جميع النبيين العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناه إليهم من هدايات للناس ، وعلى أن يأمروهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا فى أصول الشرائع ومكارم الأخلاق .. كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٦٢ .

وخص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه بفضلهم ، فهم أولو العزم من الرسل ، وهم الذين تحملوا فى سبيل إعلاء كلمة الله - تعالى - أكثر مما تحمل غيرهم .

وقدم - ﷺ - عليهم فى قوله ﴿ ومنك ومن نوح ﴾ لمزيد فضله - ﷺ - على جميع الأنبياء .

قال الآلوسى : ولا يضر تقديم نوح - عليه السلام - فى سورة الشورى ، أعنى قوله - تعالى - : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ﴾ إذ لكل مقام مقال . والمقام فى سورة الشورى وصف دين الإسلام بالأصالة . والمناسب فيه تقديم نوح ، فكأنه قيل : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد - ﷺ - فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ معطوف على ما قبله وهو ﴿ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ ، لإفادة تفخيم شأن هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد فى أقصى درجات الأهمية والشدة .

أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة ، رفيع المقدار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فماذا أراد بالميثاق الغليظ ؟

قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا .

والغلظ استعارة فى وصف الأجرام . والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه .

وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أخذنا ﴾ ، أو بمحذوف . والمراد بالصادقين : الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق .

أى : فعل - سبحانه - ذلك ليسأل يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، وعن موقف هؤلاء الأقوام منهم .

والحكمة من هذا السؤال تشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ، وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءوهم به من كلام صادق ومن إرشاد حكيم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ معطوف على مادل عليه قوله ، ليسأل الصادقين .

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٢١ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٥ .

أى : أثاب - عز وجل - الأنبياء الكرام بسبب صدقهم فى تبليغ رسالته وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم عذابا أليما ، بسبب هذا الإعراض .

وهكذا جمعت الآية الكريمة بين ما أعده - سبحانه - من ثواب عظيم للصادقين . ومن عذاب أليم للكافرين .

وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية . انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب ، وعن فضل الله - تعالى - على المؤمنين فيها ، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾

وغزوة الأحزاب ، من الغزوات الشهيرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وكانت - على الراجح - فى شهر شوال من السنة الخامسة بعد الهجرة .

وملخصها - كما ذكر الإمام ابن كثير - أن نفرا من اليهود - على رأسهم حيى بن أخطب - خرجوا إلى مكة ، واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب المسلمين ، فأجابوهم إلى ذلك .

ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب المسلمين ، فاستجابوا لهم - أيضا - .

وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها ، والجميع فى جيش قريب من عشرة آلاف رجل .

وعندما علم الرسول - ﷺ - بمقدمهم ، أمر بحفر خندق حول المدينة .

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة ، فوجدوا الخندق قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها . كما أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد .

وخلال هذه الفترة العصيبة ، نقض يهود بنى قريظة عهودهم مع المسلمين ، وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين .

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر . ثم جاء نصر الله - تعالى - ، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده ، فتصدعت جبهات الأحزاب ، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ﴾[1] .

وقد ابتدأ الله - تعالى - الحديث عن هذه الغزوة ، بنداء وجهه إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، ﴿ اذكروا ﴾ على سبيل الشكر والاعتبار ﴿ نعمة الله عليكم ﴾ ورحمته بكم .

﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ كثيرة ، هى جنود جيوش الأحزاب ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ شديدة زلزلتهم ، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع .

كما أرسلنا عليهم ﴿ جنودا لم تروها ﴾ وهم الملائكة ، الذين ألقوا الرعب فى قلوب أعدائكم .

قالوا : روى أن الله - تعالى - بعث عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة ، فألقت التراب فى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٥ . والسيرة النبوية لابن اسحق جـ٢ صـ ٢٢٩ .

وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت نيرانهم وقذفت فى قلوبهم الرعب .. فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان : النجاء النجاء[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله - تعالى - عليهم .

أى : جاءتكم تلك الجنود الكثيرة . فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا عليهم من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا .

ثم فصل - سبحانه - ما حدث للمؤمنين فى هذه الغزوة ، بعد هذا الإجمال ، فقال : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق . والجملة بدل من قوله ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ . والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوازن .. وانضم إليهم بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم .

﴿ ومن أسفل منكم ﴾ أى : ومن أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش ومعهم أحابيشهم وحلفاؤهم .

وقوله : ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ معطوف على ما قبله ، داخل معه فى حيز التذكير .

أى : واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شىء حولها ، وصارت لا تنظر إلا إلى أولئك الأعداء . يقال : زاغ البصر يزيغ زيغا وزيغانا إذا مال وانحرف . ويقال - أيضا : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول .

وقوله ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم .

والحناجر : جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقوم ، والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديدا ، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم .

فالآية تصور ما أصاب المسلمين من فزع وكرب فى غزوة الأحزاب ، تصويرا بديعا مؤثرا ، يرسم حركات القلوب ، وملامح الوجوه ، وخلجات النفوس .

وقوله - سبحانه - ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ بيان لما دار فى عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٥٦ .

والظنون جمع الظن . وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه . وجاء بصيغة الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه .

أى : وتظنون - أيها المؤمنون - بالله - تعالى - الظنون المختلفة ، فمنكم من ازداد يقينا على يقينه ، وازداد ثقة بوعد الله - تعالى - وبنصره ، ومنكم من كان أقل من ذلك فى ثباته ويقينه ، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والاسلام ، ويخفى الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئة ، بأن اعتقدوا بأن الدائرة ستدور عليكم :

قال ابن كثير : قوله ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ قال الحسن : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه - سبحانه - سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ فقال - ﷺ - : نعم . قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

قال : فضرب الله - تعالى - وجوه أعدائه بالريح فهزمهم[1] .

ولفظ ﴿ هنالك ﴾ فى قوله - تعالى - : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون ﴾ : ظرف مكان للبعيد ، وهو منصوب بقوله ﴿ ابتلى ﴾ والابتلاء : الاختبار والامتحان بالشدائد والمصائب .

أى : فى ذلك المكان الذى أحاط به الأحزاب من كل جانب ، امتحن الله - تعالى - المؤمنين واختبرهم ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ أى : واضطربوا اضطرابا شديدا ، من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم .

ولقد بلغ انشغال المسلمين بعدوهم انشغالا عظيما ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا بعض الصلوات فى أوقاتها ، وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، ما صلينا ، فقال لهم - ﷺ - : « ولا أنا ، والله ما صليت ثم قال : شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا » .

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا - دون أن تعرف إحداهما الأخرى - فتقاتلا . وحدث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين ، حتى تنادوا بشعار الإسلام : « حم . لا ينصرون » ، فكف بعضهم عن بعض .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣٨٩ .

فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - قال لهم : « جراحكم فى سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » .

ومما زاد فى بلاء المسلمين وحزنهم . ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين . حكاها - سبحانه - فى قوله : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ أى : واذكروا - أيضا - أيها المؤمنون - وقت أن كشف المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأنتم فى أشد ساعات الحرج والضيق : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ بالنصر والظفر ﴿ إلا غرورا ﴾ أى : إلا وعدا باطلا ، لا يطابق الواقع الذى نعيش فيه .

وقال أحدهم : إن محمدا كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط .

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا .. ﴾ .

أى : واذكروا - كذلك - أيها المؤمنون - وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ﴿ يا أهل يثرب ﴾ أى : يا أهل المدينة ، لا مقام لكم فى هذا المكان الذى تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدينتكم ، فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .

قال الشوكانى : وذلك أن المسلمين خرجوا فى غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال هؤلاء المنافقون : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الذميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

أى : أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه فى الجهاد ، ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبى - صلى الله عليهم - فيستأذنه فى الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يارسول الله : ﴿ إن بيوتنا عورة ﴾ أى : خالية ممن يحرسها . يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها .

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم فى دعواهم فيقول ﴿ وما هى بعورة ﴾ أى :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٦ ص ٢٦٦ .

والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله - ﷺ - ليقول له : إن بيوتنا عورة ، وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كى نرجع إلى دورنا ، فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم - ﷺ - .

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك .. فردهم .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض ، فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم ، فقال - تعالى - : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ دخلت ﴾ للبيوت أو للمدينة . وفاعل الدخول من يدخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد . وأسند - سبحانه - الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها .

والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .

والمراد بالفتنة هنا ، الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .

وقوله ﴿ لآتوها ﴾ قرأه الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع وابن كثير ﴿ لأتوها ﴾ بالقصر ، بمعنى لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر .

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون فى زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير .

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التى يزعمون أنها عورة ، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها ، ثم طلب منهم أن ينضم إليهم فى مقاتلة المسلمين ، لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة ، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة ، يعدون العدة خلالها لقتالكم - أيها المسلمون - ، وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم . لأن عقيدتهم واهنة ، ونفوسهم مريضة خائرة .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ ولو دخلت عليهم ﴾ أى : المدينة . وقيل : بيوتهم . من قولك : دخلت على فلان داره ﴿ من أقطارها ﴾ أى . من جوانبها . يريد : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة - التى يفرون منها - مدينتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم

وأولادهم ناهبين سابين ، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ، ﴿ الفتنة ﴾ أى : الردة والرجعة إلى الكفر ، ومقاتلة المسلمين ، لأتوها ، أى : لجاءوها ولفعلوها . وقرئ . لأتوها ، أى لأعطوها ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف . أو مالبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا ، فإن الله يهلكهم[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن من الصفات اللازمة للمنافقين ، نقضهم لعهودهم فقال - تعالى - : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ﴾ .

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب ، أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يساكنونكم فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .

﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ أى : مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله - تعالى - على الوفاء ، وسيجازى - سبحانه - كل ناقض لعهده ، بما يستحقه من عقاب .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم ، وعلى جبنهم وخورهم ، وعلى سلاطة ألسنتهم .. فقال - تعالى - :

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٨ .

﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنافقين : ﴿ لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ ، لأن كل إنسان لابد له من نهاية تنتهى عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل بالسيف ، أم عن طريق الموت على الفراش .

وما دام الأمر كذلك ، فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

وقوله : ﴿ إن فررتم .. ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما سبق عليه . أى : إن فررتم لن ينفعكم فراركم .

وقوله : ﴿ وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ تذييل قصد به زجرهم عن الجبن الذى استولى عليهم .

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض - لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم منه ، فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ، إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك أن يدفع ما يريده الله -

تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ، ومن موت أو حياة .

إن أحداً لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم . فالاستفهام للإنكار والنفى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة ، ولا عصمة إلا من السوء ؟

قلت : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قول : « متقلدا سيفا ورمحا » - أى : « متقلدا سيفا وحاملا رمحا »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ معطوف على ما قبله . أى : لا يجدون من يعصمهم مما يريده الله - تعالى - بهم ، ولا يجدون من دونه - سبحانه - وليا ينفعهم ، أو نصيرا ينصرهم ، إذ هو وحده - سبحانه - الناصر والمغيث والمجير .

قال - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم لن يفلتوا من عقابه ، فقال : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية فى عبد الله بن أبى وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة . كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك أجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم فى العسكر ، أن ائتونا فإنا ننتظركم .

وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا أَكْلَةُ رأس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم[2] .

و « قد » للتحقيق ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء . و « المعوقين » من العَوْق وهو المنع والصرف ، يقال : عاق فلان فلانا ، إذا صرفه عن الجهة التى يريدها .

و « من » فى قوله ﴿ منكم ﴾ للبيان . والمراد بالأخوة : التطابق والتشابه فى الصفات الذميمة ، والاتجاهات القبيحة . التى على رأسها كراهيتهم للنبى - ﷺ - ولأصحابه .

و « هلم » اسم فعل أمر بمعنى أقبل .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٢٩ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦٣ .

والمعنى: إن الله - تعالى - لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين. الذين يخذلون ويثبطون ويصرفون إخوانهم فى النفاق والشقاق، عن الاشتراك مع المؤمنين، فى حرب جيوش الأحزاب، ويقولون لهم: ﴿ هلم إلينا ﴾ أى: أقبلوا نحونا، وتعالوا إلى جوارنا، ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين.

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ ذم لهم على جبنهم وخورهم.

أى: أن من صفاتهم الأصيلة أنهم جبناء، ولا يقبلون على الحرب والقتال، إلا إقبالا قليلا. فهم تارة يخرجون مع المؤمنين، لإيهامهم أنهم معهم، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع فى غنيمة.

ثم أخذت السورة الكريمة فى تصوير ما جبلوا عليه من سوء تصويرا معجزا، فقال - تعالى - ﴿ أشحة عليكم ﴾، جمع شحيح من الشح وهو البخل فى أقبح صوره. ولفظ ﴿ أشحة ﴾ منصوب على الحال من الضمير فى قوله: ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾.

أى: أن من صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم - أيها المؤمنون - فهم لا يعاونونكم فى حفر الخندق، ولا فى الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا فى أى شىء فيه منفعة لكم.

﴿ فإذا جاء الخوف ﴾، أى فإذا اقترب الوقت الذى يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم. ﴿ رأيتهم ﴾ أيها الرسول الكريم - ﴿ ينظرون إليك ﴾ بجبن وهلع ﴿ تدور أعينهم ﴾ فى مآقيهم يمينا وشمالا.

وحالهم كحال الذى ﴿ يغشى عليه من الموت ﴾ أى: كحال الذى أحاط به الموت من كل جانب، فصار فى أقصى دركات الوهن والخوف والفزع.

هذه هى حالهم عندما يتوقعون الشدائد والمخاوف، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف، فهى كما قال - تعالى - ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾.

وقوله ﴿ سلقوكم ﴾ من السَّلْق. وأصله بسط العضو ومده للأذى، سواء أكان هذا العضو يدا أو لسانا. والمراد به الإيذاء بالكلام السيئ القبيح.

أى: أنهم عند الشدائد جبناء بخلاء، فإذا ما ذهب الخوف وحل الأمان، سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء، ورموكم بألسنة ماضية حادة، تؤثر تأثير الحديد فى الشىء، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم، صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت.

ثم هم بعد كل ذلك ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئا منها فى وجه من وجوه الخير والبر .

قال ابن كثير قوله ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :

أفى السلم أعْيَاراً جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى : هم فى حال المسالمة كأنهم الحمير الأعيار . والأعيار جمع عير وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض[1] .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

أى : أولئك المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة ﴿ لم يؤمنوا ﴾ بما يجب الإيمان به إيمانا صادقا ، بل قالوا بألسنتهم قولا تكذبه قلوبهم وأفعالهم ﴿ فأحبط الله أعمالهم ﴾ بأن أبطلها وجعلها هباء منثورا ، وكان ذلك الإحباط على الله - سبحانه - هينا يسيرا .

وخص - سبحانه - يُسْرَ إحباط عملهم بالذكر مع أن كل شىء يسير عليه - تعالى - لبيان أن أعمالهم جديرة بالإحباط والإفساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة .

قال صاحب الكشاف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الإحباط ؟

قلت : لا ، لكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ، وان ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل ، وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الايمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا[2] .

ثم ختم - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن فقال : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ .

أى : أن هؤلاء المنافين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد رحيل الأحزاب عن المدينة ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٠ .

ما زالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله – تعالى – قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيرا .

وفى هذه الجملة ما فيها من التهكم بالمنافقين ، حيث وصفتهم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا فى جبنهم يعيشون .

ثم بين – سبحانه – حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : ﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ .

أى : إلى المدينة مرة ثانية .

﴿ يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادى من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال .

فقوله : ﴿ بادون ﴾ جمع باد وهو ساكن البادية . يقال : بدا القوم بَدًا ، إذا نزحوا من المدن إلى البوادى .

والأعراب : جمع أعرابى وهو من يسكن البادية .

ثم بين – سبحانه – تلهفهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال : ﴿ يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها عن أخباركم – أيها المؤمنون – حتى لكأنهم غير ساكنين فيها .

ولو كانوا فيكم عندما يعود الكافرون إلى المدينة – على سبيل الفرض – ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا ينكشف أمرهم انكشافا تاما . فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت فى شرح الأحوال القبيحة التى كان عليها المنافقون عندما هاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذرهم المؤمنون .

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار ، ساقت السورة بعد ذلك صورة مشرقة مضيئة للمؤمنين الصادقين ، الذين عندما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ والذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلا .

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين فى غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانبا من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول - سبحانه - :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ أى : كان لكم قدوة فى النبى - ﷺ - حيث بذل نفسه لنصرة دين الله ، فى خروجه إلى الخندق .

والأسوة : القدوة . وقرأ عاصم ﴿ أُسوة ﴾ بضم الهمزة . والباقون بكسرها . والجمع أُسىً وإسًى - بضم الهمزة وكسرها[1] .

يقال : فلان ائتسى بفلان ، إذا اقتدى به ، وسار على نهجه وطريقته .

وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله - ﷺ - فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى - ﷺ - يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - تعالى - ..[2] .

والذى يقرأ السيرة النبوية الشريفة . يرى أن النبى - ﷺ - كان فى هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة القدوة الحسنة الطيبة فى كل أقواله وأفعاله وأحواله - ﷺ - .

لقد شارك أصحابه فى حفر الخندق ، وفى الضرب بالفأس . وفى حمل التراب بل وشاركهم فى أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب .

وشاركهم فى تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر .. بل كان - ﷺ - هو القائد الحازم الرحيم ، الذى يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق .

قال ابن إسحاق ما ملخصه : وعمل المسلمون فيه - أى فى الخندق - حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جُعَيلٌ » سماه رسول الله - ﷺ - عَمْراً ، فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا بعمرو ، قال رسول الله - ﷺ - « عمرا » وإذا مروا بظهر قال : « ظهرا » .

ثم قال ابن إسحاق : وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها تحقيق نبوته - ﷺ - فكان فيما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم فى بعض الخندق كُدْيَةٌ - أى صخرة عظيمة - ، فشكوا ذلك إلى رسول الله - ﷺ - فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٥٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٢ .

حضرها : فوالذى بعثه بالحق نبيا لانهالت - أى : لتفتت - حتى عادت كالكثيب - أى كالرمل المتجمع - لا ترد فأسا ولامسحاة[1] .

وهذه الآية الكريمة وإن كان نزولها فى غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول - ﷺ - فى جميع أقواله وأفعاله ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

والجار والمجرور فى قوله - سبحانه - : ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿ حسنة ﴾ ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو ﴿ حسنة ﴾ .

والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين وفوا بعهودهم .

أى : لقد كان لكم - أيها الناس - قدوة حسنة فى نبيكم - ﷺ - ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان . الذين يرجون ثواب الله - تعالى - ، ويؤملون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المنتفعون بالتأسى برسولهم - ﷺ - وقوله : ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ معطوف على ﴿ كان ﴾ ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول - ﷺ - ثابتة لمن كان يرجو الله واليوم والآخر ، ولمن ذكر الله - تعالى - ذكرا كثيرا ، لأن الملازمة لذكر الله - تعالى - توصل إلى طاعته والخوف منه - سبحانه - .

وجمع - سبحانه - بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسى التام بالرسول - ﷺ - لا يتحقق إلا بهما .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - على سبيل التشريف والتكريم - ما قاله المؤمنون الصادقون عندما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال - تعالى - : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ هذا ﴾ يعود إلى ما رأوه من الجيوش التى جاء بها المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك .

أى : وحين رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت نحو المدينة ، لم يهنوا ولم يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا ﴿ هذا ﴾ الذى نراه من خطر داهم ، هو ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه النصر ، وهذا الضيق سيعقبه الفرج ، وهذا العسر سيأتى بعده اليسر .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٢٢٩ وما بعدها .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأرادوا بقولهم ذلك ، ما تضمنه قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول - كما جاء عن ابن عباس .

وفى رواية عن ابن عباس - أيضا - أن الرسول - ﷺ - قال لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا ، أى : فى آخر تسع ليال أو عشر ، أى : من وقت الاخبار ، أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا فى الموعد الذى حدده - ﷺ - قالوا ذلك[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ داخل فى حيز ما قالوه .

أى : قالوا عندما شاهدوا جيوش الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وقالوا - أيضا - على سبيل التأكيد وقوة اليقين والتعظيم لذات الله ، ولشخصية رسوله : وصدق الله ورسوله ، أى : وثبت صدق الله - تعالى - فى أخباره ، وصدق رسوله - ﷺ - فى أقواله .

والضمير فى قوله : ﴿ ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ يعود إلى ما رأوه من جيوش الأحزاب ، ومن شدائد نزلت بهم بسبب ذلك .

أى - وما زادهم ما شاهدوه من جيوش الأحزاب ، ومن بلاء أحاط بهم بسبب ذلك ، إلا إيمانا بقدرة الله - تعالى - وتسليما لقضائه وقدره ، وأملا فى نصره وتأييده .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا المديح لهم ، مديحا آخر فقال : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ والنحب : النذر ، وهو أن يلتزم الانسان الوفاء بأمر تعهد به .

وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكمل وجه .

وكان رجال من الصحابة قد نذروا ، أنهم إذا صاحبوا رسول الله - ﷺ - فى حرب ، أن يثبتوا معه ، وأن لا يفروا عنه .

والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله - تعالى - عليه ، من التأييد لرسوله - ﷺ - ومن الثبات معه فى كل موطن .

﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أى : فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيدا -

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦٩ .

كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين - .

﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة فى سبيل الله - تعالى - فى الوقت الذى يريده - سبحانه - ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم ما زالو على قيد الحياة .

قال الامام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عمى أنس بن النضر - سُمِّيتُ به - لم يشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله - ﷺ - لَيرينَّ الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد .

فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين واهًا[1] لريح الجنة أجده دون أحد .

قال : فقاتلهم حتى قتل : قال : فوُجِدَ فى جسده بضْعُ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته - عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر - فما عرفت أخى إلا ببنانه .

قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال ﴾ فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه - رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ معطوف على ﴿ صدقوا ﴾ أى : هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما فى عهودهم مع الله - تعالى - حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله - تعالى - عليه .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا الابتلاء والاختيار فقال : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ .

أى : فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزى الصادقين فى إيمانهم الجزاء الحسن الذى يستحقونه بسبب صدقهم ووفائهم .

﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موتهم على نفاقهم .

﴿ أو يتوب عليهم ﴾ من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم .

---

(١) واها : كلمة تحنن وتلهف قالها أنس لسعد - رضى الله عنهما .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٥ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ جوابه محذوف ، وكذلك مفعول ﴿ شاء ﴾ محذوف - أيضا - أى : إن شاء تعذيبهم عذبهم .

والمراد بتعذيبهم إماتتهم على النفاق ، بدليل العطف فى قوله ﴿ أو يتوب عليهم ﴾[1] .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ كان ﴾ ومازال ﴿ غفورا رحيما ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

ثم بين - سبحانه - المصير السيىء الذى انتهى إليه الكافرون فقال : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴾ .

أى : ورد الله - تعالى - بفضله وقدرته الذين كفروا عنكم - أيها المؤمنون - حالة كونهم متلبسين بغيظهم وحقدهم . دون أن ينالوا أى خير من إتيانهم إليكم ، بل رجعوا خائبين خاسرين .

فقوله ﴿ بغيظهم ﴾ حال من الموصول ، والباء للملابسة ، وجملة ﴿ لم ينالوا خيرا ﴾ حال ثانية من الموصول أيضا .

وقوله : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بيان للمنة العظمى التى امتن بها - سبحانه - عليهم .

أى : وأغنى الله - تعالى - بفضله وإحسانه المؤمنين عن متاعب القتال وأهواله بأن أرسل على جنود الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ﴿ قويا ﴾ على إحداث كل أمر يريده ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا على كل شىء .

قال ابن كثير : وفى قوله ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش . وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله - ﷺ - فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين ، وكان - ﷺ هو الذى يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول يوم

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٣١ .

الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب ، ببيان ما حل ببنى قريظة من عذاب مهين ، بسبب نقضهم لعهودهم فقال : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ﴾ .

والصياصى : جمع صيصية وهى كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها . ومنه قيل لقرن الثور صيصية لأنه يدفع به عن نفسه .

أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم ، وهم يهود بنى قريظة ، أنزلهم من حصونهم ، ومكنكم من رقابهم .

﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ الشديد منكم ، بحيث صاروا مستسلمين لكم ، ونازلين على حكمكم .

﴿ فريقا ﴾ منهم ﴿ تقتلون ﴾ وهم الرجال . وتأسرون فريقا آخروهم الذرية والنساء .

﴿ وأورثكم أرضهم ﴾ أى : وأورثكم الله - تعالى - أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ﴿ ديارهم ﴾ أى حصونهم ﴿ وأموالهم ﴾ التى تركوها من خلفهم ، كنقودهم ومواشيهم .

كما أورثكم ﴿ أرضا لم تطؤوها ﴾ بعد يقصد القتال وهى أرض خيبر ، أو أرض فارس والروم .

وفى هذه الجملة الكريمة ﴿ وأرضا لم تطؤوها ﴾ بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأن الله - تعالى - سينصرهم على أعدائهم .

﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء .

أخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « لما رجع النبى - ﷺ - من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : يا محمد قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فاخرج إليهم فقال النبى - ﷺ - : فإلى أين ؟ قال : هاهنا . وأشار إلى بنى قريظة . فخرج النبى - ﷺ - إليهم » .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب ، لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٦ .

بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، فذكر ذلك للنبى - ﷺ - فلم يعنف أحدا[١] .

وبعد أن حاصر المسلمون بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم .

وقال الرسول - ﷺ - له : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات »[٢] .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثا جامعا حكيما عن غزوة الأحزاب ، فقد ذكرت المؤمنين - أولا - بنعم الله - تعالى - عليهم ، ثم صورت أحوالهم عندما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم .

ثم حكت ما قاله المنافقون فى تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم فى النفاق ، وما اعتذروا به من أعذار باطلة ، وما جبلوا عليه من أخلاق قبيحة ، على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية .

ثم انتقلت إلى الحديث عن المواقف المشرقة الكريمة التى وقفها المؤمنون الصادقون عندما رأوا الأحزاب ، وكيف أنهم ازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله - تعالى - دون أن يبدلوا تبديلا .

وكما بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم ، ختمت - أيضا - بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون أن ينالوا خيرا ، ومكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود .

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى - بعد هذا الحديث عن غزوة الخندق - إلى بيان التوجيهات الحكيمة التى وجهها الله - تعالى - إلى نبيه - ﷺ - وإلى أزواجه ، فقال - سبحانه - :

---

(١) صحيح البخارى : باب مرجع النبى - ﷺ - من الأحزاب جـ ٥ ص ١٤٢ .
(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٧ والآلوسى جـ ٢١ ص ١٧٦ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

ففى هاتين الآيتين يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد فى زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى - ﷺ - وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا من عرض الدنيا . وقيل : سألنه زيادة فى النفقة .

روى البخارى ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ - فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى - ﷺ - جالسا حوله نساؤه .

قال : فقال عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة - زوجة عمر - سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها : فضحك رسول الله - ﷺ - وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » .

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله - ﷺ - ماليس عنده .

فقلن : والله لا نسأل رسول الله - ﷺ - شيئا أبدا ليس عنده .

ثم نزلت هاتان الآيتان . فبدأ - ﷺ - بعائشة فقال لها : « يا عائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك » .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها هاتين الآيتين . فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى !! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفعل أزواج النبى - ﷺ - مثل ما فعلت عائشة[1] .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة .

وأربع من غير قريش - وهن : صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المُصْطَلَقِيَّة - رضى الله عنهن .

وقال الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، مدحهن الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .. ﴾ فقصره الله - تعالى - عليهن ، وهن التسع اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة »[2] .

والمعنى : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك ﴾ اللائى فى عصمتك ﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

أى : إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد فى زينتها .

إن كنتن تردن ذلك : ﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ فتعالين ﴾ فعل أمر مبنى على السكون ، ونون النسوة فاعل . وأصل هذا الأمر أن يكون الآمر أعلى مكانا من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه ، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل . وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة . والعلاقة هى أن المخبر يدنو إلى من يخبره[3] .

وقوله : ﴿ أمتعكن ﴾ مجزوم فى جواب الأمر . والمتعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها - سبحانه - حقا على المحسنين الذين يبغون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه .

وقوله ﴿ وأسرحكن ﴾ معطوف على ما قبله ، والتسريح : إرسال الشىء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض . ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٦٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٨١ .

(٣) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٣٣ .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على المعيشة معى ، فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه ، لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقكن .

﴿ وإن كنتن ﴾ لا تردن ذلك ، وإنما ﴿ تردن الله ورسوله والدار الآخرة ﴾ .

أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله - ﷺ - ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن ﴿ الله ﴾ - تعالى - ﴿ أعد للمحسنات منكن ﴾ ، بسبب إيمانهن وإحسانهن ﴿ أجرا عظيما ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى مافيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار .

ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن فى بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله - ﷺ - فقال - تعالى - :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين .. ﴾ نداء من الله تعالى - لهن ، على سبيل الوعظ والارشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : يانساء النبى - ﷺ - من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله - تعالى - لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما .

قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة .. وليس لأحد من النساء ، مثل فضل نساء النبى - ﷺ - ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة .. ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم : أشد منه للعاصى الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح[1] .

وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهما - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه - ﷺ - من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من يأت منكن بفاحشة .. ﴾ جملة شرطية . والجملة الشرطية لا تقتضى وقوع الشرط ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك .. ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن - لا تمنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : ﴿ وكان ذلك على

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٦ .

الله يسيرا ﴾ أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء .

هذا هو الجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما فى حالة طاعتهن ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - ، والخضوع والخشوع لذاته .

أى : ومن يقنت منكن - يا نساء النبى - لله - تعالى - ، ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله - ﷺ - ، وتعمل عملا صالحا .

من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ﴿ وأعتدنا لها ﴾ أى : وهيأنا لها زيادة على ذلك ﴿ رزقا كريما ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين ، فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرهما ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهما - أيضا - وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله - ﷺ - مالا يشاهده غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

ثم وجه - سبحانه - إليهن نداء ثانيا فقال : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن ﴾ .

أى : يا نساء النبى ، لقد أعطاكن الله - تعالى - من الفضل ومن سمو المنزلة مالم يعط غيركن ، فأنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله - تعالى - وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .

قال صاحب الكشاف : أحد فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ : لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء . أى : إذا استقصيت أمة النساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة[1] .

وجواب الشرط فى قوله ﴿ إن اتقيتن ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إن اتقيتن ﴾ شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء ، وجوابه

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٦ .

محذوف دل عليه المذكور .. والمفعول محذوف . أى : إن اتقيتن مخالفة حكم الله - تعالى - ورضا رسوله - ﷺ - والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك . والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من التقوى[1] .

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شىء آخر .

ثم نهاهن - سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال : ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز ، تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها .

ثم أرشدهن - سبحانه - إلى القول الذى يرضيه فقال : ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطقن به بطريقة طبيعية ، بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ﴿ وقرن ﴾ قرأه الجمهور - بكسر القاف - من القرار تقول : قَرَرْتُ بالمكان - بفتح الراء - أقِر - بكسر القاف - إذا نزلت فيه - والأصل : اقررن - بكسر الراء - فحذفت الراء الأولى تخفيفا .. ونقلوا حركاتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف .. فصارت الكلمة ﴿ قِرن ﴾ - بكسر القاف - .

وقرأ عاصم ونافع ﴿ وقَرْن ﴾ - بفتح القاف - من قررت فى المكان - بكسر الراء - إذا أقمت فيه .. والأصل اقْرَرْن - بفتح الراء - فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٥ .

وألقيت حركتها على القاف .. فتقول : ﴿ قرن ﴾ - بالفتح للقاف -[1] .

والمعنى : الْزَمْنَ يا نساء النبى - ﷺ - بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور ، هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .

قال بعض العلماء : والحكمة فى هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التى هى من خصائصهن ، ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد فى عهد الطفولة وهى من شأنهن . وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجال أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها الرجال ، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام فى البيت والمعيشة[2] .

وقال صاحب الظلال ما ملخصه : والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله - تعالى - ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه السليم ، ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها .

فالأم المكدودة بالعمل وبمقتضياته وبمواعيده .. لا يمكن أن تهيىء للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهيىء للطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها .

إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال[3] .

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والآقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لا تقضى إلا بهن .. بشرط أن يكون خروجهن مصحوبا بالتستر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال - سبحانه - بعد هذا الأمر ، ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٧٨ .
(٢) صفوة البيان فى تفسير القرآن جـ ٢ ص ١٨٣ . لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٨٣ .

وقوله : ﴿ تبرجن ﴾ مأخوذ من البَرَج - بفتح الباء والراء - وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج .

وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر .

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها .

ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ، كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .

والمعنى : الزمن يا نساء النبى بيوتكن ، فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئا أمرها الله - تعالى - بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم اليهن .

ثم أتبع - سبحانه - هذا النهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن - عز وجل - فقال: ﴿ وأقمن الصلاة ﴾ أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص . ﴿ وآتين الزكاة ﴾ التى فرضها الله - تعالى - عليكن . وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى ؛ فى كل ما تأتين وتتركن ، لاسيما فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه .

وقوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شىء مستقذر . وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

وقوله ﴿ أهل البيت ﴾ منصوب على النداء ، أو على المدح . ويدخل فى أهل البيت هنا

دخولا أوليا : نساؤه - ﷺ - بقرينة سباق الآيات .

أى : إنما يريد الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبتلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .. ﴾ . هذا نص فى دخول أزواج النبى - ﷺ - فى أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ..

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده - عن أنس بن مالك قال : « إن رسول الله - ﷺ - كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية .. »[1] .

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت ..

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله - تعالى - فى زوجة إبراهيم : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ .

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبى - ﷺ - أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم - : « إنهم أهل البيت » ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا .

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى - ﷺ - ولعلى وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير فى قوله : ﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ وفى قوله : ﴿ ويطهركم تطهيرا ﴾ ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبى - ﷺ - لقيل ليذهب عنكن ويطهركن ؟ .

فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها ..

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث فى هذا المعنى .

وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ وقوله ﴿ سآتيكم ﴾ والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد ..

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة .. ﴾ .

أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذَكِّرْن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى - ﷺ - ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ ..

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى - ﷺ - وأفعاله وتقريراته ..

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهن - وقد خصهن الله - تعالى - بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن .

﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة لأمهات المؤمنين ، ساق - سبحانه - توجيها جامعا لأمهات الفضائل ، وبشر المتصفين بهذه الفضائل بالمغفرة والأجر العظيم فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

---

(١) أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٧٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - .

ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قلت للنبى - ﷺ - : مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه - ﷺ - ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ... ﴾ .

وأخرج الترمذى وغيره عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى - ﷺ - فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشىء ، فنزلت هذه الآية .

وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبى - ﷺ - فقلن : قد ذكركن الله - تعالى - فى القرآن ، وما يذكرنا بشىء أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية[1] .

والمعنى : ﴿إن المسلمين والمسلمات ﴾ والإسلام : الانقياد لأمر الله - تعالى - وإسلام الوجه له - سبحانه - وتفويض الأمر إليه وحده .

﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾ والإيمان : هو التصديق القلبى ، والإذعان الباطنى ، لما جاء به النبى - ﷺ - .

﴿والقانتين والقانتات ﴾ والقنوت : هوالمواظبة على فعل الطاعات عن رضا واختيار .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ والصدق : هو النطق بما يطابق الواقع ، والبعد عن الكذب والقول الباطل ..

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ والصبر : هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ والخشوع : صفة تجعل القلب والجوارح فى حالة انقياد تام لله - تعالى - ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته .

﴿والمتصدقين والمتصدقات ﴾ والتصدق : تقديم الخير إلى الغير بإخلاص ، دفعا لحاجته ، وعملا على عونه ومساعدته .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ والصوم : هو تقرب إلى الله - تعالى - ، واستعلاء على مطالب الحياة ولذائذها ، من أجل التقرب إليه - سبحانه - بما يرضيه .

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ وحفظ الفرج : كناية عن التعفف والتطهر والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله الله - تعالى - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢١ .

﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ وذكر الله - تعالى - يتمثل فى النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه - عز وجل - وتحميده وتكبيره ..

وفى شعور النفس فى كل لحظة بمراقبته - سبحانه - .

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء ﴿ أعد الله ﴾ - تعالى - ﴿ لهم مغفرة ﴾ واسعة لذنوبهم ﴿ وأجرا عظيما ﴾ لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل - .

وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة ، التى من شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصفا بها ، أن يسعدا فى دنياهما وفى أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذى يعيشان فيه ...

إنها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبغيره ، تنظيما حكيما ، يهدى الى الرشد ، ويوصل إلى الظفر والنجاح .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه - عز وجل - ونحو رسوله - ﷺ - ، وعن تأكيد إبطال عادة التبنى التى كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة لهذا الإبطال ، وعن علاقة الرسول - ﷺ - بغيره من أتباعه .. فقال - تعالى - :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى

الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ روايات منها : أنها نزلت فى زينب بنت جحش - رضى الله عنها - خطبها رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة فاستنكفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

وفى رواية أنها قالت : يارسول الله ، لست بناكحته ، فقال رسول الله - ﷺ - « بل فانكحيه » فقالت : يارسول الله ، أؤامر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله - تعالى - هذه الآية . فقالت : يارسول الله ، قد رضيته لى زوجا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد زوجته نفسى .

وذكر بعضهم أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء .. يعنى بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبى - ﷺ - ، فزوجها من مولاه زيد بن حارثة ، بعد فراقه لزينب فسخطت هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله - ﷺ - فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد[1] .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال - تعالى - : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

والمعنى : لا يصح ولا يحل لأى مؤمن ولا لأية مؤمنة ﴿ إذا قضى الله ورسوله ﴾ أى : إذا أراد الله ورسوله أمرا ، من الأمور .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٨٦ . وتفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤١٧ .

وقال - سبحانه - : ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمرا ﴾ للاشعار ، بأن ما يفعله الرسول - ﷺ - إنما يفعله بأمر الله - تعالى - لأنه - ﷺ - لا ينطق عن الهوى .

وقوله : ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ أى : لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمرا ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره - ﷺ - وأن يجعلوا رأيهم تابعا لرأيه فى كل شىء .

وكلمة الخِيَرَة : مصدر من تخيَّر ، كالطِّيَرَة مصدر من تَطَيَّر . وقوله : ﴿ من أمرهم ﴾ متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالا منها .

وجاء الضمير فى قوله ﴿ لهم ﴾ وفى قوله ﴿ من أمرهم ﴾ بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظى مؤمن ومؤمنة وقعا فى سياق النفى ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله .

أى : ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور ، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالا واضحا بينا .

ثم ذكر - سبحانه - قصة زواج النبى - ﷺ - من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية فقال - تعالى - : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه .. ﴾ أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت للذى أنعم الله - تعالى - عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة - رضى الله عنه - .

وأنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام ..

﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على ما بدر منها فى حقك ..

وكان زيد - رضى الله عنه - قد اشتكى للنبى - ﷺ - من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يارسول الله ، إنى أريد أن أطلقها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ معطوف على ﴿ تقول ﴾ . أى : تقول له ذلك وتخفى فى نفسك الشىء الذى أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله - عز وجل - .

قال الآلوسى : والمراد بالموصول ﴿ ما ﴾ على ما أخرج الحكيم الترمذى و غيره عن على

ابن الحسين ما أوحى الله - تعالى - به إليه من أن زينب سيطلقها زيد . ويتزوجها هو - ﷺ - .

وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهرى ، وبكر بن العلاء ، والقشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ جملة : الله مبديه صلة الموصول الذى هو ﴿ ما ﴾ . وما أبداه - سبحانه - هو زواجه - ﷺ - بزينب ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه - ﷺ - .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - ﷺ - وأبداه الله - تعالى - ، هو وقوع زينب فى قلبه - ﷺ - ومحبته لها ، وهى زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحان مقلب القلوب .. إلى آخر ما قالوا ... كله لا صحة له ..[2] .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - هاهنا آثارا عن بعض السلف ، احببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها . فلا نوردها ..[3] .

هذا ، ولفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى فى معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه . وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها .

وما أبداه الله - تعالى - : هو علم الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها ..

فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجه زينب لوجود التنافر بينهما .. مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة ..

ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٤ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٠ .

قد أوحى إلى نبيه - ﷺ - أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه - ﷺ - سيتزوجها ، وكل ما ورد فى ذلك هى تلك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

قال صاحب الظلال : وهذا الذى أخفاه النبى - ﷺ - فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه . ولكنه - ﷺ - كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد ..[1] .

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدما تاما كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول له ماقلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه - ﷺ - بزينب فقال : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

والوطر : الحاجة . وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشىء ، يقال : قضى فلان وطره من هذا الشىء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى فى مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، ﴿ لكى لايكون على المؤمنين حرج ﴾ أو ضيق أو مشقة ﴿ فى أزواج أدعيائهم ﴾ أى : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم ﴿ إذا قضوا منهن وطرا ﴾

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٥٩٥ .

أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم تبنى هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله - ﷺ - أسوة حسنة .

﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى : وكان ما يريده الله - تعالى - حاصلا لا محالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها .. ﴾ أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله - عز وجل - . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولىّ ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر ..

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » فانطلق حتى آتاها وهى تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها . وجعلت أقول - وقد وليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى - يازينب . أبشرى . أرسلنى رسول الله - ﷺ - يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى - أى : أستشيره فى أمرى - ، فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله - ﷺ - فدخل عليها بغير إذن ...

وروى البخارى عن انس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى - ﷺ - فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ..[1] .

وقال الإمام الشوكانى : وقوله : ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم .. ﴾ .

أى : فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون .. وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة . والأدعياء : جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة . فأخبرهم الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها ..[2].

وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى - ﷺ - بالسيدة زينب بنت جحش ، التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة - الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزاله كل ما علق بالأذهان بشأنها ، فقال - تعالى - : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ... ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٠ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٨٥ .

أى : ما كان على النبى - ﷺ - من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبنى زيد بن حارثه فقوله : ﴿ فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى : قدر له هذا الشىء ، وجعله حلالا له .

وقوله - تعالى - : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ زيادة فى تأكيد هذه الحكمة ، وفى تقرير صحة ما فرضه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - .

أى : ما فعله الرسول - ﷺ - من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله - تعالى - سنة من سننه فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله - تعالى - قدرا مقدورا . أى : واقعا لا محالة .

والقدر : إيجاد الله - تعالى - للأشياء على قَدْرٍ مخصوص حسبما تقتضى حكمته .

ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه . وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر . والأظهر أن قدر الله - تعالى - هنا بمعنى قضائه .

ولفظ ﴿ مقدورا ﴾ وصف جىء به للتأكيد، كما فى قولهم : ظل ظليل، وليل أليل، ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ للذين يكلفهم - سبحانه - بتبليغها لهم . والموصول فى محل جر صفة للذين خلوا . أو منصوب على المدح .

﴿ ويخشونه ﴾ أى : ويخافونه وحده ﴿ ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ - عز وجل - فى كل مايأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون .

﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أى : وكفى بالله - تعالى - محاسبا لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم .

ثم حدد - سبحانه - وظيفة رسوله - ﷺ - وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال - تعالى - : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ أى : لم يكن محمد - ﷺ - أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقية ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة والزواج ... وزيد كذلك ليس ابنا له - ﷺ - فزواجه - ﷺ - بزينب التى طلقها زيد لاحرج فيه ، ولا شبهة فى صحته، وقوله : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ استدراك لبيان وظيفته وفضله .

أى : لم يكن - ﷺ - أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان - أيضا - خاتم النبيين ، بمعنى

أنهم ختموا به ، فلا نبى بعده ، فهو كالخاتَم والطابَع لهم . ختم الله - تعالى - به الرسل والأنبياء ، فلا رسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبى : قرأ الجمهور ﴿ وخاتم ﴾ - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم .

وقرأ عاصم ﴿ وخاتم ﴾ - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم .

وقيل : الخاتم والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان ، مثل طابع وطابع ..

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال - ﷺ - فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء »[1] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، و إكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم ..[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

أى : وكان - عز وجل - ومازال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ماأنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد - ﷺ - لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم - سبحانه - من فضله وإحسانه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٤ .

ثم جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره ، فأمرت المؤمنين بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتحميده وتكبيره ، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

والمقصود بذكر الله - تعالى - فى قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ ما يشمل التهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأقوال والأفعال التى ترضيه - عز وجل - .

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، اكثروا من التقرب إلى الله - تعالى - بما يرضيه ، فى كل أوقاتكم وأحوالكم ، فإن ذكر الله - تعالى - هو طب النفوس ودواؤها ، و هو عافية الأبدان وشفاؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور ..

والتعبير بقوله : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة .

ومن الأحاديث التى وردت فى الحض على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى الدرداء .. رضى الله عنه .. قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، و خير لكم من إعطاء الذهب والوَرِقِ - أى : الفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، و يضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يارسول الله ؟ قال : ذكر الله - عز وجل - ».

وعن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما : يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله ».

وقال الآخر : يارسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبث به . قال : « لايزال لسانك رطبا بذكر الله » .

وقال ابن عباس : لم يفرض الله - تعالى - فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله - تعالى - لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوبا على عقله، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال - تعالى - : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم .. ﴾ أى : بالليل وبالنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ..[1] .

وقوله : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ معطوف على ﴿ اذكروا ... ﴾ والتسبيح : التنزيه . مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء . فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء . والبكرة : أول النهار . والأصيل : آخره .

أى : اكثروا - أيها المؤمنون - من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، ونزهوه - سبحانه - عن كل ما لا يليق به ، فى أول النهار وفى آخره .

وتخصيص الأمر بالتسبيح فى هذين الوقتين ، لبيان فضلهما ، ولمزيد الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح فى غير هذين الوقتين له ثوابه العظيم عند الله - تعالى - .

- وأيضا - خص - سبحانه - التسبيح بالذكر مع دخوله فى عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه ..

قال صاحب الكشاف : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه - تعالى - من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لايجوز عليه من الصفات والأفعال ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته .. ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر بالإكثار من الذكر ومن التسبيح .

والصلاة من الله - تعالى - على عباده معناها : الرحمة بهم ، والثناء عليهم ، كما أن الصلاة من الملائكة على الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ .. قال ابن عباس : لما نزل : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى... ﴾ قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يارسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شىء ، فأنزل الله هذه الآية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٥ .

ثم قال القرطبى : قلت : وهذه نعمة من الله - تعالى - على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

والصلاة من الله على العبد هى رحمته له ، وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[١] .

وقوله : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يصلى ﴾ أى : يرحمكم - سبحانه - برحمته الواسعة ، ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكى يخرجكم بفضله ومنته ، من ظلمات الضلال والكفر إلى النور والهداية والإيمان .

﴿ وكان ﴾ - سبحانه - ومازال ﴿ بالمؤمنين رحيما ﴾ رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة .

أما رحمته لهم فى الدنيا فمن مظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم .

وأما رحمته - سبحانه - لهم فى الآخرة فمن مظاهرها : أنهم يأمنون من الفزع الأكبر .

وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، أن رسول الله - ﷺ - رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال: «أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا . قال : فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

ثم بين - عز وجل - ما أعده للمؤمنين فى الأخرة فقال : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ .

والتحية : أن يقول قائل للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حياة طيبة .

وهذه التحية للمؤمنين فى الآخرة ، تشمل تحية الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[٢] .

وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٣] .

كما تشمل تحية بعضهم لبعض كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٩٨ .
(٢) سورة يس . الآية ٨٥ .
(٣) سورة الرعد . الآية ٢٢ ، ٢٣ .
(٤) سورة يونس . الآية ١٠ .

أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله - تعالى فى الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل مايفزعهم أو يخيفهم أو يزعجهم ..

﴿ وأعد لهم ﴾ - سبحانه - يوم القيامة ﴿ أجرا كريما ﴾ هو الجنة التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى - ﷺ - حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

وقوله : ﴿ ومبشرا ﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : ﴿ ونذيرا ﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف لكى يجتنب ويحذر .

والمعنى : يأيها النبى الكريم ﴿ إنا أرسلناك ﴾ إلى الناس ﴿ شاهدا ﴾ أى : شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

﴿ ومبشرا ﴾ أى : ومبشرا المؤمنين منهم برضا الله - تعالى - .

﴿ ونذيرا ﴾ أى : ومنذرا للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذى جئتهم به من عند الخالق - عز وجل - .

وقدم - سبحانه - التبشير على الإنذار ، تكريما للمؤمنين المبشرين ، وإشعارا بأن الأصل فى رسالته - ﷺ - التبشير ، فقد أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وقوله : ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه ﴾ أى : وأرسلناك - أيضا - داعيا للناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه - سبحانه - وبأمره وبتيسيره .

فالتقييد بقوله ﴿ بإذنه ﴾ لبيان أنه - ﷺ - لم يدع الناس إلى ما دعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له - سبحانه - ، من تلقاء نفسه ، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله - تعالى - وإذنه ومشيئته ، وللإشارة إلى أن هذه الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله - تعالى - للنفوس بقبولها .

وقوله : ﴿ وسراجا منيرا ﴾ معطوف على ما قبله . والسراج : المصباح الذى يستضاء به فى الظلمات .

أى : وأرسلناك - أيها الرسول الكريم - بالدين الحق ، لتكون كالسراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، و يخرجون بسببه من الظلمات إلى النور .

ووصف السراج بالإنارة ، لأن من المصابيح ما لا يضىء إذا لم يوجد به ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه .

قال صاحب الكشاف : جلى الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضىء إذا قل سليطه - أى : زيته - ودقت فتيلته ..[١] .

وبعد أن وصف الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بهذه الصفات الكريمة ، اتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنهيه عن طاعة الكافرين ، فقال - تعالى - : ﴿ وبشر المؤمنين ... ﴾ أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك . وبشر المؤمنين منهم ﴿ بأن لهم من الله ﴾ - تعالى - ﴿ فضلا كبيرا ﴾ أى : عطاء كبيرا ، وأجرا عظيما ، ومنزلة سامية بين الأمم .

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ فيما يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، أو من عدم بيان ما هم عليه من باطل وجهل ، بل اثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض فى تبليغ دعوتك دون أن تخشى أحدا إلا الله - تعالى - .

﴿ ودع أذاهم ﴾ أى : ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى ، بسبب دعوتك إياهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصيبك منهم حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل بينك وبينهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٧ .

﴿ وتوكل على الله ﴾ فى كل أمورك ﴿ وكفى بالله ﴾ - تعالى - ﴿ وكيلا ﴾ توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون ..

هذا ، ومن الأحاديث النبوية التى اشتملت على بعض المعانى التى اشتملت عليها هذه الآيات ، ما رواه الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله - ﷺ - فى التوراة ؟ قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ وحرزا للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله - تعالى - حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا[1] .

ثم عادت السورة الكريمة - بعد هذا الحديث الجامع عن وظيفة الرسول - ﷺ - وعن فضله - إلى الحديث عن جانب من أحكام الزواج والطلاق ، فقال - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾

والمراد بالنكاح هنا فى قوله ﴿ إذا نكحتم ﴾ العقد ، لأن الحديث فى حكم المرأة التى تم طلاقها قبل الدخول بها .

وهذا الحكم شامل للمؤمنات ولغيرهن كالكتابيات ، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر ، للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة .

والعدة : هى الشىء المعدود . وعدة المرأة معناها : المدة التى با نقضائها يحل لها الزواج من شخص آخر ، غير الذى كان زوجا لها .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ﴾ أى : إذا عقدتم عليهن عقد النكاح ، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٤٧ .

﴿ ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ أى : ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن .

قال الآلوسى : وفائدة المجىء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ، إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق ، له دخل فى إيجاب العدة ، لاحتمال الملاقاة والجماع سرا ..[١] .

أى : أن الحكم الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، ثابت سواء تم الطلاق بعد عقد الزواج مباشرة ، أم بعده بمدة طويلة .

وفى التعبير عن الجماع بالمس كناية لطيفة . من شأنها أن تربى فى الإنسان حسن الأدب ، وسلامة التعبير ، وتجنب النطق بالألفاظ التى تخدش الحياء .

وقوله : ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ جواب إذا ، وبيان للحكم المترتب على طلاق المرأة قبل الدخول بها .

أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فلا عدة عليهن ، بل من حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون التقيد بأية مدة من الزمان .

قال الجمل : وقوله : ﴿ تعتدونها ﴾ صفة لعدة . وتعتدونها تفتعلونها ، إما عن العد ، وإما عن الاعتداد ، أى : تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك : عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى : فاستوفى عددها ..[٢] .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن المطلقة قبل الدخول بها لاعدة عليها إطلاقا بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول بها فعليها العدة إجماعا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه ، بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها .

وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك . ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبرا لخاطرها ، وتعويضا لها عما نالها بسبب هذا الفراق .

وأصل التسريح : أن ترعى الإبل السرح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم أطلق على كل إرسال فى الرعى ، ثم على كل إرسال وإخراج .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٤٨ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٤٣ .

والتسريح الجميل : هو الذى لا ضرر معه . وإنما معه الكلام الطيب ، والفعل الحسن .

والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من المال ما يجبر خاطرهن ، وما يكون عوضا عن فراقهن .. وأطلقوا سراحهن ليستأنفن حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن العقلاء أن يعاشروا أزواجهن بالمعروف ، وأن يفارقوهن - أيضا - بالمعروف .

ومن العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر يقتضى الوجوب .

وقد بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[1] .

والملاحظ أن الآية الكريمة التى معنا ، قد أضافت حكما جديدا ، وهو أنه لا عدة على المطلقة قبل الدخول بها .

ومن مجموع هذه الآيات ، نرى أحكم التشريعات ، وأسمى التوجيهات .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله عليه . وتكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره . فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ٥٤٠ وما بعدها .

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

والمراد بالأجور فى قوله – سبحانه – : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ... ﴾ المهور التى دفعها – ﷺ – لأزواجه .

قال ابن كثير : يقول – تعالى – مخاطبا نبيه – صلوات الله وسلامه عليه – بأن قد أحل له من النساء أزواجه اللائى أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور هاهنا ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

وقد كان مهره – ﷺ – لنسائه : اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقيه . فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى – رحمه الله – بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها .

وفى قوله : ﴿ آتيت أجورهن ﴾ إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شىء منه ، هو الأكمل والأفضل ، و أن تأخير شىء منه إنما هو أمر مستحدث ، لم يكن معروفا عند السلف الصالح .

وأُطْلِق على المهر أجْرٌ لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقابل الأجر بالمنفعة .

وقوله : ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ بيان لنوع آخر مما أحله الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - .

والمعنى : يأيها النبى إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف لك ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتى أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة وغيرهما - ، لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللائى دخلن فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب ، كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .

ثم بين - سبحانه - نوعا ثالثا أحله - سبحانه - له فقال : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ﴾ .

أى : وأحللنا لك - أيضا - الزواج بالنساء اللائى تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم .

وقوله ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ إشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .

والمراد بالمعية هنا . الاشتراك فى الهجرة . لا المصاحبة فيها ، لما فى قوله - تعالى - حكاية عن ملكة سبأ : ﴿ قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

قال بعض العلماء : وقد جاء فى الآية الكريمة عدة قيود ، ما أريد بواحد منها إلا التنبيه على الحالة الكريمة الفاضلة .

منها : وصف النبى - ﷺ - باللاتى آتى أجورهن ، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة ، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شىء .

ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفىء ، فإن المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشترى من الجلب ، لأن المملوكة عن طريق الغنيمة تكون معروفة الحال والنشأة .

ومنها : قيد الهجرة فى قوله : ﴿ اللاتى هاجرن معك ﴾ ، ولاشك أن من هاجرت مع النبى - ﷺ - أولى بشرف زوجية النبى - ﷺ - ممن عداها[1] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٢٢ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء ، أحله لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ، إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على مفعول ﴿ أحللنا ﴾ .

وقد اشتملت هذه الجملة على شرطين ، الثانى منها قيد للأول ، لأن هبتها نفسها له - ﷺ - لا توجب حلها له إلا بقبوله الزواج منها .

وقوله ﴿ يستنكحها ﴾ بمعنى ينحكها . يقال : نكح واستنكح ، بمعنى عجل واستعجل : ويجوز أن يكون بمعنى طلب النكاح .

وقوله : ﴿ خالصة ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿ وهبت ﴾ أى : حال كونها خالصة لك دون غيرك . أو نعت لمصدر مقدر . أى : هبة خالصة ..

والمعنى وأحللنا لنا كذلك امرأة مؤمنة ، إن ملكتك نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولى ومهر .

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له - ﷺ - خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر ، وليلى بنت الحطيم ..

وقد اختلف العلماء فى كونه - ﷺ - قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا .

والأرجح أنه - ﷺ - لم يتزوج بواحدة منهن ، وإنما زوجهن لغيره . ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى ، أن رسول الله - ﷺ - جاءته امرأة فقالت : يارسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يارسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله - ﷺ - : هل عندك من شىء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندى إلا إزارى هذا . فقال - ﷺ - : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا . فقال : لا أجد شيئا . فقال : التمس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئا . فقال له النبى - ﷺ - : هل معك من القرآن شىء ؟ قال نعم . سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله - ﷺ - : زوجتكها بما معك من القرآن[1] .

---

(١) صحيح البخارى « كتاب النكاح » جـ ٧ ص ١٧ .

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه - ﷺ - فى الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له فى أن يختار منهن من تقتضى الحكمة الزواج منها ، واختصاصه - ﷺ - بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه .

ولهذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم .. ﴾ فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه - ﷺ - بأمور فى النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها .

أى : هذا الذى أحللناه لك - أيها الرسول الكريم - هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال بهم ، كما لايجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله - تعالى - به ، على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا - أيضا - ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن لا يجوز سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين .

وقوله : ﴿ لكى لا يكون عليك حرج ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أحللنا ﴾ وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى :

أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبة نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكى لا يكون عليك حرج فى البحث عنه .

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما تفعله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى : وكان الله - تعالى - ومازال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله - عز وجل - ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ شروع فى بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - فى معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : ﴿ ترجى ﴾ من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرئ مهموزا وغير مهموز . تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحيته جانبا حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : ﴿ وتؤوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه .. ﴾ أى : ضمه إليه وقربه منه .

والضمير فى قوله ﴿ منهن ﴾ يعود إلى زوجاته - ﷺ - اللائى كن فى عصمته .

قال القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبى - ﷺ - فى ترك القَسْم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته .

وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله - ﷺ - وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله - تعالى - : ﴿ ترجى من تشاء منهن ... ﴾ .

قالت : قلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

قال ابن العربى : هذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعول عليه . والمعنى المراد : هو أن النبى - ﷺ - كان مخيرا فى أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . لكنه كان يقسم من جهة نفسه ، تطييبا لنفوس أزواجه .

وقيل كان القسم واجبا عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية .

وقيل : الآية فى الطلاق . أى : تطلق من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء .

وقيل : المراد بالآية : الواهبات أنفسهن له - ﷺ - .

ثم قال القرطبى : وعلى كل معنى ، فالآية معناها التوسعة على رسول الله - ﷺ - والإباحة ، وما اخترناه أصح والله أعلم[١] .

أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى معاشرة نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة لأتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيتوتة وما يشبهها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢١٤ .

ومع هذا التكريم من الله - تعالى - لنبيه ، إلا أنه - ﷺ - كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه ؟ عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة ..

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها - أن رسول الله - - ﷺ - كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن ..

فقيل لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يارسول الله أن أوثر عليك أحدا[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ . زيادة فى التوسعة عليه - ﷺ - وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .

أى : أبحنا لك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نسائك ، وأن تترك القسمة بينهن ، وأبحنا لك - أيضا - أن تعود إلى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذلا حرج عليك فى كل ذلك . بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .

فالابتغاء بمعنى الطلب،وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت،و﴿ من ﴾ شرطية ، وجوابها : ﴿ فلا جناح عليك ﴾ أى : فلا حرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين أزواجك ، وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .

قال الشوكانى : والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله - ﷺ - كى يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه[2] .

وإسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن .. ﴾ يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبى - ﷺ - .

وأدنى بمعنى أقرب . و﴿ تقر أعينهن ﴾ كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا وارتياح نفس . يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ..

وقوله : ﴿ ولا يحزن ﴾ معطوف على ﴿ أن تقر ﴾ وقوله ﴿ ويرضين ﴾ معطوف عليه - أيضا - .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٧ .
(٢) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٩٣ .

والمعنى ، ذلك الذى شرعناه لك من تفويض الأمر اليك فى شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحى من الله - تعالى - وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن فى القسم والبيتوتة والمجامعة ... أم لم تسو .

قال القرطبى : قال قتادة وغيره : أى : ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا - لا من عندك - ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين ..

وكان - عليه الصلاة والسلام - مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : « اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور للتغليب .

أى : والله - تعالى - يعلم ما فى قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شىء ، ومن عدم الميل إلى شىء آخر .

قال صاحب الكشاف : وفى هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى - من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافى بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله - ﷺ - وما فيه طيب نفسه[2] .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ﴿ عليما ﴾ بكل ما تظهره القلوب وما تسره ﴿ حليما ﴾ حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .

ثم كرم - سبحانه - أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ... ﴾ .

أى : لا يحل لك ، - أيها الرسول الكريم - أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع اللائى فى عصمتك اليوم ، لأنهن قد اخترنك و آثرنك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان فى حياتك معهن من شظف العيش ، والزهد فى متع الدنيا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢١٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٢ .

وقوله : ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك ، كما لا يحل لك - أيضا - أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه الآية .

فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائى كن فى عصمته عند نزولها . والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن ، للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : ﴿ بعد ﴾ ظرف مبنى على الضم لحذف المضاف اليه . أى : من بعد اليوم . و﴿ أزواج ﴾ مفعول به ، و﴿ من ﴾ مزيدة لاستغراق الجنس . أى : ولا أن تبدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء الأخريات .

وجملة : ﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى ﴿ تبدل ﴾ . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا أن تتبدل بهن أزواجا غيرهن فى أية حالة من الأحوال ، حتى ولو فى حال إعجابك بغيرهن ويصح أن تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لفهمه من الكلام ، ويكون المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن .

وقوله : ﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ استثناء من هذا الحكم . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف اليهن ما شئت من النساء اللائى تملكهن عن طريق السبى .

وهذا الذى سرنا عليه من أن الآية الكريمة فى شأن أزواجه - ﷺ - هو الذى سار عليه جمهور المفسرين .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم - أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى - ﷺ - ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن ، فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله - ﷺ - كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرائر ، فلا حجر عليه فيهن .

ثم إنه - سبحانه - رفع عنه الحجر فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهن ، لتكون المنة للرسول - ﷺ - عليهن . روى الإمام

أحمد عن عائشة قالت : مامات رسول الله - ﷺ - حتى أحل الله له النساء[1] .

ومن العلماء من يرى أن قوله - تعالى - ﴿ من بعد ﴾ المراد به : من بعد من أحللنا لك الزواج بهن ، وهن الأصناف الأربعة اللائى سبق الحديث عنهن فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك .. ﴾ .

وهذا الرأى الثانى وإن كان أشمل من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللائى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

هذا ، والنساء التسع اللائى حرم الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - الزيادة عليهن ، و الاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ .

أى : وكان الله - تعالى - ومازال ، مطلعا على كل شىء من أحوالكم - أيها الناس - فاحذروا أنْ تتجاوزوا ما حده الله - تعالى - لكم ، لأن هذا التجاوز يؤدى إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ومن توسعته عليه فى شأن أزواجه ، وفى شأن ما أحله له من عدم التقيد فى القَسْم بينهن ، وفى تقديم أو تأخير من شاء منهن ..

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما . لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من التشريعات الحكيمة ، والآداب القويمة . التى تتعلق بدخول بيوت النبى - ﷺ - ، وبحقوق أزواجه - ﷺ - فى حياته وبعد مماته ، وبوجوب احترامه وتوقيره - ﷺ - فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٨ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... ﴾ روايات متعددة منها ، ما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث . فقلت : يارسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يارسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى - ﷺ - لما تمالأن عليه فى الغيرة ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ﴾ فنزل كذلك .

وروى البخارى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : لما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام - ﷺ - قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى - ﷺ - ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبى - ﷺ - أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... الآية ﴾ .

قال ابن كثير : وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله - ﷺ - بزينب بنت

جحش : التى تولى الله - تعالى - تزويجها بنفسه، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة ، فى قول قتادة والواقدى وغيرهما[١] .

والمراد ببيوت النبى : المساكن التى أعدها - ﷺ - لسكنى أزواجه .

والاستثناء فى قوله - تعالى - : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

وقوله : ﴿ غير ناظرين ﴾ حال من ضمير ﴿ تدخلوا ﴾ و﴿ إناه ﴾ أى : نضجه وبلوغه الحد الذى يؤكل معه . يقال : أَنَى الطعامُ يأنَى أَنْياً وإِنًى - كقلى يقلى - إذا نضج وكان معدا للأكل .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبى - ﷺ - فى حال من الأحوال ، إلا فى حال الإذن لكم بدخولها من أجل حضور طعام تدعون إلى تناوله ، وليكن حضوركم فى الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا قبل إعداده بفترة طويلة ، منتظرين نضجه وتقديمه إليكم للأكل منه .

قالوا : وكان من عادة بعضهم فى الجاهلية أنهم يلجون البيوت بدون استئذان ، فإذا وجدوا طعاما يعد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا منه .

فالنهى فى الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، وبمن دخل بدعوة ولكنه مكث منتظرا للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار . أما إذا كان الدخول بدعوة أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا يتناوله النهى .

قال الآلوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين ، خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى - ﷺ - فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهى مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل . فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظرا للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا من الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن متضمن معنى الدعوة .

أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى الطعام فادخلوا لتناوله وقوله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٠ - طبعة دار الشعب .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٧٠ .

- تعالى - ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ﴾ بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة التى شرعها الإسلام فى تناول الطعام عند الغير .

أى : إذا دعيتم لحضور طعام فى بيت النبى - ﷺ - فادخلوا ، فإذا ما انتهيتم من طعامكم عنده ، فتفرقوا ولا تمكثوا فى البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت .

فقوله ﴿ مستأنسين ﴾ مأخوذ من الأنس بمعنى السرور والارتياح للشىء . تقول : أنست ، لحديث فلان ، إذا سررت له ، وفرحت به .

وأطلق - سبحانه - نفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث ، للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، مادام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث . وهذا أدب عام لجميع المسلمين .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم ﴾ يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن . والجملة بمثابة التعليل لما قبلها .

أى : إن ذلكم المذكور كان يؤذى النبى - ﷺ - ويدخل الحزن على قلبه ، لأنه يتنافى مع الأدب الإسلامى الحكيم ، ولكنه - ﷺ - كان يستحيى أن يصرح لكم بذلك ، لسمو خلقه ، وكمال أدبه ، كما أنه - ﷺ - كان يستحيى أن يقول لكم كلاما تدركون منه أنه يريد انصرافكم .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله لا يستحيى من الحق ﴾ أى : والله - تعالى - لا يستحيى من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه - سبحانه - أن يقول الحق ، ولا يسكت عن ذلك .

وإذا كان الرسول - ﷺ - قد منعه حياؤه من أن يقول قولا تفهمون منه ضجره من بقائكم فى بيته بعد تناول طعامكم عنده .. فإن الله - تعالى - وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق فى هذه الأمور وفى غيرها ، حتى تتأدبوا بأدب دينه القويم . ثم ذكر - سبحانه - بعض الآداب التى يجب عليهم أن يلتزموها مع نساء نبيهم - ﷺ - فقال : ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن .. ﴾

أى : وإذا طلبتم - أيها المؤمنون - من أزواج النبى - ﷺ - شيئا يتمتع به سواء أكان هذا الشىء حسيا كالطعام أو معنويا كمعرفة بعض الأحكام الشرعية .. إذا سألتموهن شيئا من ذلك فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن ..

لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن الوقوع فى

الهواجس الشيطانية التى قد تتولد عن مشاهدتكم لهن ، ومشاهدتهن لكم ..

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ .

أى : وما صح ومااستقام لكم - أيها المؤمنون - أن تؤذوا رسول الله - ﷺ - بأى لون من ألوان الأذى ، سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظارا لنضج الطعام أم بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به - ﷺ - .

كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أى : من بعد وفاته .

﴿ إن ذلكم ﴾ أى : إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده ﴿ كان عند الله ﴾ - تعالى - ذنبا ﴿ عظيما ﴾ وإثما جسيما ، لا يقادر قدره .

ثم حذرهم - سبحانه - من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء ، من أمرهم ، فقال : ﴿ إن تبدوا شيئا ﴾ بأن تظهروه على ألسنتكم ﴿ أو تخفوه ﴾ بأن تضمروه فى قلوبكم ، فإنه فى الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، ﴿ فإن الله ﴾ - تعالى - ﴿ كان بكل شىء عليما ﴾ بحيث لا يخفى عليه شىء ، فى الارض ولا فى السماء .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التى تسمى بآية الحجاب ، جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء ، كما أن من الواجب الحضور إلى الطعام فى الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظارا لنضجه وتقديمه .

٢ - حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك فى الطعام أم فى غيره ، فقد أمر - سبحانه - المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبى - ﷺ - شيئا أن يسألوهن من وراء حجاب ، وعلل ذلك بأن سؤالهن بهذه الطريقة ، يؤدى إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ، والبعد عن الريبة وخواطر السوء ..

وحكم نساء المؤمنين فى ذلك كحكم أمهات المؤمنين ، لأن قوله - سبحانه - ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ علة عامة تدل على تعميم الحكم ، إذ جميع الرجال والنساء فى كل زمان ومكان فى حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب ، وأعف للنفوس ..

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير ازواج النبى - ﷺ - لا حاجة

بهن إلى أطهرية قلوبهن ، وقلوب الرجال من الريبة منهن ..

فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن ، لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه ..[(١)] .

٣ - كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز للرجل الأجنبى أن يصافح امرأة أجنبية عنه . ولا يجوز له أن يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها .

والدليل على ذلك أن النبى - ﷺ - ثبت عنه أن قال : « إنى لا أصافح النساء » والله - تعالى - يقول : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾.. فيلزمنا أن لا نصافح النساء الأجنبيات اقتداء به - ﷺ -[(٢)] .

٤ - تكريم الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ودفاعه عنه ، وإلزام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه ولا يؤذيه ، وبعدم نكاح أزواجه من بعده أبدا ...

ثم استثنت السورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تظهر أمامهم بدون حجاب ، وبينت سمو منزلة رسول الله - ﷺ - ، وأكدت التحذير من إيذائه ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبى - ﷺ - أن يرشد أزواجه وبناته ونساء المؤمنين إلى وجوب الاحتشام فى ملابسهن .. فقال - تعالى - :

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ

(١) راجع « أضواء البيان » جـ ٦ ص ٥٨٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٢) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٦٠٢ .

اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

قال القرطبى : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله - ﷺ - : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ لا جناح عليهن فى آبائهن .. ﴾[1] .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه .

أى : لا حرج ولا إثم على أمهات المؤمنين ولا على غيرهن من النساء ، فى ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو أبنائهن أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نسائهن اللاتى تربطهن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ما ملكت أيمانهن من الذكور أو الإناث .

فهؤلاء يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن تظهر أمامهم بدون ساتر . وهذا لون من ألوان اليسر والسماحة فى شريعة الإسلام .

ولم يذكر سبحانه - العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا . كما فى قوله - تعالى - حكاية عن يعقوب : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون ﴾ وإسماعيل كان عما ليعقوب لا أباله .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ولا نسائهن ﴾ أى : ولا جناح على زوجات النبى - ﷺ - فى عدم الاحتجاب عن نسائهن ، أى : عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة فى الوصف ، وهو الإسلام ، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبى الاحتجاب عنهن ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣١ .

كما يجب على سائر المسلمات . أى : ماعدا ما يبدو عند المهنة ، أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : فى سورة النور : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن... ﴾ الآية .

ثم عقب . سبحانه هذا الترخيص والتيسير بقوله : ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شىء شهيدا ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحت لكن يا معشر النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب : فامتثلن أمرى ، واتقين الله - تعالى - فى كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله - تعالى - مطلع على كل ما يصدر عنكن ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم أثنى الله - تعالى - على نبيه ثناء كبيرا وأمر المؤمنين بأن يعظموه ويوقروه فقال : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها رسوله - ﷺ - فى حياته وموته ، وذكر منزلته منه .. والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ..

والضمير فى ﴿ يصلون ﴾ لله - تعالى - وللملائكته . وهذا قول من الله شرف به ملائكته .. أو فى الكلام حذف . والتقدير : إن الله يصلى وملائكته يصلون[٢] .

وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن الله - تعالى - أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى : بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه . ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا[٣] .

والمعنى : إن الله - تعالى - يثنى على نبيه محمد - ﷺ - ويرضى عنه ، وإن الملائكة تثنى عليه - ﷺ - وتدعو له بالظفر بأعلى الدرجات وأسماها .

﴿ يأيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ أى : عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات ﴿ وسلموا تسليما ﴾ أى : وقولوا : السلام عليك أيها النبى . والسلام : مصدر بمعنى السلامة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٧ .

أى : السلامة من النقائص والآفات ملازمة لك .

والتعبير بالجملة الاسمية فى صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك .

وخص المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد النهى عن إيذاء النبى - ﷺ - ، والإيذاء له - ﷺ - إنما يكون من البشر .

وقد ساق المفسرون - وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبى والآلوسى - أحاديث متعددة فى فضل الإكثار من الصلاة على النبى - ﷺ - ، وفى كيفية الصلاة عليه ..

ومنها : ما رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة قال : سمعتِ النبى - ﷺ - يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على ، فليُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر ».

ومنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن كعب بن عُجْرَة قال : لما نزلت هذه الآية قلنا: يارسول الله ، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد[1] .

والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبى - ﷺ - والمؤمنون الصادقون هم الذين يكثرون من ذلك . قال صاحب الكشاف ماملخصه : فإن قلت : الصلاة على رسول الله - ﷺ - واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره - ﷺ - ومنهم من قال تجب فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره .

ومنهم من أوجبها فى العمر مرة .. والذى يقتضيه الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر .. لما ورد من الأخبار فى ذلك .

ومنها : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على »[2] .

ثم توعد - سبحانه - الذين يسيئون إلى رسوله - ﷺ - بأى لون من ألوان الإساءة فقال : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا ﴾ .

والمراد بأذى الله ورسوله : ارتكاب ما يبغضان ويكرهان من الكفر والفسوق والعصيان ،

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها إلى ص ٤٦٩ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٧ .

ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ما قاله الكافرون فى الرسول - ﷺ - من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر ..

وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إيذاء الرسول - ﷺ - خاصة ، وذكر الله - تعالى - معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى الله - تعالى - ، كما جعلت طاعة الرسول ، طاعة لله .

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذى الرسول - ﷺ - بشىء ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، ففى الحديث الشريف : « الله الله فى أصحابى ، لاتتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه »[1] .

أى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - ، بارتكاب مالا يرضياه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان ..

﴿ لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ﴾ أى : طرد الله - تعالى - هؤلاء الذين ارتكبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه فى الدنيا والآخرة .

﴿ وأعد لهم ﴾ - سبحانه - فى الآخرة ﴿ عذابا مهينا ﴾ أى : عذابا يهينهم ويجعلهم محل الاحتقار والإزدراء من غيرهم .

وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ .

أى: والذين يرتكبون فى حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا مايوجب أذاهم ..

﴿ فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ أى : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ ولم يقل ذلك فى الآية السابقة عليها ، لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويؤذى بعضهم بعضا ، أما

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٦٩ .

الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - فلا يتصور منها ذلك .

وجمع - سبحانه - فى ذمهم بين البهتان والاثم المبين ، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه فى حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذى لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لشدته وبعده عن الحقيقة .

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذى لا يخفى قبحه على أحد .

روى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه : « أى الربا أربى عند الله ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرىء مسلم » ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر فى ملابسهن فقال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ... ﴾ .

قال الآلوسى : روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم قالوا : حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر فلا يطمع فيهن ..[2] .

وقوله : ﴿ يدنين ﴾ من الإدناه بمعنى التقريب ، ولتضمنه معنى السدل والإرخاء عُدِّىَ بعلى . وهو جواب للأمر ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ...﴾ .

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، تلبسه المرأة ، فوق ثيابها .

والمعنى : يأيها النبى قل لأزواجك اللائى فى عصمتك ، وقل لبناتك اللائى هن من نسلك ، وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ما خرجن لقضاء حاجتهن ، فعليهن أن يسدلن الجلابيب عليهن ، حتى يسترن أجسامهن سترا تاما ، من رءوسهن إلى أقدامهن ، زيادة فى التستر والاحتشام ، وبعدا عن مكان التهمة والريبة .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها - : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأمصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٠ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٨٨ .

وقوله : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ بيان للحكمة من الأمر بالتستر والاحتشام .

أى : ذلك التستر والاحتشام والإدناء عليهن من جلابيبهن يجعلهن أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من فى قلوبهم مرض .

قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمل أمر الإماء ، ولم يبال بما ينالهن من الإيذاء ممن ضعف إيمانهم ، مع أن فى ذلك من الفتنة مافيه ، فهلا كان التصون والتستر عاما فى جميع النساء ؟

والجواب ، أن الإماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن فى الأسواق ، فإذا كلفن أن يتقنعن ويلبسن الجلباب السابغ كلما خرجن ، كان فى ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات جميعا ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعد المؤذين بالعذاب المهين .. والشارع - أيضا - لم يحظر على الإماء التستر والتقنع ، ولكنه لم يكلفهن بذلك دفعا للحرج والعسر ، فللأمة أن تلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك ..[1] .

هذا ، ويرى الإمام أبو حيان أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، ما يشمل الحرائر والإماء وأن الأمر بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر بإسدال الجلابيب عليهن ، درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الايمان .

فقد قال - رحمه الله - : والظاهر أن قوله : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .. ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن ﴾ لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ، ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها[2] .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذى اتجه إليه أبو حيان - رحمه الله - أولى بالقبول من غيره ، لتمشيه مع شريعة الإسلام التى تدعو جميع النساء إلى التستر والعفاف .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى : وكان الله - تعالى - ومازال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة مما وقع فيه من أخطاء وسيئات .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٥٣ للشيخ محمد على السايس - رحمه الله - .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٢٥٠ .

ثم هدد – سبحانه – المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذا مااستمروا فى إيذائهم لرسول الله – ﷺ – وللمؤمنين والمؤمنات . وبين – عز وجل – أن وقت قيام الساعة مرد علمه إليه وحده . وأن الكافرين عند قيامها سيندمون ولكن لن ينفعهم الندم ، فقال – تعالى – :

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

والمنافقون : جمع منافق ، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر .

والذين فى قلوبهم مرض : هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو الثبات على الحق .

والمرجفون فى المدينة : هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس . وأصل الإرجاف : التحريك الشديد للشىء ، مأخوذ من الرجفة التى هى الزلزلة . ووصف به الأخبار الكاذبة ، لكونها فى ذاتها متزلزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها الاضطراب فى قلوب الناس .

وقد سار بعض المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف منها لطائفة معينة ، وسار آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة هى طائفة المنافقين ، وأن العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات .

قال القرطبى : قوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة ... ﴾ أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشىء واحد ... والواو مقحمة كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة .

وقيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين ..[١] .

وقد سار صاحب الكشاف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين ، فقال : ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان ، وقلة ثبات عليه ..

﴿ والمرجفون فى المدينة ﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله - ﷺ - فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين .

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوؤهم وتنوؤهم[٢] .

وقوله : ﴿ لنغرينك بهم ﴾ جواب القسم . أى : لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد ، يقال : أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرضه على فعله .

وقوله : ﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ معطوف على جواب القسم . أى : لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا ، يرتحلون بعده بعيدا عنكم ، لكى تبتعدوا عن شرورهم .

وجاء العطف بثم فى قوله : ﴿ ثم لا يجاورونك ﴾ للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم . وقوله : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ أى : مطرودين من رحمة الله - تعالى - ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦١ .

و﴿ ملعونين ﴾ منصوب على الحال من فاعل ﴿ يجاورونك ﴾ و﴿ ثقفوا ﴾ بمعنى وجدوا . تقول ثقفت الرجل فى الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به .

وقوله : ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ بيان لما يحيق بهم من عقوبات عند الظفر بهم .

أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا تقتيلا شديدا ، وهذا حكم الله - تعالى - فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وإشاعتهم قالة السوء فى المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى يقلعوا عن فجورهم وفسقهم فقال : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل .... ﴾ وقوله : ﴿سنة ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله - تعالى - ذلك سنة ، فى الأمم الماضية من قبلكم - أيها المؤمنون - بأن جعل تأديب الذين يسعون فى الأرض بالفساد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من سننه التى لا تتخلف .

﴿ ولن تجد ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ لسنة الله ﴾ الماضية فى خلقه ﴿ تبديلا ﴾ أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة ، والعدالة القوية .

ثم بين - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال : ﴿ يسألك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

والسائلون هنا قيل:هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت والإساءة إلى النبى - ﷺ - .

أى : يسألك اليهود وأشباههم فى الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة ، على سبيل التعنت والامتحان لك .

﴿ قل ﴾ لهم - أيها الرسول الكريم - ﴿ إنما ﴾ علم وقت قيامها عند الله - تعالى - وحده ، دون أى أحد سواه .

﴿ وما يدريك ﴾ أى : وما يعلمك ﴿ لعل الساعة تكون قريبا ﴾ أى . لعل قيامها وحصولها يتحقق فى وقت قريب ، ولكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب - سبحانه - .

ولقد كان النبى - ﷺ - يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويشير إلى إصبعيه السبابة والوسطى .

ثم بين - تعالى - ما أعده للكافرين من عقاب فقال : ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته .

﴿ وأعد لهم ﴾ فوق ذلك فى الآخرة ﴿ سعيرا ﴾ أى : نارا شديدة الاشتعال والاتقاد .

﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا خروج لهم منها معه .

﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول فى هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها وسعيرها .

ثم بين - سبحانه - حسراتهم عندما يحل بهم العذاب فى الآخرة فقال : يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا .

و﴿ يوم ﴾ ظرف لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب : يوم تقلب وجوههم فى النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه .

وحينئذ يقولون على سبيل التحسر والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله - تعالى - فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ تقلب ﴾ بمعنى تتقلب ، ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات ، كما ترى البيضة تدور فى القدر إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها فى النار مقلوبة منكوسة .

وخصت الوجوه بالذكر ، لأنه الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة[١] .

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ، أى : وقال هؤلاء الكافرون - بعد هذا التحسر والتفجع - ياربنا إنا أطعنا فى الدنيا ﴿ سادتنا وكبراءنا ﴾ أى : ملوكنا ورؤساءنا وزعماءنا ، فجعلونا فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق .

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أى : ياربنا أنزل بهؤلاء السادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم فى أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم .

﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ أى واطردهم من رحمتك ، وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم الذين كانوا سببا لنا فى هذا العذاب المهين الذى نزل بنا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٢ .

وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين فى الآخرة هذا التصوير المؤثر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من آداب ، وقصت ماقصت من أحداث .. بعد كل ذلك وجهت فى أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله - تعالى - وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب سلوك الأشرار ، كما ذكرتهم بثقل الأمانة التى رضوا بحملها ، وبحسن عاقبة الصالحين وسوء عاقبة المكذبين ، قال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)

والمراد بالذين آذوا موسى - عليه السلام - فى قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... ﴾ قومه الذين أرسله الله إليهم .

فقد حكى القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له : ﴿ يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ... ﴾ وقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

ومن إيذائهم له - عليه السلام - ما رواه الإمام البخارى والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : مايستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة . وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ بنى اسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله - تعالى - ، وأبرأه الله - تعالى - مما يقولون .. فذلك قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... ﴾[1] .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم - ﷺ - واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذى سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى - عليه السلام - حيث آذوه بشتى أنواع الأذى .

وقولهم : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ... ﴾ واتخاذهم العجل إلها من دون الله فى غيبة نبيهم موسى - عليه السلام - ..

﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾ أى : فأظهر الله - تعالى - براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء .

﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أى : وكان عند الله - تعالى - ذا جاه عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية ، حيث نصره - سبحانه - عليهم ، واصطفاه لحمل رسالته ..

يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر ..

ثم أمرهم - سبحانه - بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببنى اسرائيل فى إيذائهم لنبيهم فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا .. ﴾ .

والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالى من كل انحراف عن الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه يسدده ، إذا وجهه بإحكام الى المرمى الذى يقصده فأصابه . ومنه قولهم : سهم قاصد . إذا أصاب الهدف .

أى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وراقبوه وخافوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، وفى كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولا كله الصدق والصواب .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٤ .

فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ يصلح ﴾ الله - تعالى - ﴿ لكم أعمالكم ﴾ بأن يجعلها مقبولة عنده ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ التى فرطت منكم ، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم فى أقوالكم وأفعالكم .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فى كل الأقوال والأعمال ﴿ فقد فاز ﴾ فى الدارين ﴿ فوزا عظيما ﴾ لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته .

ثم بين - سبحانه - ضخامة التبعة التى حملها الإنسان فقال : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .. ﴾ .

وأرجح الأقوال وأجمعها فى المراد بالأمانة هنا : أنها التكاليف والفرائض الشرعية التى كلف الله - تعالى - بها عباده ، من إخلاص فى العبادة ، ومن أداء للطاعات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه .

وسمى - سبحانه - ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا - سبحانه - بها ، وائتمننا عليها ، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها بدون إخلال بشىء منها .

والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - أو جنس الإنسان .

والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهى مع ثقلها وضخامتها .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على حقيقته ، وأن الله - تعالى - قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة ، على السموات والأرض والجبال ﴿ فأبين أن يحملنها ﴾ لثقلها وضخامتها ﴿ وأشفقن منها ﴾ أى : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى بهن إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير فى أداء ما كلفن بأدائه .

﴿وحملها الإنسان ﴾ أى : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه ، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها .

﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ أى : إنه كان مفرطا فى ظلمه لنفسه ، ومبالغا فى الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأداء ما كلفهم الله - تعالى - بأدائه . وإنما منهم من أداها على وجهها - وهم الأقلون - ، ومنهم من لم يؤدها وإنما عصى ما أمره به ربه ، وخان الأمانة التى التزم بأدائها .

فالضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الذين لم يؤدوا

حقوق هذه الامانة التى التزموا بحملها .

قال الآلوسى : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ أى : بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشىء ، وجوده فى بعض أفراده ، فضلا عن وجوده فى غالبها ..[1] .

وقال بعض العلماء : ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلى معروف فى اللغة التى نزل بها القرآن .

وقد جاء فعلا فى آية من كتاب الله ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب .... ﴾ لأن الضمير فى قوله : ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلى ، كما هو ظاهر .

وهذه المسألة هى المعروفة عند علماء العربية بمسألة : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر[2] .

وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله - تعالى - إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

ومما يشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[3] .

قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن - أى على السموات والأرض والجبال تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن حملها . والجمادات كلها خاضعة لله - تعالى - مطيعة لأمره ، ساجدة له .

قال بعض أهل العلم : ركب الله - تعالى - فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن[4] .

ويرى بعضهم أن العرض فى الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ، أو من قبيل المجاز .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : لما بين - تعالى - فى هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور ..

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٩٦ .

(٢) تفسير « أضواء البيان » جـ ٦ ص ٦٠٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٨ .

ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة ..

وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب .

أى : أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الانسان وهو ظلوم جهول لو عقل . وهذا كقوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ... ﴾ .

وقال قوم : إن الآية من المجاز : أى : أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فَعُبِّر عن هذا بعرض الأمانة . كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه ..

وقيل : ﴿ عرضنا ﴾ يعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة . ورجحت الأمانة بثقلها عليها ..[1] .

ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

ومما لاشك أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تخلق فى السموات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو - سبحانه .

واللام فى قوله - سبحانه - : ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ... ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ وحملها الإنسان ...﴾ .

أى : وحملها الإنسان ليعذب الله - تعالى - بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى : ويقبل الله - تعالى - توبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم وخطاياهم .

﴿ وكان الله ﴾ - تعالى - ومازال ﴿ غفورا رحيما ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٥٤ .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة (الأحزاب) نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ..

والحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

مساء الخميس : ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ

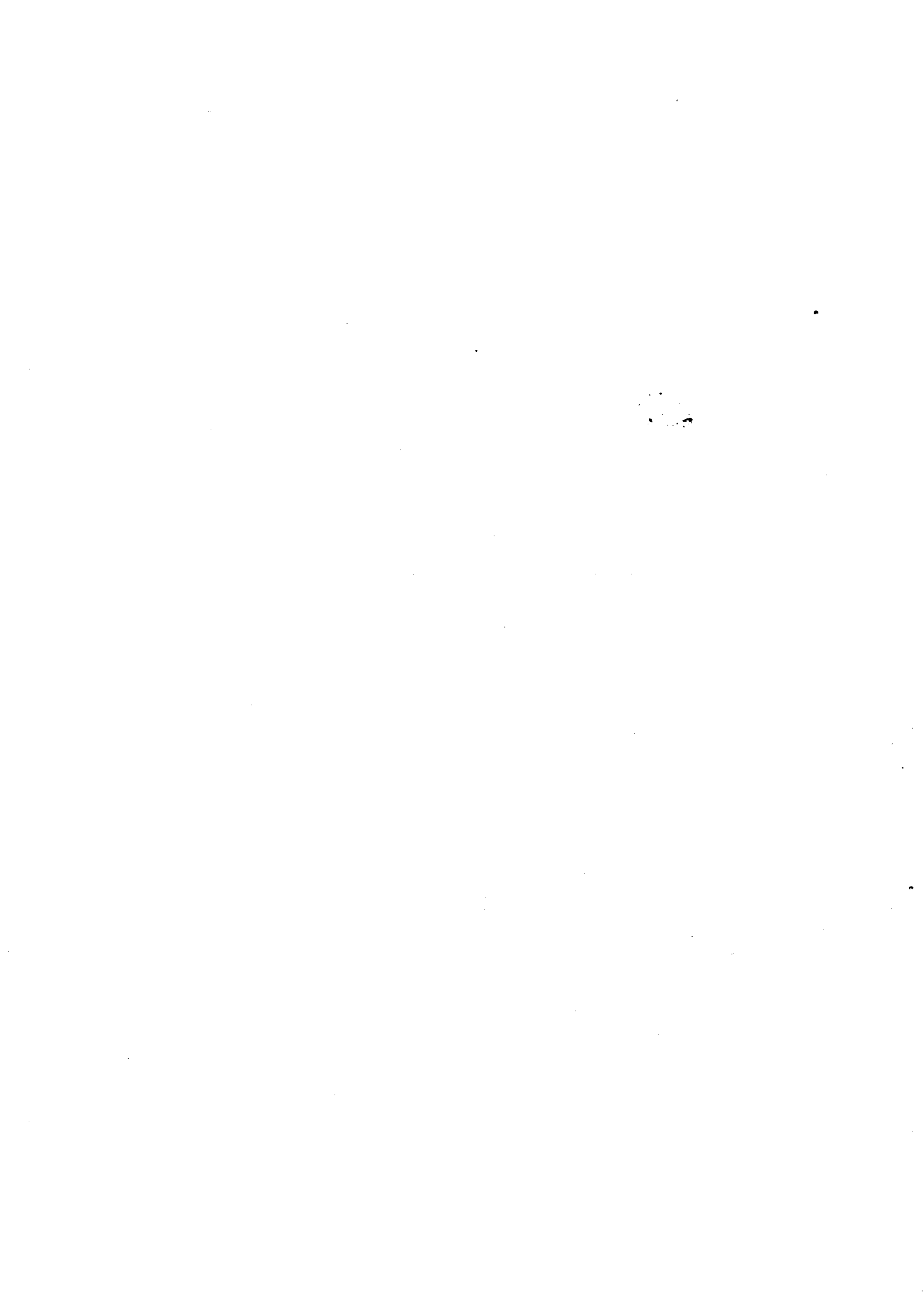
١٩٨٥/٦/٦ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

تفسير

سُورَةُ سَبَأ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة ﴿ سبأ ﴾ هى السورة الرابعة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة السابعة والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة ﴿ لقمان ﴾ .

٢ - وسورة ﴿ سبأ ﴾ من السور المكية الخالصة ، وقيل هى مكية إلا الآية السادسة منها وهى قوله - تعالى - : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ .

٣ - وعدد آياتها خمس وخمسون آية فى المصحف الشامى ، وأربع وخمسون آية فى غيره . وسميت بهذا الاسم ، لاشتمالها على قصة أهل سبأ ، وما أصابهم من نقم بسبب عدم شكرهم لنعم الله - تعالى - عليهم .

٤ - وتبدأ سورة ﴿ سبأ ﴾ بالثناء على الله - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ .

ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال الكافرين فى تكذيبهم ليوم القيامة ، كما تحكى - أيضا - بعض أقوالهم الباطلة التى قالوها فى شأن النبى - ﷺ - ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

٥ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ، فتحكى ما آتاهم الله - تعالى - إياه من خير وقوة وكيف أنهما قابلا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة ، فزادهما - سبحانه - من فضله وعطائه : ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وكعادة القرآن الكريم فى جمعه بين الترغيب والترهيب ، وبين حسن عاقبة الشاكرين ، وسوء عاقبة الجاحدين .. جاءت فى أعقاب قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ، قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله الوفيرة بالجحود والإعراض ، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾ .

٦ - ثم ساقت السورة بعد ذلك بأسلوب تلقينى ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له .

نرى ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. ﴾

وفى قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ .

وفى قوله - عز وجل - : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ، كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .

٧ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن وظيفة الرسول - ﷺ - ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ .

وعن أحوال الكافرين السيئة عندما يقفون أمام ربهم للحساب ، وكيف أن كل فريق منهم يلقى التبعة على غيره ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ﴾.

٨ - ثم ترد السورة الكريمة على أولئك المترفين ، الذين زعموا أن أموالهم وأولادهم ستنفعهم يوم القيامة ، فتقرر أن ما ينفع يوم القيامة إنما هو الإيمان والعمل الصالح ، وأن الله - تعالى - هو صاحب الإعطاء والمنع والإغناء والإفقار .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ، قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ﴾.

٩ - وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من شبهات المشركين حول دعوة الرسول - ﷺ - وردت عليهم بما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، أتبعت ذلك بدعوة هؤلاء الكافرين إلى التفكير والتدبر على انفراد ، فى شأن دعوة هذا الرسول الكريم الذى يدعوهم إلى الحق ، لعل هذا التفكر يهديهم إلى الرشد .

قال - تعالى - : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .

ثم ختمت السورة الكريمة بتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأنهم سيندمون - إذا ما استمروا على كفرهم - ولن ينفعهم الندم .

قال - تعالى - : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ .

١٠ - وهكذا نرى سورة سبأ قد ساقت أنواعا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه .. كما أنها حكت شبهات المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، والحمد لله حمدا كثيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
٦ / ٦ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥)

افتتحت سورة ﴿ سبأ ﴾ بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .

و ﴿ أل ﴾ فى الحمد للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله - تعالى - .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة عليه وحده - سبحانه - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شىء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، هو فى الحقيقة حمد له - تعالى - ، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد اختار - سبحانه - افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون للعاقل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح اللؤلؤة لجمالها ، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر عنه من إحسان .

والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر يكون من أجل نعمة وصلت إليك أما الحمد فيكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك[1] .

وفى القرآن الكريم خمس سور اشتركت فى الافتتاح بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله .. ﴾ وهى سورة الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ﴾ .

ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص فى بيان أسباب أن الحمد لله - تعالى - وحده .

وقد أحسن القرطبى - رحمه الله - عندما قال : فإن قيل : قد افتتح غيرها أى : سورة الأنعام - بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره ؟ فالجواب أن لكل واحدة منه معنى فى موضعه ، لا يؤدى عن غيره ، من أجل عقده بالنعم المختلفة ، و - أيضا - فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون[2] .

والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله - تعالى - وحده ، لأنه هو ، الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، بحيث لا يخرج شىء فيهما عن إرادته ومشيئته .

قوله : وله الحمد فى الآخرة ، تنبيه إلى أن حمده - عز وجل - ليس مقصورا على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة .

فالمؤمنون يحمدونه فى الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمدونه فى الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض ، ويقولون : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[3] .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٧ .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٦ ص ٣٨٤ .

(٣) سورة الزمر . الآية ٧٤ .

قال صاحب الكشاف : ولما قال - سبحانه - : الحمد لله ، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ، تقول : احمد أخاك الذى كساك وحملك ، تريد : احمده على كسوته وحملانه .

ولما قال : ﴿ وله الحمد فى الآخرة ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب[1] .

وقال الآلوسى : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس[2] .

وقال الجمل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستقبح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك ؟

فالجواب : ان هذا المدح دليل على أن حاله - تعالى - بخلاف حال الخلق ، وأنه يحسن منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدل على أنه - تعالى - مقدس أن تقاس أفعاله ، على أفعال العباد[3] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ أى : وهو - تعالى - الذى أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العليم بظواهر عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم .

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر علمه فقال : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾، والولوج الدخول ، يقال : ولج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ، إذا دخله .

أى : أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر دفنت فى طياتها ، ومن بذور ومعادن فى جوفها .

ويعلم - أيضا - ﴿ ما يخرج منها ﴾ من نبات وحبوب وكنوز ، وغير ذلك من أنواع الخيرات .

ويعلم كذلك ﴿ ما ينزل من السماء ﴾ من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٣ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٩ .

﴿ وما يعرج فيها ﴾ أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة ، كما قال - تعالى - : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ .

وعدى العروج بفى لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بإلى قال - تعالى - : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وقوله : ﴿ يعرج ﴾ من العروج ، وهو الذهاب فى صعود . والسماء جهة العلو مطلقا .

﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ أى : وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة ، والمغفرة العظيمة ، لمن يشاء من عباده .

وهذه الآية الكريمة - مع وجازة ألفاظها - تصور تصويرا بديعا معجزا ، مظاهر علم الله - تعالى - ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ﴿ ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ لما استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود الهائلة من خلق الله - تعالى - فى أرضه أو سمائه .

ولكن هذه الحشود العجيبة فى حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها ، وأجناسها ، وصورها ، وأحوالها .. قد أحصاها علم الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الكافرون فى شأن يوم القيامة ، فقال - تعالى - ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال ، وإنما نحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى .

وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ مبالغة فى نفيها نفيا كليا ، فكأنهم يقولون : لا تأتينا الساعة فى حال من الأحوال ، لأننا ننكر وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ .

و « بلى » حرف جواب لرد النفى ، فتفيد إثبات المنفى قبلها ، ثم أكد - سبحانه - ذلك بجملة القسم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : ليس الأمر كما زعمتم ، بل هى ستأتيكم بغتة ، وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على جملة من المؤكدات التى تثبت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومن ذلك التعبير بـ ﴿ بلى ﴾ وبالجملة القسمية .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله - ﷺ - أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد : فإحداهن فى سورة يونس ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ .

والثانية : هذه الآية التى معنا . والثالثة : فى سورة التغابن وهى قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ تقوية لتأكيد إتيان الساعة .

قالوا : لأن تأكيد القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه ، وقوة إثباته ، وصحته ، لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر[2] .

وقوله ﴿ يعزب ﴾ بمعنى يغيب ويخفى ، وفعله من باب « قتل وضرب » . يقال : عزب الشىء يعزب - بضم الزاى وكسرها - إذا غاب وبعد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : كذبتم فى إنكاركم وحق الله - تعالى - لتأتينكم ، والذى أخبرنى بذلك هو الله - تعالى - ﴿ عالم الغيب ﴾ أى : عالم ما غاب وخفى عن حسكم ، وهو - سبحانه - لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك المثقال ، ولا أكبر منه ، إلا وهو مثبت وكائن فى علمه - تعالى - الذى لا يغيب عنه شىء ، أو فى اللوح المحفوظ الذى فيه تسجل أحوال الخلائق وأقوالهم وأفعالهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عالم الغيب ﴾ قرأه بعضهم بكسر الميم على أنه نعت لقوله ﴿ ربى ﴾ .

أى : قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم الساعة .

وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿ لا يعزب عنه ﴾ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو عالم الغيب .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٩ .

وقوله : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ تمثيل لقلة الشىء ، ودقته ، والمراد انه لا يغيب عن علمه شىء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعال من الثقل ، ويطلق على الشىء البالغ النهاية فى الصغر ، والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ .

وفى قوله - سبحانه - : ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ إعجاز علمى بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب ، أن الذرة أصغر الأجسام ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات .

قال الجمل : وقوله : ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ العامة على رفع أصغر وأكبر ، وفيه وجهان :

أحدهما : الابتداء ، والخبر إلا فى كتاب ، والثانى : العطف على ﴿ مثقال ﴾ ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ إلا فى كتاب ﴾ تأكيد للنفى فى ﴿ لا يعزب ﴾ كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين .

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله - تعالى - أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال : الإثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا[1] .

واللام فى قوله - تعالى - ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ متعلقة بقوله ﴿ لتأتينكم ﴾ وهى للتعليل ولبيان الحكمة فى إتيانها .

أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة فى ذلك ليجزى - سبحانه - الذى آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذى يستحقونه .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة من ربهم لذنوبهم ﴿ و ﴾ لهم كذلك ﴿ رزق كريم ﴾ تنشرح له صدورهم ، وتقرّ به عيونهم .

﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى : والذين سعوا فى إبطال آياتنا ، وفى تكذيب رسلنا ﴿ معاجزين ﴾ أى مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا . يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه .

﴿ أولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى : لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٦٠ .

وهكذا نرى الآيات الكريمة بعد ثنائها على الله - تعالى - بما هو أهله ، وبعد إثباتها لعلمه الذى لا يعزب عنه شىء ، وبعد حكايتها لأقوال المشركين وردها عليهم .

بعد كل ذلك تصرح بأن الحكمة من إتيان الساعة ، مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب ، ومجازاة الذين كفروا وسعوا فى آيات الله بالقدح فيها وصد الناس عنها . بما يستحقون من عقاب .

ثم بين - سبحانه - موقف أهل العلم النافع مما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، وموقف الكافرين من ذلك ، ورد - سبحانه - على هؤلاء الكافرين بما يثبت ضلالهم وجهلهم ، فقال - تعالى - :

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

والمراد بالرؤية فى قوله - تعالى - : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ المعرفة والعلم واليقين . والمراد بالذين أوتوا العلم : المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى كل ما جاءهم به من عند ربه ، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم ، كمؤمنى أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

والجملة الكريمة مستأنفة لمدح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق ، أو معطوفة على يجزى فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

والمراد بـ ﴿ الذى أنزل إليك من ربك ﴾ القرآن الكريم .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن الذين أوتوا العلم وهم أتباعك الصادقون ، يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذى لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذى يهدى من اتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله - تعالى - ، العزيز ، الذى يقهر ولا يقهر ﴿ الحميد ﴾ أى المحمود فى جميع شئونه .

والمفعول الأول ليرى قوله : ﴿ الذى أنزل ﴾ .. والمفعول الثانى « الحق » و « هو » ضمير فصل متوسط بين المفعولين و « يهدى » معطوف على المفعول الثانى من باب عطف الفعل على الاسم لتأويله به ، أى : يرونه حقا وهاديا .

وعبر - سبحانه - عن إيمان أهل العلم بما جاءهم به الرسول - ﷺ - بقوله : ﴿ ويرى ﴾ ، للإشعار بأنهم قد آمنوا هذا الإيمان الجازم عن إدراك ومشاهدة ويقين ، وأنهم قد صاروا لا يشكون فى كون هذا المُنَزَّل عليه من ربه ، هو الحق الهادى إلى الصراط المستقيم .

وفى وصفهم بقوله : ﴿ أوتوا العلم ﴾ ثناء عظيم عليهم ، لأنهم انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه حق ، ويهدى إلى السعادة الدينية والدنيوية والأخروية .

وهكذا العلماء العاملون بمقتضى علمهم النافع . يكونون أنصارا للحق والهدى فى كل زمان ومكان .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الكافرون فيما بينهم ، على سبيل الاستهزاء بالنبى - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ...﴾ .

وتمزيق الشىء : تخريقه وجعله قطعا قطعا . يقال : ثوب ممزق ومزيق . إذا كان مقطعا مخرقا . والمراد بالرجل : الرسول - ﷺ - .

أى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن ندلكم ونرشدكم إلى رجل ، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم ، بأنكم إذا متم ، وفرقت أجسامكم فى الأرض كل تفريق ، وصرتم رفاتا وعظاما ، وأصبحتم طعاما فى بطون الطيور والوحوش .

﴿ إنكم لفى خلق جديد ﴾ أى : إنكم بعد هذا التمزيق والتفريق ، تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب على أعمالكم التى عملتموها فى حياتكم .

وقالوا : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ وهو - ﷺ - أشهر من نار على علم بينهم ، لقصد تجاهل أمره ، والاستخفاف بشأنه ، والاستهزاء بدعوته .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : فإن قلت : كان رسول الله - ﷺ - مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا بينهم ، فما معنى قولهم : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم ﴾ فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول فى أمر مجهول ؟

قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنز - أى : الاستخفاف والسخرية - فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى ، متجاهلين به وبأمره[1] .

وقال الآلوسى - رحمه الله - : وقوله : ﴿ ينبئكم ﴾ أى يحدثكم بأمر مستغرب عجيب ... وإذا فى قوله : ﴿ إذا مزقتم ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه . أى : تبعثون أو تحشرون ، وهو العامل فى « إذا » على قول الجمهور . والجملة الشرطية بتمامها معمولة لقوله : ﴿ ينبئكم ﴾ لأنه فى معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ، ثم أكد ذلك بقوله - تعالى - : ﴿ إنكم لفى خلق جديد ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التى قالوها بشأن ما جاءهم به النبى - ﷺ - .

والاستفهام لتعجبهم مما قاله - ﷺ - لأن قوله لهم : إنكم ستبعثون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم لجهلهم وانطماس عقولهم - يستنكرون ذلك ، ويرجعون قوله - ﷺ - إلى أمرين : إما افتراء الكذب واختلاقه على الله - تعالى - وإما إصابته بالجنون الذى جعله يقول قولا لايدرى معناه .

وقد رد الله - تعالى - بما ينفى عن رسوله - ﷺ - ما اتهموه به ، وبما يثبت جهلهم وغباءهم فقال . ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ .

أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول - ﷺ - الذى أخبرهم بأن هناك بعثا وحسابا ، به جنة أو افترى على الله كذبا ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٩ .

لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، غارقون فى العذاب الذى لا نهاية له . وفى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد .

ثم هددهم - سبحانه - بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى ضلالهم وجهالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ .

والاستفهام للتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن التفكر والتدبر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرته - عز وجل - المحيطة بهم من كل جانب والمنتشرة فى آفاق السموات وفى جوانب الأرض ؟

إن تأملهم فى مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، من شأنه أن يهديهم إلى الحق الذى جاءهم به رسولنا - ﷺ - ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾ كما فعلنا بقارون .

﴿ أو ﴾ إن نشأ ﴿ نسقط عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ والكِسَفُ جمع كِسْفَة بمعنى قطعة أى: لا يعجزنا أن نخسف بهم الأرض . كما لا يعجزنا - أيضا - أن ننزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فنهلكهم ، كما أنزلناها على أصحاب الأيكة فأهلكناهم بسبب تكذيبهم وجحودهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم ، لآية بينة ، وعبرة ظاهرة ، لكل عبد ﴿ منيب ﴾ أى : راجع إلى الله - تعالى - بالتوبة الصادقة ، وبالطاعة الخالصة لما جاءه به نبينا - ﷺ - .

ثم ساق - سبحانه - نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله - تعالى - الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف المعترف بنعم الله الشاكر لفضله .

وثانيهما : أعطاه الله - تعالى - النعم فوقف منها موقف الجاحد البطر الكنود .

أما النموذج الأول فنراه فى شخص النبيين الكريمين داود وسليمان - عليهما السلام - فقد قال - سبحانه - فى شأنهما :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ بيان لما مَنّ الله - تعالى - به على عبده داود - عليه السلام - من خير وبركة .

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا ، بسبب إنابته إلينا ، وطاعته لنا .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ يا جبال أوبى معه ﴾ والتأويب الترديد والترجيع . يقال : أوَّب فلان تأويبا إذا رَجَّع مع غيره ما يقوله .

والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ .

وقوله : ﴿ والطير ﴾ بالنصب عطفا على قوله ﴿ فضلا ﴾ أى : وسخرنا له الطير لتسبح معه بحمدنا . أو معطوف على محل ﴿ يا جبال ﴾ أى : ودعونا الجبال والطير إلى التسبيح معه .

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله : يخبر – تعالى – عما أنعم به على عبده ورسوله داود – عليه السلام – مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به ، تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات . والغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله – ﷺ – سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود »[١] .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : « وآتينا داود منا فضلا » تأويب الجبال معه والطير ؟

قلت : كم بينهما من الفرق ؟ ألا ترى إلى مافيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال مُنَزَّلَةً مَنْزِلَةَ العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته[٢] .

وقوله – تعالى – : ﴿ وألنا له الحديد ﴾ ، بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها – سبحانه – عليه .

أى : وصيرنا الحديد لينا فى يده ، بحيث يصبح – مع صلابته وقوته – كالعجين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقه بمطرقة .

فالجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ آتينا ﴾ ، وهى من جملة الفضل الذى منحه – سبحانه – لنبيه دواد – عليه السلام – .

و ﴿ أن ﴾ فى قوله : ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ مصدرية على حذف حرف الجر . وسابغات صفة لموصوف محذوف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٥ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧١ .

أى : ألنا له الحديد ، لكى يعمل منه دروعا سابغات . والدرع السابغ ، هى الدرع الواسعة التامة . يقال : سبغ الشىء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا . ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وقدر فى السرد ﴾ والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير فى عمل الشىء . والسرد : نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها .

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من جملته إلانة الحديد فى يده ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة ، وأقوى هيئة .

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها فى الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله - تعالى - داود - عليه السلام - أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله - تعالى - لعبده داود - عليه السلام - .

ثم أمر - سبحانه - داود وأهله بالعمل الصالح فقال : ﴿ واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير ﴾ .

أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم . بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن الامتنان . وفى الصحيح أن النبى - ﷺ - قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »[2] .

هذا ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود من فضل ، أما نبيه سليمان بن داود ، فقد

---

(١) سورة لقمان . الآية ٢٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٦٧ .

أعطاه - سبحانه - أفضالا أخرى ، عبر عنها فى قوله - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال . والرواح : من الزوال إلى الغروب .

والمعنى : وسخرنا لنبينا سليمان بن داود - عليهما السلام - الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة الواحدة مسيرة شهر . أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة ما يقطعه الناس فى شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة ، وهى فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله - تعالى - إياها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾[2] .

ثم بين - تعالى - نعمة ثانية من النعم التى أنعم بها على سليمان فقال : ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

والقطر : هو النحاس المذاب . مأخوذ من قطَر الشىء يَقْطُر قَطْراً وقطَرانا ، إذا سال .

أى : كما ألنا لداود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا .

ثم بين - سبحانه - نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان - عليه السلام - فقال : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه مايريده منهم ، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا .

﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سليمان ، ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

(٢) سورة « ص » الآية ٣٦ .

ثم بين - سبحانه - بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها لسليمان - عليه السلام - فقال : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ﴾.

والمحاريب : جمع محراب . وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .

قال القرطبى ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال . وهو كل ماصور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست بحيوان .

وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس . فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد - ﷺ -[1] .

والجِفان : جمع جَفْنَة . وهى الآنية الكبيرة . والجَوَاب : جمع جابية ، وهى الحوض الكبير الذى يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .

والقدور : جمع قدر . وهو الآنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما .

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسليمان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تحرك لضخامتها وعظمها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل دواد عملا صالحا ، شكرا لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هو الذى يشكرنى شكرا خالصا على نعمى وفضلى وإحسانى .

وقوله ﴿ شكرا ﴾ يجوز أن يكون مفعولا لأجله . أى : اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدرا واقعا موقع الحال . أى : اعملوا شاكرين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٧٢ .

و ﴿ قليل ﴾ خبر مقدم . و ﴿ من عبادى ﴾ صفة له . و ، ﴿الشكور﴾ مبتدأ مؤخر. وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله - تعالى - وشكره .

•

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه - سبحانه - فيما خلقت له .

والانسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه .

ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد وفاة سليمان ، فقال : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ﴾ .

والمراد بدابة الأرض : قيل هى الأَرَضَة التى تأكل الخشب وتتغذى به ، يقال : أرضت الدابة الخشب أرضا - من باب ضرب - ، إذا أكلته . فإضافة الدابة إلى الأرض - بمعنى الأكل والقطع - من إضافة الشىء إلى فعله .

و ﴿ منسأته ﴾ أى : عصاه التى كان مستندا عليها . وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها . من نسأ البعير - كمنع - إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان - عليه السلام - بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ﴿ مادلهم ﴾ أى : الجن الذين كانوا فى خدمته ﴿ على موته ﴾ بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ﴿ إلا دابة الأرض تأكل منسأته ﴾ .

أى : انهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرْضَ - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئا من عصاه التى كان متكئا عليها ، فسقط واقعا بعد أن كان واقفا .

﴿ فلما خر ﴾ أى : فلما سقط سليمان على الأرض ﴿ تبينت الجن ﴾ أى : ظهر لهم ظهورا جليا ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيب ﴾ كما يزعم بعضهم .

﴿ مالبثوا فى العذاب المهين ﴾ أى : ما بقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ،

حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان - عليه السلام - وكيف عمَّى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه ، - وهى منسأته - مدة طويلة نحوًا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، - وهى الأرضة - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضًا - أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويواهمون الناس ذلك »[1] .

هذا هو النموذج الأول الذى ساقه الله - تعالى - للشاكرين ، متمثلا فى موقف داود وسليمان - عليهما السلام - مما أعطاهما - سبحانه - من نعم جزيله ..

أما النموذج الثانى - الذى جاء فى أعقاب سابقه - فقد ساقه - سبحانه - لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلا فى قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله بالبطر ، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم وفى شأنهم يقول - عز وجل - :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٩ .

أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

و ﴿ سبأ ﴾ فى الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن ..

والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، فيصرف على الأول ويترك صرفه على الثانى .

وكانوا يسكنون بمأْرِب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ماشاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال ﷺ : بل هو رجل . كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مَذْحِجْ ، وكِنْدَه ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحِمْيَر . وسكن الشام منهم أربعة وهم : لَخْم ، وجُذَام ، وعامِلَةُ ، وغسَّان ..

وإنما سمى « سبأ » لأنه أول من سبأ فى العرب - أى : جمع السبايا - ، وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال - ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ ، فى زمانه المتقدم »[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٩١ .

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها ﴿ آية ﴾ بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضح - سبحانه - هذه الآية فقال : ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة من يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله .

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، فيمتلىء من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .

ولفظ ﴿ جنتان ﴾ مرفوع على البدل من ﴿ آية ﴾ أو على أنه مبتدأ ، وخبره قوله :﴿ عن يمين وشمال ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ... ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له - سبحانه - هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر .

أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

ثم بين - سبحانه - ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال : ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ، وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ .

والعرم : اسم للوادى الذى كان يأتى منه السيل . وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه

السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم ، فتفرقوا عنها ، ومزقوا شر ممزق ، وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ . وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان .

وقوله : ﴿ ذواتى أكل خمط ﴾ الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فآتت أكلها ضعفين ﴾ أى : ثمرها . والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لا يمكن أكله .

و (الأثل) هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء . أو هو نوع من الشجر كثير الشوك و(السدر) هو ما يعرف بالنبق . أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا ... فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذى اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق .. وبدلناهم بالجنان اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم مالذ وطاب ، وعظم نفعه .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم .

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط .. هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا .

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة . وهو المفعول الثانى لجزيناهم مقدم عليه . أى : جزيناهم ذلك التبديل لا غيره . والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وهل نجازى إلا الكفور ﴾ بمعنى : وهل يعاقب .

وهو الوجه الصحيح . وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد

الخاص وهو العقاب[1] .

ثم بين - سبحانه - نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم ، وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ .

أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ ﴿ وبين القرى التى باركنا فيها ﴾ كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أى : قرى متقاربة متواصلة ، بحيث يرى من فى إحداها غيرها .

﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات ، والتى توصلكم إلى القرى المباركة .. سيروا فيها ليالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم بالنهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات : وفى كل الأحوال .

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله - تعالى - بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهى نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق والبطر ، أنهم دعوا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ .

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها ، وهى نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله .. إلا أنهم - لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم - تضرعوا إلينا وقالوا : ياربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة، فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : بطروا النعمة ، وبشموا . أى : سئموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٧ .

وفى هذه الجملة الكريمة قراءات متعددة ذكرها القرطبى فقال ما ملخصه : فقراءة العامة ﴿ ربنا ﴾ - بالنصب - على أنه نداء مضاف .. ﴿ باعد ﴾ - بزنة فاعل - سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ربنا ﴾ كذلك على الدعاء ﴿ بعِّد ﴾ - بتشديد العين - من التبعيد .

وقرأ يعقوب وغيره ﴿ ربُّنا ﴾ - بالرفع - ﴿ باعَدَ ﴾ - بفتح العين والدال - على الخبر . أى : لقد باعد ربنا ﴿ بين أسفارنا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ أى : قالوا ذلك القول السىء ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

وقوله: ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم .

والأحاديث: جمع أحدوثة، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهى والتعجب أى: قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر، فكانت نتيجة ذلك. أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم، ويضربون بهم المثل، فيقولون: تفرقوا أيدى سبأ، ومزقناهم كل ممزق فى البلاد المتعددة، فمنهم من ذهب إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى العراق ... بعد أن كانوا أمة متحدة، يظلها الأمان والاطمئنان، والغنى والجاه ...

﴿إن فى ذلك ﴾ الذى فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم ﴿لآيات﴾ واضحات بينات ﴿لكل صبار﴾ على طاعة الله - تعالى- ﴿شكور﴾ له - سبحانه- على نعمه .

وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر . لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾.

ولفظ ﴿ صدق ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد. وقوله: ﴿ عليهم ﴾ متعلق بصدق.

وقوله ﴿ ظنه ﴾ مفعول به على قراءة التشديد، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع فى ﴿عليهم﴾ وفى ﴿ فاتبعوه ﴾ يعود إلى قوم سبأ .

والمعنى على القراءة بالتشديد: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان،

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٠ .

بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان، إلا فريقا من المؤمنين، لم يستطع إبليس إغواءهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم - عز وجل -، واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

والمعنى على القراءة بالتخفيف : ولقد صدق إبليس فى ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى أطاعوه، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه .

قال القرطبى ما ملخصه : وقوله : ﴿ إلا فريقا من المؤمنين ﴾ نصب على الاستثناء وفيه قولان : أحدهما : أنه يراد به بعض المؤمنين - فتكون من للتبعيض - ، لأن كثيرا من المؤمنين يذنبون وينقادون لإبليس فى بعض المعاصى . أى : ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق، وهو المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ... ﴾ .

والثانى : أن المراد بهم جميع المؤمنين، فعن ابن عباس أنه قال : هم المؤمنون كلهم . وعلى هذا تكون ﴿ من ﴾ للبيان لا للتبعيض ..[1] .

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم، لم يكن عن قسر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك .. ﴾ .

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه . والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - ﴿ إلا لنعلم ﴾ إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره .

أى : وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا ، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم، إلا لنظهر فى عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب، ولنميزه عمن هو منها فى شك وريب وإنكار ...

قال الشوكانى - رحمه الله - : والاستثناء فى قوله ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ﴾ منقطع أى: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم .

وقيل : هو متصل مفرغ من أعم العلل . أى: ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن، لأنه - سبحانه - قد علم ذلك علما أزليا . وقال الفراء: إلا لنعلم ذلك عندكم. والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار[2] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٣ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٢٢ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أى: وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شيء رقيب وحفيظ، بحيث لا يخرج شيء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته.

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره، وإخلاص العبادة له، وحسن الصلة به - سبحانه -، كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه - تعالى -، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام -.

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات. كل ذلك يؤدى إلى زوال النعم، كما حدث لقبيلة سبأ.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[1].

ثم نجد السورة الكريمة بعد ذلك، تلقن النبى - ﷺ - الحجج التى تؤيد ما هو عليه من حق وصدق، وتزهق ما عليه أعداؤه من باطل وكذب .. فتقول:

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل

(١) سورة يوسف. الآية ١١١.

لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

والأمر بالدعاء فى قوله – سبحانه – : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله .. ﴾ للتوبيخ والتعجيز . ومفعولا ﴿ زعمتم ﴾ محذوفان .

أى : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء المشركين على سبيل التقريع والتعجيز: هؤلاء آلهتكم الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، اطلبوا منهم أن ينفعوكم أو أن يرفعوا عنكم ضرا نزل بكم، إنهم بالقطع لن يستطيعوا شيئا من ذلك .

ولذا جاء التأكيد على عجز هذه الآلهة المزعومة بعد ذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. ﴾ .

أى : هؤلاء الشركاء لايملكون شيئا ما قل أو كثر لا فى السموات ولا فى الأرض ، بل الذى يملك كل شىء ، هو الله – تعالى – وحده .

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآلهة، وللكشف عن حقيقتها .

والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق ، لأن مثقال الذرة أقل ما يتصور فى الحقارة والقلة .

وذكر – سبحانه – السموات والأرض لقصد التعميم، إذ هما محل الموجودات الخارجية .

أى: لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون العلوى والسفلى .

وبعد أن نفى عن الشركاء الملكية الخالصة لأى شىء فى هذا الكون، أتبع ذلك بنفى ملكيتهم لشىء ولو على سبيل المشاركة ، فقال – تعالى – : ﴿ وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ .

أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لله – تعالى – فى العبادة ، لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون ملكية خاصة، ولا يملكون شيئا ما – أيضا – على سبيل المشاركة لغيرهم. وليس لله –

تعالى - أحد يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجاد أو إعدام، بل الأمر كله إليه وحده .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة، ملكية أى شىء فى هذا الكون، سواء أكانت ملكية خالصة، أم ملكية على سبيل المشاركة، وأثبتت أن المالك والمتصرف فى هذا الكون إنما هو الله - تعالى - وحده، دون أن يكون فى حاجة إلى عون من تلك الآلهة أو من غيرها .

ثم نفى - سبحانه - أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه - تعالى - فقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

والشفاعة : من الشفع الذى هو ضد الوتر - أى : الفرد - ، ومعناها : انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضر .

أى : ولاتنفع الشفاعة عند الله - تعالى - من أحد لأحد، إلا لمن أذن الله - تعالى - له فى ذلك .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد نفى شفاعة الأصنام لعابديها، لكنه - سبحانه - ذكر ذلك على وجه عام، ليكون طريقا برهانيا . أى : لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال، أوكائنة لمن كانت، إلا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة . ومن البين أنه لا يؤذن فى الشفاعة للكفار، فقد قال - تعالى - : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب، وعدم الإذن للأصنام أبين وأبين، فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية ...[1] .

وقوله : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق .. ﴾ بيان لما يكون عليه المنتظرون للشفاعة، من لهفة وقلق .

والتضعيف فى قوله ﴿ فُزِّع ﴾ للسلب . كما فى قولهم : مَرَّضت المريض إذا عملت على إزالة مرضه .

فمعنى : ﴿ فزع عن قلوبهم ﴾ : كشف الفزع عنها، وهدأت أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها من هول وخوف فى هذا اليوم الشديد، وهو يوم القيامة .

و ﴿ حتى ﴾ غاية لما فهم من الكلام قبلها، من أن هناك تلهفا وترقبا من الراجين للشفاعة ومن الشفعاء، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم قبولها .

والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحد إلا لمن أذن الله - تعالى - له فى ذلك، وفى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٣٦ .

هذا اليوم الهائل الشديد، يقف الناس فى قلق ولهفة منتظرين قبول الشفاعة فيهم. حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، بسبب إذن الله - تعالى - فى قبولها ممن يشاء ولمن يشاء، واستبشر الناس وقال بعضهم لبعض، أو قالوا للملائكة: ﴿ماذا قال ربكم﴾ أى: ماذا قال ربكم فى شأننا ومصيرنا.

وهنا تقول لهم الملائكة، أو يقول بعضهم لبعض: ﴿قالوا الحق﴾ أى: يقولون قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة لمن ارتضى.

فلفظ ﴿الحق﴾ منصوب بفعل مضمر. أى: قالوا قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف. أى: قالوا: قال ربنا القول الحق.

﴿وهو﴾ - سبحانه - ﴿العلى﴾ أى: المتفرد بالعلو فوق خلقه ﴿الكبير﴾أى: المتفرد بالكبرياء والعظمة.

قال صاحب الكشاف - رحمه الله -: فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾، ولأى شىء وقعت حتى غاية؟.

قلت: اتصل بما فهم من هذا الكلام، من أن ثم انتظارا للإذن، وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أولا؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىٍّ من الزمان، وطول التربص ...

كأنه قيل: ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وهلين، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ﴿ماذا قال ربكم، قالوا﴾ قال ﴿الحق﴾ أى: القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى..[1].

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ، من الذى يملك أن يرزقهم، فقال - سبحانه -: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض ..﴾.

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين: من الذى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير ذلك من المنافع.

وقوله - تعالى -: ﴿قل الله﴾ جواب على هذا السؤال، وهو جواب لا يملكون إلا الاعتراف به.

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٠.

أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه من جهل : الله وحده هو الذى يرزقكم بما لا يحصى من الأرزاق التى بعضها من السموات، وبعضها من الأرض .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ داخل فى حيز الأمر السابق، ولكن بأسلوب فيه ما فيه من الحكمة والتلطف، ومن حمل المخاطب على التفكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب .

أى : وقل لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لقد علمتم - يا معشر المشركين أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده، لأنه هو الذى خلقكم ورزقكم من السموات والأرض ...

وإن أحدنا لابد أن يكون على الهدى والآخر على الضلال . وسنترك تحديد من هو المهتدى ومن هو الضال لعقولكم وضمائركم .

وستعلمون - علم اليقين - بعد التفكر والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق، وأنتم يا معشر المشركين على الباطل ..

فالجملة الكريمة لون من ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بأسلوب مهذب حكيم، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق، إلى الاستسلام له، والدخول فيه ..

قال القرطبى : وقوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ هذا على وجه الإنصاف فى الحجة، كما يقول القائل لغيره : أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب ، والمعنى : مانحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن، والآخر ضال وهو أنتم، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب .

والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذى يرزقكم من السموات والأرض ...[1] .

وقوله : ﴿ أو إياكم ﴾معطوف على اسم إن، وخبرها هو المذكور .وحذف خبر الثانى للدلالة عليه .

أى : وإنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الكرم الحكيم فى الدعوة إلى الحق، بكلام لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أى : وقل لهم للمرة الثالثة - أيها الرسول الكريم - أنتم - أيها المشركون - لا تسألون يوم القيامة عن إجرامنا فى حق أنفسنا - إن كنا قد أجرمنا وأخطأنا فى حقها - ، ونحن - أيضا - لا يسألنا الله - تعالى -

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٨ .

عن سبب بقائكم فى الكفر وفى الأعمال السيئة، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم - عزوجل - ، ونصحناكم بالإقلاع عن الشرك والمعاصى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ، ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل، وأنا برىء مما تعملون ﴾[1] .

ثم أمره - سبحانه - أن يذكرهم بيوم القيامة وما فيه من حساب دقيق، فقال: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ .

أى: وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الله - تعالى - بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا جميعا بحكمه العادل، وهو - سبحانه - ﴿ الفتاح العليم ﴾ أى: الحاكم فى كل أمر بالحكم الحق، المطلع على جميع أحوال عباده .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتوجيه رسوله - ﷺ - إلى أن يقول لهم قولا يخرس به ألسنتهم، ويبطل حججهم فقال: ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ﴾ والرؤية هنا بصرية . ومفعولها الأول الياء، ومفعولها الثانى الاسم الموصول، ولفظ شركاء: حال .

أى: وقل لهم - أيضا - للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم الحجة: أرونى وأطلعونى على أصنامكم التى ألحقتموها بالله - تعالى - فى العبادة، واتخذتموها شركاء له فى الطاعة ... إنها ما هى إلا أشياء لا تضر ولا تنفع، وأنتم تعرفون ذلك عنها، وها هى أمامكم واقعها وحالها ينبئ بعجزها التام، فكيف أشركتموها مع الله - تعالى - فى العبادة والطاعة ؟

فالمقصود من الرؤية إشهادهم على عجزها، وتبكيتهم على جهالاتهم، وحضهم على نبذ الشركاء، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ويحتمل أن تكون الرؤية هنا علمية، فيكون لفظ ﴿ شركاء ﴾ هو المفعول الثالث .

أى: عرفونى الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله - تعالى - فى العبادة .

ثم زجرهم - سبحانه - عن هذا الضلال فقال: ﴿ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى: كلا ليس الأمر كما زعمتم من أن لله - تعالى - شركاء، بل هو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد لقنت النبى - ﷺ - الحجج التى يرد بها على المشركين، والتى من شأنها أن تحملهم على اعتناق الحق، واجتناب الباطل، لو كانوا يعقلون .

---

(١) سورة يونس الآية ٤١ .

ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسول - ﷺ - ورد على شبهات المشركين فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال الآلوسى: المتبادر أن ﴿ كافة ﴾ حال من الناس، قدم «إلا» عليه للاهتمام؛ وأصله من الكف بمعنى المنع، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر فى ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية. فمعنى جاء الناس كافة: جاءوا جميعا ..

قال ابن عباس: أرسل الله - تعالى - محمدا - ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله - تعالى - أطوعهم له .. ..[1].

أى: وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا إلى الناس جميعا، لتبشر المؤمن منهم بحسن الثواب، وتنذر من أعرض عن الحق الذى جئت به بسوء العقاب. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ هذه الحقيقة، وهى عموم رسالتك وكونك بشيرا ونذيرا.

﴿ ويقولون ﴾ أى: المشركون على سبيل الاستهزاء بما جئتهم به ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذى تعدنا به وهو قيام الساعة، وما فيها من حساب وثواب وعقاب.

أخبرونا عنه - أيها المؤمنون - ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تحدثوننا عنه، وفيما تدعوننا إليه من إيمان.

وهنا أمر الله تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم ردا فيه كل معانى التهديد والوعيد فقال: ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ و ﴿ ميعاد ﴾ يجوز أن يكون مصدرا مرادا به الوعد، وأن يكون اسم زمان، والإضافة للبيان.

والمراد بالساعةالوقت الذى هو فى غاية القلة. وليس ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤١.

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تتعجلوا - أيها الكافرون - ما أخبرتكم عنه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، ومن أن العاقبة الطيبة ستكون لنا لا لكم ؛ فإن لكم ميقاتا محددا، وموعدا معلوما، عندما يأذن الله - تعالى - بحلوله وبانتهاء حياتكم وبعثكم ...

﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ﴾ من الزمان ﴿ ولا تستقدمون ﴾ عنه ساعة كما قال - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لوكنتم تعلمون ﴾[1].

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقى وسعيد ﴾[2].

ثم حكى - سبحانه - بعض الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى شأن القرآن الكريم، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب، وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على غيره، قال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) سورة نوح الآية ٤ .

(٢) سورة هود الآيتان ١٠٤ - ١٠٥ .

والمراد بالذى بين يديه فى قوله – تعالى – : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه .. ﴾ : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل .

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب، عن الرسول – ﷺ – فأخبروهم بأن صفاته فى التوراة والإنجيل ، فغضبوا وقالوا ما قالوا ..[1] .

أى : وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد – ﷺ – من عند ربك، ولا نؤمن – أيضا – بالكتب السماوية الأخرى التى تؤيد أنك رسول من عند الله – تعالى – فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره .

قال الإمام الرازى : لما بين – سبحانه – الأمور الثلاثة ، من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بالكل كافرين، بيّن كفرهم العام بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه ﴾ وقوله : ﴿ ولا بالذى بين يديه ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر .

ويحتمل أن يكون المعنى : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام – ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه[2] .

وقوله – تعالى – : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر .

و ﴿ لو ﴾ شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول ﴿ ترى ﴾ محذوف أيضا و ﴿ موقوفون ﴾ أى محبوسون للحساب يوم القيامة .

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشىء ، إذا منعته وحجزته عن فعله .

أى: ولو ترى – أيها المخاطب – حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .

لو ترى ذلك لرأيت أمرا عجيبا ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى – بتصرف وتلخيص جـ ٧ ص ١٨ .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ موقوفون ﴾ يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم فى سجنه انتظارا لمصيره السئ .

وقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض .

والمراد بالذين استضعفوا : الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .

أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لولا أنتم منعتمونا عن اتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول - ﷺ - .

إنهم يقولون لهم فى موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله فى الدنيا . عندما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم .

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول : ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ كلا ، إننا ما فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين اتباع الحق .

﴿بل ﴾ أنتم الذين ﴿ كنتم مجرمين ﴾ فى حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا باختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور .

ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا ﴾ فى الرد عليهم بحسرة وألم : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ أى قالوا لهم أنتم لستم صادقين فى قولكم لنا : إنكم لم تصدونا عن اتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار وإغراءكم لنا بالبقاء على الكفر . وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم ، وأمركم لنا بأن نكفر بالله - تعالى - ونجعل له أندادا ، أى شركاء فى العبادة والطاعة . كل ذلك هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق الذى جاءنا به الرسول - ﷺ - .

والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شرا .

وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان مكركم بنا فى الليل

والنهار ، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا .

وقوله : ﴿ إذ تأمروننا .. ﴾ ظرف للمكر . أى : بل مكركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه - تعالى - هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق والهدى .

قال الجمل : وقوله ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ يجوز رفع ﴿ مكر ﴾ من ثلاثة أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم فى هذين الوقتين ، الثانى ان يكون مبتدأ خبره محذوف . أى : مكر الليل صدنا عن اتباع الحق . الثالث : العكس ، أى : سبب كفرنا مكركم . وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازى كقوهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه وإما على الاتساع فى الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه[١] .

والضمير المرفوع فى قوله - سبحانه - : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ يعود إلى الأتباع والزعماء . وأسروا من الإسرار بمعنى الكتمان والإخفاء .

أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه ، ودفنت الكلمات فى صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من الكمد الذى يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق .

فالمقصود من إسرار الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم .

وقيل إن ﴿ أسروا الندامة ﴾ بمعنى أظهروها : لأن لفظ أسر من الأضداد .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وأسروا ﴾ أى : أضمر الظالمون من الفريقين ﴿ الندامة ﴾ على ما كان منهم فى الدنيا .. ﴿ لما رأو العذاب ﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق .

وقيل : أسروا الندامة . بمعنى أظهروها ، فإن لفظ « أسر » من الأضداد ، إذ الهمزة تصلح للإثبات وللسلب ، فمعنى أسره : جعله سره ، أو أزال سره ..[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٧٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٦ .

والأغلال . جمع غل وهى القيود التى يقيد بها المجرمون .

أى : وجعلنا القيود فى أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم متبوعا . وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة . وأقوالهم القبيحة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا ، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون احترام من المستضعفين لزعمائهم الذين كانوا يذلونهم فى الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التى كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم فى الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب فى الذلة سواء ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من الأقوال الزائفة ، التى كان المترفون يتذرعون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التى لقنها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - لكى يخرس بها ألسنتهم ، ويزيل بها شبهاتهم قال - تعالى - :

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ... ﴾ : هذه تسلية لرسول الله - ﷺ - مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتكبر بذلك على المؤمنين .. وأنه - سبحانه - لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل مكة لرسول الله - ﷺ - .[1] .

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية ، من القرى ﴿ من نذير ﴾ ينذر أهلها بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم . ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أى : إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها المتسعون فى النعم فيها ، لمن جاءوا لإنذارهم وهـدايتهم إلى الحـق .

﴿ إنا بما أرسلتم به ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - ﴿ كافرون ﴾ وبما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون .

فالآية الكريمة تحكى موقف المترفين فى كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء المترفين فى كل زمان ومكان ، كانوا أعداء للأنبياء وللمصلحين ، لأن الترف من شأنه أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا ، ويهدى إلى الانغماس فى الرذائل والشهوات الدنيا .

ثم يحكى القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم ، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبجح والتعالى على المؤمنين . فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا ﴾ أى المترفون الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء ﴿ نحن أكثر أموالا وأولادا ﴾ منكم - أيها المؤمنون - ، إذ أموالنا أكثر من أموالكم ، وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولولا أننا أفضل عند الله منكم ، لما أعطانا . مالا يعطيكم ...

فنحن نعيش حياتنا فى أمان واطمئنان ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ بشىء من العذاب الذى تعدوننا به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : افتخر المترفون - بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال - تعالى - : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٩ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يصحح لهؤلاء المترفين خطأهم ، وأن يكشف لهم عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله - تعالى - وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو للفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال - تعالى - ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبسط الرزق : سعته وكثرته . وتقديره : تقليله وتضبيقه .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ﴿ إن ربى ﴾ وحده هو الذى ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ أى : ويقتر الرزق ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه . والأمر فى كلتا الحالتين مرده إلى الله - تعالى - وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته فى خلقه .

وربما يوسع رزق العاصى ويضيق رزق المطيع . أو العكس ، وربما يوسع على شخص فى وقت ويضيق عليه فى وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ هذه الحقيقة التى اقتضتها حكمة الله - تعالى - وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والكرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا - لجهلهم وانطماس بصائرهم - أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للابتلاء والاختبار ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

ثم زاد - سبحانه - هذه القضية توضيحا وتبيينا فقال : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾ .

الزلفى : مصدر كالقربى ، وانتصابه على المصدرية من معنى العامل . أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتى من شأنها أن تقربكم إلينا قربى ، لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منا لكم ، ولا تكريم منا لكم ، وإنما الذى يقربكم منا هو الإيمان والعمل الصالح .

كما وضح - سبحانه - هذه الحقيقة فى قوله بعد ذلك : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

أى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المترفون - من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب ، ولكن الحق والصدق أن الذى ينجيكم من ذلك ويقربكم منا ، هو الإيمان والعمل الصالح . فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله - تعالى - الجزاء الحسن المضاعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون مطمئنون .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ هو استثناء منقطع فيكون محله النصب . أى : لكن من آمن وعمل صالحا .. والإشارة بقوله : ﴿ فأولئك ﴾ إلى ﴿ مَنْ ﴾ والجمع باعتبار المعنى . وهو مبتدأ . وخبره ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول . أو فألئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة ..[1] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المصرين على كفرهم فقال : ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ، أولئك فى العذاب محضرون ﴾ .

أى : والذين يسعون فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، ﴿ معاجزين ﴾ .

أى : زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم ﴿ أولئك ﴾ الذين يفعلون ذلك ﴿ فى العذاب محضرون ﴾ أى : فى عذاب جهنم مخلدون ، حيث تحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة التى سبق الحديث عنها ، وهى أن التوسع والتضييق فى الرزق بيد الله - تعالى - وحده .

والضمير فى قوله - تعالى - ﴿ له ﴾ يعود إلى الشخص الموسع عليه أو المضيق عليه فى رزقه . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : إن ربى - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق هذا الرزق على من يشاء أن يضيقه منهم ، وليس فى ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة لحكمته فى خلقه - سبحانه - .

﴿ وما أنفقتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من شىء ﴾ فى سبيل الله - تعالى - وفى أوجه طاعته ﴿ فهو ﴾ - سبحانه - ﴿ يخلفه ﴾ أى : يعوضه لكم بما هو خير منه . يقال : فلان أخلف لفلان وأخلف عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل .

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أى : وهو - سبحانه - خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هو بتقديره وإرادته ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «مامن يوم يصبح العباد فيه،

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٣٠ .

إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من شبهات المشركين ، ومن أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يزهق باطلهم ، ويمحو شبهاتهم ، لكى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

ثم بين - سبحانه - حال أولئك المشركين يوم القيامة ، وكيف أن الملائكة يكذبونهم فى مزاعمهم ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ﴿ يوم يحشرهم جميعا ﴾ أى : يجمع الله - سبحانه - الكافرين جميعا . الذين استضعفوا فى الدنيا والذين استكبروا .

﴿ ثم يقول ﴾ - عز وجل - ﴿ للملائكة ﴾ على سبيل التبكيت والتقريع للمشركين ﴿ أهؤلاء ﴾ الكافرون ﴿ كانوا إياكم يعبدون ﴾ أى : أهؤلاء كانوا يعبدونكم فى الدنيا . وأنتم رضيتم بذلك .

و ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، وخبره « كانوا يعبدون » و ﴿ إياكم ﴾ مفعول يعبدون .

وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن من الكفار من كان يعبد الأصنام ، ومن كان يعبد غيرها ، لأن المقصود من الخطاب حكاية ما يقوله الملائكة فى الرد عليهم .

قال صاحب الكشاف : هذا الكلام خطاب للملائكة . وتقريع للكفار وارد على المثل السائر : إياك أعنى واسمعى يا جارة ، ونحوه قوله - تعالى - لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون التقريع

للمشركين أشد ، والتعبير أبلغ ، وهوانهم ألزم .[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ حكاية لأقوال الملائكة .

أى : قال الملائكة فى الإجابة على سؤال خالقهم . ﴿ سبحانك ﴾ أى : ننزهك ونقدسك عن أن يكون لك شريك فى عبادتك وطاعتك ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أى : أنت الذى نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة ، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين أى موالاة أو قرب ، ولا دخل لنا فى عبادتهم لغيرك .

ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فى الدنيا فقالوا : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾.

أى : إن هؤلاء المشركين لا علم لنا بأنهم كانوا يعبدوننا ، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا ، وهم إنما كانوا يعبدون فى الدنيا ﴿ الجن ﴾ أى الشياطين ، وكان أكثر هؤلاء المشركين - يؤمنون بعبادة الشياطين ، ويطيعونهم فيما يأمرونهم به ، أو ينهونهم عنه .

فقوله - تعالى - ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ إضراب انتقالى ، لبيان السبب فى شرك هؤلاء المشركين ، وتصريح بمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا .

قال الجمل : فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشياطين ، فما وجه قوله - تعالى - ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم يطعهم ؟

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم ، فقالوا أكثرهم ، لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ، ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حاله من الكفار .

الثانى : هو أن العبادة عمل ظاهر ، والإيمان عمل باطن ، فقالوا : بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم ، وقالوا : أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب ، لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب ، فإن القلب لا يطلع على مافيه إلا الله[٢] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الملك فى يوم الحساب له وحده فقال : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ .

أى : فاليوم لايملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين ، أو أن يضره ، بل الذى يملك كل ذلك هو الله - تعالى - وحده .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٧ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٧٨ .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن مرد النفع والضر فى هذا اليوم إلى الله - تعالى - وحده ، فالعابدون لا يملكون شيئا ، والمعبودون كذلك لا يملكون شيئا .

﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أى : ونقول فى هذا اليوم الهائل الشديد للذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق بعبادتهم لغيرنا ، نقول لهم ﴿ ذوقوا ﴾ فظاعة وشدة عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، وتنكرون أن يكون هناك بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب .

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من أقوال هؤلاء المشركين فى شأن النبى - ﷺ - وفى شأن القرآن الكريم ، وتهددهم بسوء المصير إذا استمروا فى طغيانهم وجهلهم فتقول :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

وقوله : ﴿ تتلى ﴾ من التلاوة ، وهى قراءة الشىء بتدبر وتفهم .

أى : وإذا ما تليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا - ﷺ - فيما يبلغه عنا .

﴿ قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التالى لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤكم الأقدمون .

ويعنون بقولهم « ما هذا إلارجل »: الرسول - ﷺ - ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به ، والتحقير من شأنه - ﷺ - .

وقالوا : ﴿ يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ لإثارة حمية الجاهلية فيهم فكأنهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلكم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التى تربط بينكم وبين آبائكم الذين أنتم قطعة منهم .

ولم يكتفوا بالتشكيك فى صدق الرسول - ﷺ - بل أضافوا إلى ذلك التكذيب للقرآن الكريم ، ويحكى - سبحانه - ذلك فيقول : ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ .

أى : وقالوا فى شأن القرآن الكريم : ما هذا الذى يتلوه محمد - ﷺ - علينا ، إلا ﴿ إفك ﴾ أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب فى ذاته ﴿ مفترى ﴾ أى : مختلق على الله - تعالى - من حيث نسبته إليه .

فقوله ﴿ مفترى ﴾ صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكأنهم يقولون - قبحهم الله - ماهذا القرآن إلا كذب فى نفسه ، ونسبته إلى الله - تعالى - ليست صحيحة .

ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول - ﷺ - وللقرآن ، تكذيبا عاما لكل ما جاءهم به الرسول من حق ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى : وقال الكافرون فى شأن كل حق جاءهم به الرسول - ﷺ - : ما هذا الذى جئتنا به إلا سحر واضح .

وهكذا نراهم - لعنادهم وجهلهم - قد كذبوا الرسول - ﷺ - وكذبوا القرآن . وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم ، أرشدهم إليه - ﷺ - إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول - ﷺ - والثانى يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها .

ثم بين - سبحانه - أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون ، فقال - تعالى - : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ .

أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأتهم بكتب يدرسونها ويقرءونها ليعرفوا منها أن الشرك حق ، فيكون لهم عذرهم فى التمسك به ، وكذلك لم نرسل إليهم قبلك - أيها الرسول الكريم - نذيرا يدعوهم إلى عبادة الأصنام ، ويخوفهم من ترك عبادتها .

وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا الإنكار للحق الذى

جاءهم ؟ إن أمرهم هذا لهو فى غاية الغرابة والعجب .

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيلهم والتهكم بهم ، ونفى أن يكون عندهم حتى ما يشبه الدليل على صحة ما هم فيه من شرك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ وقوله - عز وجل - : ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ﴾ .

ثم بين لهم - سبحانه - بعد ذلك هوان أمرهم . وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقوهم ، فقال : ﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير ﴾ .

والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه . تقول : عندى عشر دينار ومعشار دينار ، قال أبو حيان : والمعشار مفعال من العشر ، ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع . ومعناهما : العشر والربع ..[1] .

والضمير فى قوله ﴿ وما بلغوا ﴾ يعود لكفار مكة ، وقوله : ﴿ ما آتيناهم ﴾ وفى قوله : ﴿ فكذبوا رسلى ﴾ يعود إلى الأمم السابقة .

والنكير : مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التى جاءت على وزن فعيل .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لتكذيب قومك لك ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم ، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة .. عشر ما كان عليه سابقوهم ، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم ، أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم جميعا .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل . والجملة الكريمة معطوفة على مقدر والمعنى : فحين تمادوا فى تكذيب رسلى ، جاءهم انكارى بالتدمير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالتدمير والاهلاك ؟ لقد كان شيئا هائلا فظيعا تركهم فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، فعلى قومك أن يحذروا من أن يصيبهم مثله .

وجعل - سبحانه - التدمير إنكارا ، تنزيلا للفعل منزلة القول ، كما فى قول بعضهم : ونشتم بالأفعال لابالتكلم .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ﴿ وما بلغوا ﴾ يعود على الذين من قبلهم ، وفى قوله ﴿ آتيناهم ﴾ يعود إلى كفار مكة .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ٢٩٠ .

وقد رجح الامام الرازى هذا الرأى فقال ما ملخصه : قال المفسرون : معنى الآية : مابلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين .. ثم إن الله أخذ هؤلاء المتقدمين ،دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا رسلهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء - وهم قومك .

ثم قال - رحمه الله - : وعندى وجه آخر فى معنى الآية ، وهو أن يقال : وكذب الذين من قبلهم ، ومابلغوا معشار ماآتيناهم ، أى : الذين من قبلهم مابلغوا معشار ماآتينا قومك من البيان والبرهان . وذلك لأن كتابك يامحمد أكمل من سائر الكتب .

فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسلهم - مع أنهم لم يؤتوا معشار ماأوتى قومك من البيان - ، فكيف لاأنكر على قومك بعد تكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل ..[1]

ويبدو لنا أن المعنى الأول الذى عبر عنه الإمام الرازى بقوله : قال المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، لأنه يفيد التقليل من شأن مشركى مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية القوة والغنى .

وفى القرآن الكريم آيات متعدده تؤيد هذا المعنى ، منها قوله - تعالى - : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين فى شأن الرسول - ﷺ - وفى شأن القرآن .. وبعد هذا الرد الملزم لهم ، والمزهق لباطلهم . بعد كل ذلك لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الحجج القاطعة ، والأقوال الحكيمة ، التى تهدى إلى الرشد بأبلغ أسلوب ، وأصدق بيان ، فقال - تعالى - :

۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٤ .

(٢) سورة الروم . الآية ٩ .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

وقوله - تعالى - ﴿ أعظكم ﴾ من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير والبر بكلام مؤثر رقيق يقال : وعظه يعظه وعظا وعظة ، إذا أمره بالطاعة ووصاه بها .

وقوله ﴿ بواحدة ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والتقدير : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب فى شأنك وفى شأن ماجئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة ، أو بخصلة واحدة .

ثم فسر - سبحانه - هذه الكلمة بقوله : ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ . والمراد بالقيام هنا : التشمير عن ساعد الجد ، وتلقى ماجاءهم به الرسول - ﷺ - بقلب مفتوح . وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد .

و ﴿ مثنى وفرادى ﴾ أى : متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، وهما منصوبان على الحال .

﴿ ثم تتفكروا ﴾ بعد ذلك فى أمر هذا الرسول - ﷺ - وفى أمر رسالته ، وفى أمر ماجاء به من عند ربه ، فعند ذلك ترون أنه على الحق ،وأنه قد جاءكم بما يسعدكم .

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل اثنين بموضوعية وإنصاف فى أمر الرسول - ﷺ - ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد - أيضا فى شأن هذا الرسول ، من غير تعصب وهوى .

وقدم الاثنين فى القيام على المنفرد ، لأن تفكير الاثنين فى الأمور بإخلاص واجتهاد وتقدير ، أجدى فى الوصول إلى الحق من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا فى جماعة ، لأن العقلية الجماعية كثيرا ماتتبع الانفعال الطارىء ، وقلما تتريث فى الحكم على الأمور .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم من الباطل - ، وهى : أن تقوموا لوجه الله خالصا ، متفرقين اثنين اثنين ، ووواحدا واحدا ، ﴿ ثم تتفكروا ﴾ فى أمر محمد - ﷺ - وما جاء به .

أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لايميل بهما اتباع هوى ، ولاينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق .

وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم . والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول . ومع ذلك يقل الانصاف ويكثر الاعتساف : ويثور عجاج التعصب[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مابصاحبكم من جنة ﴾ كلام مستأنف جىء به لتنزيه ساحته - ﷺ - عما افتراه عليه المفترون من كونه قد أصيب بالجنون .

أى : اجتمعوا اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا ، ثم تفكروا بإخلاص وروية فترون بكل تأكيد أن محمدا - ﷺ - ليس به شىءمن الجنون ، إنما هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا ، وأفضلهم علما ، وأحسنهم عملا ، وأزكاهم نفسا ، وأنقاهم قلبا ، وأجمعهم لكل كمال بشرى .

وقوله - تعالى - ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ بيان لوظيفته - ﷺ - أى : ليس به - ﷺ - من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب الشديد الذى سينزل بكم يوم القيامة ، إذا مابقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا العذاب ليس بعيدا عنكم .

قال الإمام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس أتدرون مامثلى ومثلكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : « إنما مثلى ومثلكم كمثل قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه وقال : أيها الناس أوتيتم . أيها الناس أوتيتم ... »

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٠ .

وبهذا الاسناد قال رسول الله - ﷺ - : بعثت أنا والساعة جميعا ، إن كادت لتسبقنى »[١].

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لايريد منهم أجرا على دعوته إياهم إلى مايسعدهم فقال : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ،وهو على كل شىء شهيد ﴾ .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم . بعد أن دعوتهم إلى التفكير الهادئ ، المتأنى فى أمرك : إنى ماطلبت منكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم . لأنى لاألتمس أجرى إلا من الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - على كل شىء شهيد ورقيب ، ولايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الآلوسى قوله : قل ماسألتكم من أجر ، أى : مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿ فهو لكم ﴾ والمراد نفى السؤال رأسا ، كقولك لصاحبك إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئا : فما شرطية . مفعول ﴿ سألتكم ﴾ وقوله ﴿ فهو لكم ﴾ الجواب -

وقيل هى موصولة ، والعائد محذوف ، ومن للبيان ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط . أى : الذى سألتكموه من الأجر فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم[٢] .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لاقدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله - تعالى - قد سلحه بما ينصره عليهم فقال : ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ﴾

وأصل القذف : الرمى بقوة وشدة والمراد به هنا : مايوحيه الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - من قرآن وتوجيهات وإلهامات ، والباء فى قوله ﴿ بالحق ﴾ للسببية .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن ربى يلقى الوحى إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذى كلفهم بتبليغه إلى الناس ، وهو - سبحانه - وحده علام الغيوب .

قال الجمل : ماملخصه قوله : ﴿ يقذف بالحق ﴾ يجوز أن يكون مفعوله محذوفا ، لأن القذف فى الأصل الرمى ، وعبر به هنا عن الإلقاء . أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو متلبسا الحق .

ويجوز أن يكون التقدير : يقذف الباطل بالحق ، كما قال - تعالى - ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٣ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٥٥ .

ويجوز أن يكون المعنى : قل إن ربى يقضى ويحكم بالحق ، بتضمين « يقذف » معنى يقضى ويحكم[1] .

ثم أمره - عز وجل - للمرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم سيزول لامحالة وسينتهى أمره انتهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال - تعالى - ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل ومايعيد ﴾

والإبداء : هو فعل الأمر ابتداء . والإعادة : فعله مرة أخرى ، ولايخلو الحى منهما ، فعدمهما كناية عن هلاكه . كما يقول : فلان لا يأكل ولا يشرب ، كناية عن هلاكه .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء الحق المتمثل فى دين الإسلام الذى أرسلنى به إليكم ربى ، ومادام الإسلام قد جاء ، فإن الباطل المتمثل فى الكفر الذى أنتم عليه ، قد آن له أن يذهب وأن يزول ، وأن لايبقى له إبداء أو إعادة ، فقد اندثر وأهيل عليه بالتراب إلى غير رجعة .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الخامسة أن يصارحهم بأنه مسئول أمام الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسئولين عن هدايته أو ضلاله ، فقال - تعالى - : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى .﴾

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الإرشاد والتنبيه ، إنى إن ضللت عن الصراط المستقيم ، وعن اتباع الحق ، فإنما إثم ضلالى على نفسى وحدها لا عليكم ، وإن اهتديت إلى طريق الحق والصواب ، فاهتدائى بسبب مايوحيه الله - تعالى - إلى من توجيهات حكيمة ، وإرشادات قويمة ، ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ سميع ﴾ لكل شىء ﴿ قريب ﴾ منى ومنكم .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت الرسول - ﷺ - خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل طريق للتشكيك فى شأن دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو كانوا يعقلون :

وأخيرا نرى سورة « سبأ » تختتم بهذه الآيات ، التى تصور تصويرا مؤثرا ، حالة الكافرين عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب ، يعلوهم الهلع والفزع ، ويحال بينهم وبين مايشتهون ، لأن توبتهم جاءت فى غير أوانها ... قال - تعالى - :

---

(١) حاشية الجمل جـ٣ ص ٤٨٠ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف . وكذلك مفعول ﴿ ترى ﴾ . والفزع : حالة من الخوف والرعب تعترى الإنسان عندما يشعر بما يزعجه ويخيفه . والفوت : النجاة والمهرب .

وهذا الفزع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث والحساب ، أو عند قبض أرواحهم .

أى : ولو ترى - أيها العاقل - حال الكافرين ، وقت خروجهم من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفزع والهلع .. لرأيت شيئا هائلا ، وأمرا عظيما ...

وقوله « ﴿ فلا فوت ﴾ أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة يومئذ من الوقوف بين يدى الله - تعالى - للحساب ، ولمعاقبتهم على كفرهم وجحودهم ...

وقوله : ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ معطوف على ﴿ فزعوا ﴾ أى : فزعوا دون أن ينفعهم هذا الفزع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم السيئ من مكان قريب من موقف الحساب .

قال الآلوسى : والمراد بذكر قرب المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم ، وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله - عز وجل - ...»[1] .

﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى : وقال هؤلاء الكافرون عندما رأوا العذاب المعد لهم فى الآخرة : آمنا بالله - تعالى - وبأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا معبود بحق سواه ، وآمنا بهذا الدين الذى جاءنا به رسوله محمد - ﷺ - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ بيان لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان فى هذا الوقت .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٥٧ .

والتناوش : التناول . يقال : فلان ناش الشىء ينوشه نوشا إذا تناوله . ومنه قولهم : تناوشوا بالرماح ، أى : تناول بعضهم بعضًا بها .

أى : لقد قالوا بعد البعث آمنا بهذا الدين ، ومن أين لهم فى الآخرة تناول الإيمان والتوبة من الكفر ، وكان ذلك قريبًا منهم فى الدنيا فضيعوه ، وكيف يظفرون به فى الآخرة وهى بعيدة عن دار الدنيا التى هى محل قبول الإيمان .

فالجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب فى نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ ﴿ أنَّى ﴾ .

قال صاحب الكشاف : والتناوش والتناول أخوان . إلا أن التناوش تناول سهل لشىء قريب ...

وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى هذا الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة - أى : من مكان بعيد - ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه ... »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل فى الدنيا ، عندما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله - ﷺ - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ بيان لما كانوا عليه فى الدنيا من سفاهة فى القول ، وجرأة فى النطق بالباطل ، وفيما لا علم لهم به .

والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : هو يقذف ويرجم بالغيب ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ .

أى : لقد كفروا بهذا الدين فى الدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال لا علم لهم بها ، وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة . فقد نسبوا إلى الله - تعالى - الولد والشريك ، ويقولون فى الرسول - ﷺ - إنه ساحر ... ، وفى شأن البعث : إنه لا حقيقة له ، وفى شأن القرآن : إنه أساطير الأولين .

فالمقصود بالآية تقريعهم وتجهيلهم ، على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان حرمانهم التام مما يشتهونه فقال : ﴿ وحيل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٣ .

بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ .

وقوله ﴿ حيل ﴾ فعل مبنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز . تقول حال الموج بينى وبين فلان . أى : منعنى من الوصول إليه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

أى : وحجز وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة ﴿ وبين ما يشتهون ﴾ ويتمنون من قبول إيمانهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا .. حيل بينهم وبين كل ذلك ، ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم الذين سبقوهم فى الكفر .

﴿ إنهم كانوا ﴾ جميعًا على نمط واحد ﴿ فى شك ﴾ من أمر هذا الدين ﴿ مريب ﴾ أى : موقع فى الريبة .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « سبأ » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

القاهرة - مدينة نصر
مساء الأحد ٢٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
١٦ / ٦ / ١٩٨٥ م

كتبه الفقير إلى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةِ فَاطِرٍ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة فاطر هى السورة الخامسة والثلاثون فى ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة الفرقان - كما ذكر صاحب الإتقان[١] .

وهى من السور المكية الخالصة ، وتسمى أيضا - بسورة « الملائكة » .

قال القرطبى : هى مكية فى قول الجميع . وهى خمس وأربعون آية[٢] .

٢ - سورة فاطر هى آخر السور التى افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله ﴾ وقد سبقها فى هذا الافتتاح سور : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ .

قال - سبحانه - فى افتتاح سورة فاطر : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

٣ - ثم تحدث - سبحانه - بعد ذلك عن مظاهر نعمه على عباده ورحمته بهم ، فقال : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ... ﴾ .

٤ - ثم توجه السورة الكريمة نداءين إلى الناس ، تأمرهم فى أولها بشكر الله - تعالى - على نعمه ، وتنهاهم فى ثانيهما عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا وعن اتباع خطوات الشيطان ..

قال - سبحانه - : ﴿ يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض .. ﴾ . وقال - جل شأنه - : ﴿ يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للسيوطى .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١٨ .

٥ - وبعد أن تسلى السورة الكريمة الرسول - ﷺ - عما أصابه من أعدائه ، تأخذ فى بيان مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، فتذكر قدرته - سبحانه - فى إرسال الرياح والسحب ، وفى خلقه للإنسان من تراب ، وفى إيجاده للبحرين : أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والثانى : ملح أجاج ، وفى إدخاله الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، و فى تسخيره الشمس والقمر ..

قال - تعالى - : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ .

٦ - ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثا إلى الناس ، بين لهم فيه : افتقارهم اليه - تعالى - وحاجتهم إلى عونه وعطائه ، وتحمل كل إنسان لمسئولياته ولنتائج أعماله ..

كما بين لهم - سبحانه - أن الفرق بين الهدى والضلال ، كالفرق بين الإبصار والعمى ، وبين النور والظلمات ، وبين الحياة والموت ، وبين الظل والحرور .

قال -تعالى - : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ .

٧ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وعن الثواب العظيم الذى أعده - سبحانه - لمن يتلون كتابه ولمن يحافظون على فرائضه - وعن عقابه الأليم للكافرين الجاحدين لنعمه ..

قال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور . إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ﴾ .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾ .

٨ - ثم انتقلت السورة الكريمة فى أواخرها إلى الحديث عن جهالات المشركين ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وعن مكرهم السيئ الذى لا يحيق

إلا بأهله ، وعن نقضهم لعهودهم حيث ﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا .. ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سعة رحمته بالناس فقال : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

٩ -وهكذا نرى سورة فاطر قد طوفت بالنفس الإنسانية فى أرجاء هذا الكون ، وأقامت الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . عن طريق نعم الله - تعالى - المبثوثة فى الأرض وفى السماء ، وفى الليل وفى النهار ، وفى الشمس وفى القمر : وفى الرياح وفى السحب ، وفى البر وفى البحر .. وفى غير ذلك من النعم التى سخرها - سبحانه - لعباده .

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول - ﷺ - وساقت له مايسليه ويزيده ثباتا على ثباته ، وما يرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر - الثلاثاء ٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ .

١٩٨٥/٦/٢٥ م

التفسير

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

افتتحت سورة « فاطر » كما سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لسورة « سبأ » بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة وغيرها .

و« أل » فى الحمد للاستغراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء هو الله - تعالى -[1] .

وقوله : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى خالقها وموجدهما على غير مثال يحتذى ، إذ المراد بالفطر هنا : الابتداء والاختراع للشىء الذى لم يوجد مايشبهه من قبل .

---

(١) راجع تفسيرنا لأوائل سور : الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ .

قال القرطبى : والفاطر : الخالق ، والفَطْر - بفتح الفاء - : الشق عن الشىء . يقال : فطرته فانفطر . ومنه : فطر ناب البعير ، أى : طلع . وتفطر الشىء ، أى : تشقق ...

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : أنا ابتدأتها ..

والمراد بذكر السموات والأرض : العالم كله . ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء ، قادر على الإعادة[1] .

والمعنى : الحمد المطلق والثناء التام الكامل لله - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - الخالق للسموات والأرض ، ولهذا الكون بأسره ، دون أن يسبقه إلى ذلك سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك .

وقوله - تعالى - : ﴿ جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - التى لا يعجزها شىء .

والملائكة : جمع ملك . والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك . وهم جند من خلق الله - تعال - وقد وصفهم - سبحانه - بصفات متعددة ، منها : أنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وأنهم ﴿ عباد مكرمون ﴾. ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

قال الجمل : وقوله : جاعل الملائكة ، أى : بعضهم . إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم . وقوله : ﴿ أولى أجنحة ﴾ نعت لقوله ﴿ رسلا ﴾ ، وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا . أو هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهى صفة كاشفة ..[2] .

وقوله : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أسماء معدول بها عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهى ممنوعة من الصرف ، للوصفية والعدل عن المكرر وهى صفة لأجنحة .

أى : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، والذى جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه . وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم ما يأمرهم - سبحانه - بتبليغه إليهم ..

وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوو أجنحة عديدة . منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأنه المراد بهذا الوصف ، بيان كثرة الأجنحة لاحصرها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٨٣ .

قال الألوسى ما ملخصه قوله : ﴿ جاعل الملائكة رسلا .... ﴾ معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه ، كالأمطار والرياح وغيرهما .

وقوله : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ معناه : أن من الملائكة من له جناحان و منهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا دلالة فى الآية على نفى الزائد ، وماذكر من عد للدلالة على التكثير والتفاوت ، لا للتعيين ولا لنفى النقصان عن اثنين ..

فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود فى قوله - تعالى - ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ أن الرسول - ﷺ - رأى جبريل وله ستمائة جناح ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال قدرته ، ونفاذ إرادته .

أى يزيد - سبحانه - فى خلق كل ما يزيد خلقه ما يشاء أن يزيده من الأمور التى لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص فى الخلق ما يشاء ، والكل جاء على مقتضى الحكمة والتدبير .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ أى : يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته .

والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة فى العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجرأة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأن فى مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف ..[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لا يعجزه شىء يريده ، لأنه قدير على فعل كل شىء ، فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها من كونه - سبحانه - يزيد فى الخلق ما يشاء ، وينقص منه ما يشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ... ﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله على عباده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٥ .

والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز . بعلاقة السببية لأن فتح الشىء المغلق ، سبب لإطلاق ما فيه وإرساله .

أى : مايرسل الله - تعالى - بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة فى الأمطار ، وفى الأرزاق ، وفى الصحة .. وفى غير ذلك ، فلا أحد يقدر على منعها عنهم .

﴿ وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ أى : وما يمسك من شىء لا يريد إعطاءه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بعد أن منعه الله - تعالى - عنهم .

﴿ وهو ﴾ - سبحانه - ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلبه غالب ﴿الحكيم ﴾ فى كل أقواله وأفعاله .

وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بالفتح ، للإشعار بأن رحمته - سبحانه - من أعظم النعم وأعلاها ، حتى لكأنها بمنزلة الخزائن المليئة بالخيرات ، والتى متى فتحت أصاب الناس منها ما أصابوا من نفع وبر .

و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من رحمة ﴾ للبيان . وجاء الضمير فى قوله : ﴿ فلا ممسك لها ﴾ مؤنثا ، لأنه يعود إليها وحدها .

وجاء مذكرا فى قوله ﴿ فلا مرسل له ﴾ لأنه يشملها ويشمل غيرها . أى : وما يمسك من رحمة أو غيرها عن عباده فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه - سبحانه - .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله ..﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . و إن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير ﴾[2] .

قال ابن كثير : وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى . أن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد . ملء السموات والأرض . وملء ماشئت من شىء بعد .. اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد[3] - أى : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذى ينفعه عمله الصالح ..

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٧ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٢٠ .

ثم وجه - سبحانه - نداء الى الناس . أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : ﴿ يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ..﴾ .

والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله تعالى عليها ، واستعمالها فيما خلقت له .

والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس . كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم ﴾ للنفى والإنكار ، أى : يأيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم ، نعم الله - تعالى - عليكم ، واشكروه عليها . واستعملوها فى الوجوه التى أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله - تعالى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزروع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التى فيها حياتكم وبقاؤكم .

وقوله - تعالى - ﴿ لا إله إلا هو ﴾ جملة مستأنفة لتقرير النفى المستفاد مما قبله أى : لاإلـه مستحق للعبادة والطاعة إلا الله - تعالى - ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذى أعطاكم النعم التى لا تعد ولا تحصى .

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى : ومادام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك فى عبادته .

فقوله ﴿ تؤفكون ﴾ من الأفك - بالفتح - بمعنى الصرف والقلب يقال : أفكه عن الشىء ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عما وجدنا عليه آباءنا ..﴾ أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا .

وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وهيمنته على شئون خلقه .. أخذت السورة الكريمة فى تسلية النبى - ﷺ - وفى دعوة الناس إلى اتباع ما جاءهم به هذا النبى الكريم ، وفى بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ تسلية له - ﷺ - بعموم البلية ، والوعد له - ﷺ - والوعيد لأعدائه .

والمعنى : وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين .. فتأس بأولئك الرسل فى الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصبروا على تكذيبهم . فجملة ﴿ فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ قائمة مقام جواب الشرط ، والجواب فى الحقيقة تأس . وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب ..[1] .

وجاء لفظ الرسل بصيغة التنكير ، للإشعار بكثرة عددهم ، وسمو منزلتهم .

أى : وإن يكذبك - أيها الرسول الكريم - قومك ، فلا تحزن ، ولا تبتئس ، فإن إخوانك من الأنبياء الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست بدعا فى ذلك .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾..[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ..﴾[3] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٧ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٣ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بما يزيد فى تسليته – ﷺ – فقال : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور﴾ .

أى : وإلى الله – تعالى – وحده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم . وسيجازى – سبحانه – الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه – سبحانه – نداء ثانيا إلى الناس . بين لهم فيه أن البعث حق ، وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح فقال – تعالى – ﴿ يأيها الناس إن وعد الله حق ... ﴾ .

أى : إن ما وعدكم الله – تعالى – به من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق لا ريب فيه ، ومادام الأمر كذلك ، ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أى : فلا تخدعنكم بمتعها ، وشهواتها ، ولذائذها ، فإنها إلى زوال وفناء ، ولا تشغلنكم هذه الحياة الدنيا من أداء ما كلفكم – سبحانه – بأدائه من فرائض وتكاليف .

﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : ولا يخدعنكم عن طاعة ربكم ، ومالك أمركم ﴿ الغرور ﴾ .

أى : الشيطان المبالغ فى خداعكم ، وفى صرفكم عن كل ما هو خير وبر .

فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذى أقسم بالأيمان المغلظة ، بأنه لن يكف عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم .

فالمقصود بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال . وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

ثم أكد – سبحانه – هذا التحذير بقوله : ﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ يابنى آدم ، عداوة قديمة وباقية إلى يوم القيامة .

وما دام الأمر كذلك ﴿ فاتخذوه عدوا ﴾ أى : فاتخذوه أنتم عدوا لكم فى عقائدكم . وفى عباداتكم . وفى كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته وهمزاته وخطواته ..

وقوله : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ تقرير وتأكيد لهذه العداوة .

أى : اتخذوا – يابنى آدم – الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبدا ، وإنما يدعوهم الى العقائد الباطلة . والأقوال الفاسدة ، والأفعال القبيحة التى تجعلهم يوم القيامة من أهل النار الشديدة الاشتعال ..

ثم بين – سبحانه – أقسام الناس يوم القيامة فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ بكل ما يجب

الإيمان به ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم - عز وجل - واتباعهم للشيطان ..

﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات لهم ﴾ من ربهم ﴿ مغفرة ﴾ عظيمة ﴿وأجر كبير ﴾ لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، والمطيع ، والعاصى ، فقال : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ... ﴾ .

والاستفهام للإنكار . و « من » موصولة فى موضع رفع على الابتداء . والجملة بعدها صلتها ، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه ، و﴿زين ﴾ من التزيين بمعنى التحسين . وقوله ﴿ سوء عمله ﴾ أى : عمله السيء ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

والمعنى : أفمن زين له الشيطان عمله السيئ ، فرآه حسنا ، كمن ليس كذلك ؟ كلا إنهما لا يستويان فى عرف أى عاقل ، فإن الشخص الذى ارتكب الأفعال القبيحة التى زينها له الشيطان ، أو نفسه الأمارة بالسوء ، أو هواه .. مصيره إلى الشقاء والتعاسة .

أما الشخص الذى خالف الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المردى .. فمصيره إلى السعادة والفلاح .

وقد صرح - سبحانه - بالأمرين فى آيات منها قوله - تعالى - ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾؟

وجملة ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا ..

أى : هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا قدرة لك على هدايتهم - أيها الرسول الكريم - فإن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدى من يشاء هدايته .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ للتفريع . والحسرات جمعه حسرة ، وهى أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور « عليهم » متعلق بقوله « حسرات » .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فامض فى طريقك وبلغ رسالة ربك ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من أجل هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق ، واعتنقوا الباطل ، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا ..

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بمايزيد فى تسلية الرسول - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء مما يفعله هؤلاء الجاهلون من أفعال قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[2] .

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه ، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، بعد كل ذلك .. ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن رحمته بهم ، نرى ذلك فى الرياح وفى السحب ، وفى البحار والأنهار ، وفى الليل والنهار ، وفى الشمس والقمر .. وفى غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة فى هذا الكون .

قال - تعالى - :

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ

(١) سورة الشعراء الآية ٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦ .

وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قال أبو حيان - رحمه الله - لما ذكر - سبحانه - أشياء من الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور الأرضية كالرياح وإرسالها ، وفى هذا احتجاج على منكرى البعث ، دلهم على المثال الذى يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان . وفى الحديث أنه قيل لرسول الله - ﷺ - : كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال : « هل مررت بوادى أهلا محلا - أى مجدبا لانبات فيه - ثم مررت به يهتز خضرا ؟ فقالوا : نعم ، فقال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه »[1] .

فقوله - تعالى - : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا﴾ بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - ومن سعة رحمته بعباده .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٢ لأبى حيان .

وقوله : ﴿ فتثير ﴾ من الإثارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال .

أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى أرسل الرياح ، فجعلها بقدرته النافذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ،فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ، وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿ فسقناه إلى بلد ميت ﴾ بيان للحكمة من هذه الإثارة . والمراد بالبلد الميت : الأرض الجدباء التى لانبات فيها . والضمير فى ﴿ فسقناه ﴾ يعود إلى السحاب .

وقوله : ﴿ فأحيينا به الأرض بعد موتها ﴾ أى : فأحيينا بالمطر النازل من السحاب الأرض الجدباء ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فالضمير فى قوله ﴿ به ﴾ يعود إلى المطر ، لأن السحاب يدل عليه لما بينهما من تلازم ، ويصح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار .

وقال - سبحانه - ﴿فتثير ﴾ بصيغة المضارع . استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ، والتى من شأنها أن تغرس العظات والعبر فى النفوس .

وقال - سبحانه - : ﴿ فسقناه ﴾ ﴿ فأحيينا ﴾ بنون العظمة ، وبالفعل الماضى ، للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء ﴿ فتثير ﴾ على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ .

قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح للسحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ..

ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه ..[1] .

والكاف فى قوله - تعالى - : ﴿ كذلك النشور ﴾ بمعنى مثل ، وهى فى محل رفع على الخبرية . أى : مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون إحياء الأموات منكم .

قال الإمام الرازى : فإن قيل ما وجه التشبيه بقوله : ﴿ كذلك النشور ﴾ ؟ فالجواب من وجوه :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠١ .

أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع - سبحانه - بين أجزاء الأعضاء ..

ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت[1] .

والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى ونشرهم ، إذا أحياهم بعد موتهم . ونشر الراعى غنمه ، إذا بثها بعد أن آواها .

ثم بين - سبحانه - أن العزة الكاملة إنما هى لله - تعالى - وحده فقال : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ...﴾ .

والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والاستعلاء ، من قولهم : أرض عَزاز ، أى : صلبة قوية . و﴿ من ﴾ شرطية ، وجواب الشرط محذوف . وقوله : ﴿فلله العزة جميعا ﴾ تعليل للجواب المحذوف .

والمعنى من كان من الناس يريد العزة التى لاذلة معها . فليطع الله وليعتمد عليه وحده فلله - تعالى - العزة كلها فى الدنيا والآخرة ، وليس لغيره منها شىء .

وفى هذا رد على المشركين وغيرهم ممن يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[2] .

وقال - سبحانه - : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾[3] .

قال القرطبى ما ملخصه : يريد - سبحانه - فى هذه الآية ، أن ينبه ذوى الأقدار والهمم ، من أين تنال العزة ومن أين تستحق ، فمن طلب العزة من الله - تعالى - وجدها عنده ، - إن شاء الله - ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه .. ومن طلبها من غيره وكلَه إلى من طلبها عنده . وقال - ﷺ - مفسرا لهذه الآية : « من أراد عز الدارين فليطع العزيز » ، ولقد أحسن القائل .

وإذا تذللت الرقاب تواضعا منا إليك فعزها فى ذلها

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٣٢ .

(٢) سورة مريم الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة النساء الآية ١٣٩ .

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله - تعالى - ، فإن من اعتز بغير الله ، أذله الله ، ومن اعتز به - سبحانه أعزه[1] .

ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ لأن العزة الكاملة لله - تعالى - وحده ، أما عزة الرسول - ﷺ - فمستمدة من قربه من الله - تعالى - ، كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وبرسوله - ﷺ - .

والخلاصة أن هذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذى يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية . ألا وهو طاعة الله - تعالى - ، والاعتماد عليه والاعتزاز به .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ حض للمؤمنين على النطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح .

و﴿ يصعد ﴾ من الصعود بمعنى الارتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع . يقال صعد فى السلم ويصعد صعودا إذا ارتقاه وارتفع فيه .

و﴿ الكلم ﴾ اسم جنس جمعى. واحده كلمة .

والمراد بالكلم الطيب : كل كلام يرضى الله - تعالى - من تسبيح وتحميد وتكبير . وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة .

والمراد بصعوده : قبوله عند الله - تعالى - ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة .

والمعنى : إليه - تعالى - وحده ، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه - وحده - ترفع صحائف أعمال عباده ، الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب ، والعمل الصالح الصادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله - تعالى - إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .

فالفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ ضمير يعود على الله - تعالى - ، والضمير المنصوب يعود إلى العمل الصالح أى : يرفع الله - تعالى - العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه .

ومنهم من يرى أن الفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ هو العمل الصالح . والضمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيب . أى : أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب . بأنه يجعله مقبولا عند الله - تعالى - .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٢٨ .

ومنهم من يرى العكس . أى : أن الكلم الطيب هو الذى يرفع العمل الصالح .

قال الشوكانى ما ملخصه : ومعنى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . كما قال الحسن وغيره . ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا من العمل الصالح وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح . ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل ﴿ يرفعه ﴾ ضمير يعود إلى الله - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل يحقق الكلام . وقيل : والعمل الصالح هو الذى يرفع صاحبه .[1] .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله ﴿ يرفعه ﴾ هو الله - تعالى - ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل الصالح لأن الله - تعالى - هو الذى يقبل الأقوال الطيبة ، وهو - سبحانه - الذى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين .

ثم بين - تعالى - بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : ﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور ﴾ .

والمكر : التدبير المحكم . أو صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذموم إن تحرى به صاحبه الشر والسوء - كما فى الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به صاحبه الخير والنفع و﴿ السيئات ﴾ جمع سيئة وهى صفة لموصوف محذوف .

وقوله ﴿ يبور ﴾ أى : يبطل ويفسد ، من البوار : يقال : بار المتاع بوارا إذا كسد وصار فى حكم الهالك .

أى : والذين يمكرون المكرات السيئات من المشركين والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله - تعالى - ، ومكر أولئك الماكرين المفسدين ، مصيره إلى الفساد والخسران ، لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله .

ويدخل فى هذا المكر السيئ ما فعله المشركون مع الرسول - ﷺ - فى دار الندوة ، حيث بيتوا قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم ، كما دخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، ونياتهم الخبيثة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث والنشور ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : ﴿ والله خلقكم من تراب ﴾ أى : خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٠ .

من تراب ﴿ ثم من نطفة ﴾ وأصلها الماء الصافى أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت .

والمراد بها هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال - تعالى - : ﴿ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ﴾ . أو المراد : ثم جعلكم تتزاوجون ، فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل . ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أى : لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا يحصل منها وضع لما فى بطنها ، إلا والله - تعالى - عالم به علما تاما لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء .

﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ والمراد بالمعمر الشخص الذى يطيل الله - تعالى - عمره .

والضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى شخص آخر ، فيكون المعنى : ما يمد - سبحانه - فى عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت فى كتاب عنده - تعالى - وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد أو علم الله الأزلى .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر فيكون المعنى : وما يمد الله - تعالى - فى عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره بمضى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت فى علمه - سبحانه - .

قال بعض العلماء : وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك ومحصله : أنه اختلف فى معنى ﴿ مُعَمَّر ﴾ فقيل : هو المزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله ولا ينقص ، وقيل : المراد بقوله ﴿ معمر ﴾ من يجعل له عمر . وهل هو شخص واحد أو شخصان ؟

فعلى رأى من قال بأن المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى انه يكتب عمره مائة سنة - مثلا - ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا فكتابة الأصل هى التعمير .. والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :

حيـاتـك أنفـاس تُعـدّ فكـلما مضى نفس منها انتقصتَ به جزءا

والضمير حينئذ راجع إلى المذكور . والمعمر على هذا هو الذى جعل الله - تعالى - له عمرا طال هذا العمر أو قصر .

وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزاد فى عمره ، يكون من ينقص فى عمره غير الذى

يزاد فى عمره فهما شخصان . والضمير فى « عمره » على هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون المزيد فى عمره منقوصا من عمره ..»[1] .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - الرأى الأول وهو أن الضمير فى قوله ﴿ من عمره ﴾ يعود إلى شخص آخر - فقال : وأولى التأويلين فى ذلك عندى بالصواب ، التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنزيل[2] .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعود إلى الخلق من تراب وما بعده .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ، ثم من نطفة .. يسير وهين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء على الإطلاق .

ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال : ﴿ ومايستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ..﴾ .

والماء العذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار . وسمى فراتا لأنه يفرت العطش ، أى : يقطعه ويزيله ويكسره .

والماء الملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطشان عطشا وتعبا .

قالوا : والآية الكريمة مثل للمؤمن والكافر . فالبحر العذب : مثل للمؤمن ، والبحر الملح : مثل للكافر .

فكما أن البحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه . والآخر ملح أجاج . لايتساويان فى طعمهما ومذاقهما . وإن اشتركا فى بعض الفوائد - فكذلك المؤمن والكافر ، لايتساويان فى الخاصية العظمى التى خلقا من أجلها ، وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإن اشتركا فى بعض الصفات الأخرى كالسخاء والشجاعة - لأن المؤمن استجاب لفطرته فآمن بالحق ، أما الكافر فقد عاند فطرته ، فأصر على الكفر .

وقوله : ﴿ ومن كل تأكلون لحمًا طريا ﴾ بيان لبعض النعم التى وهبها - سبحانه - لعباده من وجود البحرين .

أى : ومن كل واحد منهما تأكلون لحمًا طريا ، أى : غضا شهيا مفيدًا لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماك وما يشبهها .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٤٩٧٦ .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٢ ص ٨١ .

قال بعض العلماء . وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغيير . وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر المأكولات فسبحان الخبير بشئون خلقه ..

وفيه - أيضًا - إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - حيث أوجد هذا اللحم الطرى النافع فى الماء الملح الأجاج الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر بن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « ما نضب عنه الماء فكلوه . وما لفظه الماء فكلوه ، وما طفا - على وجه الماء - فلا تأكلوه » .

فالمراد من ميتة البحر فى حديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ما لفظه البحر لا مامات فيه من غير آفة »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ بيان لنعمة ثانية من النعم التى تصل إلى الناس عن طريق البحرين .

والحلية - بكسر الحاء - : اسم لما يتحلى به الناس ، ويتزينون بلبسه ، وجمع حلية : حِلًى وحُلًى - بكسر الحاء وضمها - يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى .

أى : ومن النعم التى تصل إليكم عن طريق البحرين ، استخراجكم منها ما ينفعكم ، وما تتحلى به نساؤكم ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما .

والتعبير بقوله : ﴿ وتستخرجون ﴾ يشير إلى كثرة الإخراج . فالسين والتاء للتأكيد . كما يشير بأن من الواجب على المسلمين ، أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور ، فقال ﴿ تلبسونها ﴾ على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى الأعم الأغلب من الأحوال .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ تلبسونها ﴾ أى : تلبسها نساؤكم وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهن ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن فإن النساء يتزين - فى الغالب - ليحسن فى أعين الرجال .. »[2] .

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١١٣ .

وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل قرآنى واضح على بطلان دعوى بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر الملح خاصة »[١] .

وقوله - تعالى - ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - عن طريق وجود البحار فى الأرض .

وأصل المخر : الشق . يقال مخرت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين أمواجه ، ومخر الماء الأرض إذا شقها .

أى : وترى - أيها العاقل - ببصرك السفن فى كل من البحرين ﴿ مواخر ﴾ أى تشق الماء بمقدماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة ..

والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى البحر الملح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم من أمرها فى البحر العذب ، وإن كانت السفن تجرى فى البحرين .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى جنس البحر . أى : وترى السفن تشق كل بحر ، لتسير فيه من مكان إلى مكان ..

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق .

أى : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هى من فضل الله - تعالى - عليكم ، ومن رحمته بكم ، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى تتجلى فى الليل وفى النهار ، وفى الشمس والقمر ، فقال : ﴿ يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ ..

أى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والنهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما فى الآخر ، وجعلهما متعاقبين ، مع زيادة أحدهما عن الآخر فى الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب ، وأوجد - أيضًا - بفضله ورحمته الشمس والقمر لمنفعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذى حدده الله - تعالى - لانتهاء عمر هذه الدنيا ..

---

(١) اضواء البيان جـ ٦ ص ٦٤٠ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

والإشارة فى قوله : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ... ﴾ تعود إلى الخالق والموجد لتلك الكائنات العجيبة البديعة ، وهوالله - عز وجل - .

أى : ذلكم الذى أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله - تعالى - ربكم وهو وحده الذى له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فى ملكيته منازع ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - ، وتصفونهم بأنهم آلهة .

﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ والقطمير : القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة . أو هو النقطة فى ظهر النواة ، ويضرب مثلاً لأقل شىء وأحقره .

أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - لا يملكون معه - سبحانه - شيئًا ، ولو كان هذا الشىء فى نهاية القلة والحقارة والصغر ، كالنكتة التى تكون فى ظهر النواة .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وقرره فقال : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ... ﴾ .

أى : إن هذه المعبودات الباطلة لا تملك من شىء مع الله - تعالى - ، بدليل أنكم إن تدعوهم لنفعكم ، لن يسمعوا دعاءكم ، وإن تستغيثوا بهم عند المصائب والنوائب ، لن يلبوا استغاثتكم ..

﴿ ولو سمعوا ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لأنهم لا قدرة لهم على هذه الاستجابة لعجزهم عن ذلك .

﴿ ويوم القيامة ﴾ الذى تتجلى فيه الحقائق ، وتنكشف الأمور ﴿ يكفرون بشرككم ﴾ .

أى : يتبرأون من عبادتكم لهم ، ومن إشراككم إياهم العبادة مع الله - تعالى - ، فضلاً عن عدم استجابتهم لكم إذا دعوتموهم لنصرتكم .

﴿ ولا ينبئك ﴾ أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التى لا تقبل الشك أو الريب .

﴿ مثل خبير ﴾ أى : مثل من هو خبير بأحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها . وهو الله - عز وجل - ، فإنه - سبحانه - هو الذى يعلم السر وأخفى .

وبهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا فى أرجاء هذا الكون ، وساقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ... وهى نعم تدل على وحدانية المنعم بها ، وعلى قدرته - عز وجل - وفى كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثًا إلى الناس ، نبههم فيه إلى فقرهم إليه - سبحانه - ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه ، وإلى وظيفة الرسول - ﷺ - الذى

أرسله إليهم ، وإلى الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكذبين ، فقال - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ... ﴾ نداء منه - سبحانه - للناس ، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم ، ولأنهم لا غنى لهم عن خالقهم - عز وجل - .

أى : يأيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله - تعالى - فى كل شئونكم الدنيوية والأخروية ﴿ والله ﴾ - تعالى - وحده هو الغنى ، عن كل مخلوق سواه ، وهو ﴿ الحميد ﴾ أى :

المحمود من جميع الموجودات ، لأنه هو الخالق لكل شىء ، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التى لا تحصى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ، وقد شهد الله - سبحانه - على الإنسان بالضعف فى قوله : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفًا ﴾ ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء »[1] .

وجمع - سبحانه - فى وصف ذاته بين الغنى والحميد ، للإشعار بأنه - تعالى - بجانب غناه عن خلقه ، هو الذى يفيض عليهم من نعمه ، وهو الذى يعطيهم من خيره وفضله ، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم .

قال الآلوسى : قوله ﴿ الحميد ﴾ أى : المنعم على جميع الموجودات ، المستحق بإنعامه للحمد ، وأصله المحمود ، وأريد به ذلك عن طريق الكناية ، ليناسب ذكره بعد فقرهم ، إذ الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادًا منعمًا ، ومثله مستحق للحمد ، وهذا كالتكميل لما قبله .. »[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بيان لمظهر من مظاهر غناه عن الناس .

أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم ويزلكم من هذا الوجود ، ويأت بأقوام آخرين سواكم ، فوجودكم فى هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته .

واسم الإشارة فى قوله ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ يعود على الإذهاب بهم ، والإتيان بغيرهم .

وما ذلك الذى ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ، بعزيز ، أى : بصعب أو عسير أو ممتنع على الله - تعالى - ، لأن قدرته - تعالى - لا يعجزها شىء .

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وقوله : ﴿ تزر ﴾ من الوزر بمعنى الحمل . يقال : فلان وزر هذا الشىء إذا حمله . وفعله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٨٣ .

من باب « وعد » ، وأكثر ما يكون استعمالاً فى حمل الآثام .

وقوله ﴿ وازرة ﴾ : صفة لموصوف محذوف . أى : ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التى باشرتها ، أو تسببت فيها .

وقوله : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ مؤكد لمضمون ما قبله ، من مسئولية كل نفس عن أفعالها .

وقوله : ﴿ مثقلة ﴾ صفة لموصوف محذوف ، والمفعول محذوف - أيضًا - للعلم به .

وقوله ﴿ حملها ﴾ أى : ما تحمله من الذنوب والآثام ، إذ الحمل - بكسر الحاء - ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه .

والمعنى : لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وإن تطلب نفس مثقلة بالذنوب من نفس أخرى ، أن تحمل عنها شيئًا من ذنوبها التى أثقلتها ، لا تجد استجابة منها ، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا .. ﴾ .

وقال - سبحانه - :﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها .

فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ ؟

قلت : تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلالهم لغيرهم ، مع أثقالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم .

فإن قلت : فما الفرق بين معنى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وبين معنى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء .. ﴾ ؟

قلت : الأول فى الدلالة على عدل الله - تعالى - فى حكمه ، وأنه - تعالى - لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها .

والثانى : فى أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث ...وإن كان المستغاث به بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ ...

فإن قلت : إلام أسند كان فى قوله ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ ؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله : ﴿ وإن تدع مثقلة ﴾ .

فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو ؟ قلت : « ليعم ويشمل كل مدعو .. »[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ .

كلام مستأنف مسوق لبيان من هم أهل للاتعاظ والاستجابة للحق .

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - إنما ينفع وعظك وإنذارك . أولئك العقلاء الذين يخشون ربهم - عز وجل - دون أن يروه ، أو يروا عذابه ، والذين يؤدون الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع واطمئنان .

ثم حض - سبحانه - على تزكية النفوس وتطهيرها فقال : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ أى : ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان . وحصن نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر والثواب ، والله - تعالى - إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره .

فالجملة الكريمة دعوة من الله - تعالى - للناس ، إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحدًا لن يلبى طلب غيره فى أن يحمل شيئًا عنه من أوزاره .

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل .. فقال - تعالى - : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات .. ﴾ .

والحرور : هو الريح الحارة التى تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .

أى : وكما أنه لا يستوى فى عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التى تشبه السموم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠٧ .

وكرر - سبحانه - لفظ ﴿ لا ﴾ أكثر من مرة ، لتأكيد نفى الاستواء ، بأية صورة من الصور .

وقوله : ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم . أو هو تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله - تعالى - : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ... ﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ﴾ فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى .. والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم .. »[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ بيان لنفاذ قدرة الله - تعالى - ، ومشيئته .

أى : إن الله - تعالى - يسمع من يشاء أن يسمعه ، ويجعله مدركًا للحق ، ومستجيبًا له أما أنت - أيها الرسول الكريم - فليس فى استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم وباطلهم ، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى فى فقدان الحس ، وفى عدم السماع لما تدعوهم إليه .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من هؤلاء الجاحدين .

ثم حدد الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - وظيفته فقال : ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ .

أى : ما أنت - أيها الرسول الكريم - إلا منذر للناس من حلول عذاب الله - تعالى - بهم ، إذا ما استمروا على كفرهم ، أما الهداية والضلال فهما بيد الله - تعالى - وحده .

﴿ إنا أرسلناك ﴾ - أيها الرسول الكريم - إرسالاً ملتبسًا ﴿ بالحق ﴾ الذى لا يحوم حوله الباطل ﴿ بشيرًا ونذيرًا ﴾ أى : أرسلناك بالحق مبشرًا المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذرًا الكافرين بأشد ألوان العقاب .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أى : وما من أمة من الأمم الماضية ، إلا وجاءها

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٢٩ .

نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر ، ويدعوها إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

فمن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا ، ومنهم من استحب العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تسليته لرسوله - ﷺ - تسلية أخرى فقال : ﴿ وإن يكذبوك ، فقد كذب الذين من قبلهم ... ﴾ .

أى : وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن ، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الذين أرسلناهم إليهم ، كما كذبك قومك .

وإن هؤلاء السابقين قد ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات الواضحات ﴿ وبالزبر ﴾ أى : وبالكتب المنزلة من عند الله - تعالى - جمع زبور وهو المكتوب ، كصحف إبراهيم وموسى .

﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أى : وبالكتاب الساطع فى براهينه وحججه ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، والإنجيل الذى أنزلناه على عيسى .

قال الشوكانى : قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغير المفهومات ، وإن كانت متحدة فى الصدق . والأولى تخصيص البينات بالمعجزات . والزبر بالكتب التى فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام »[1] .

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ بالعذاب الشديد ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لرسلهم .

ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، لذمهم وللأشعار بعلة الأخذ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ فكيف كان نكير ﴾ للتهويل . أى : فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم ، لقد كان إنكارًا مصحوبًا بالعذاب الأليم الذى دمرهم تدميرًا ، واستأصلهم عن آخرهم .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته . وبين من هم أولى الناس بخشيته ، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه ، ويحافظون على أداء فرائضه ، ووعدهم على ذلك بالأجر الجزيل فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٦ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ .. لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس فى عقائدهم وأحوالهم أمر مطرد ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى فى الحيوان والحجارة والنبات ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر ... ﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك ، فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء ، بحال من رآه . فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه . كما يجرى مع من رأى ، قصدًا إلى المبالغة فى شهرته ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٠ .

والخطاب للرسول - ﷺ - ، أو لكل من يتأتى له الخطاب ، بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علمًا لا يخالطه شك ، أن الله - تعالى - أنزل من السماء ماء كثيرًا ، فأخرج بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفًا ألوانها . فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر .. وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعًا تسقى بماء واحد ، كما قال - تعالى - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

وجاء قوله ﴿ فأخرجنا ... ﴾ على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء .

وقوله ﴿ مختلفًا ﴾ صفة لثمرات ، وقوله ﴿ ألوانه ﴾ فاعل به .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - .

قال القرطبي ما ملخصه : « الجدد جمع جُدَّة - بضم الجيم - وهى الطرائق المختلفة الألوان » .. والجُدَّة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجدة : الطريقة والجمع جدد .. أى : طرائق تخالف لون الجبل ، ومنه قولهم : ركب فلان جُدَّة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا »[2] .

وغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشىء الشديد السواد ، والعرب تقول للشىء الشديد السواد ، أسود غربيب .

وقوله : ﴿ سود ﴾ بدل من ﴿ غرابيب ﴾ .

أى : أنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ، وجعلنا بقدرتنا من الجبال قطعًا ذات ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ، ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا . وبديع صنعنا ...

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٤٢ .

ثم بين - سبحانه - أن هذا الاختلاف ليس مقصورًا على الجبال فقال : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... ﴾ .

وقوله : ﴿ مختلف ﴾ صفة لموصوف محذوف . وقوله ﴿ كذلك ﴾ صفة - أيضًا - لمصدر محذوف ، معمول لمختلف .

أى : ليس اختلاف الألوان مقصورًا على قطع الجبال وطرقها وأجزائها ، بل - أيضًا - من الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافًا ، كذلك الاختلاف الكائن فى قطع الجبال ، وفى أنواع الثمار .

وإنما ذكر - سبحانه - هنا اختلاف الألوان فى هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى بديع صنعه .

ثم بين - سبحانه - أولى الناس بخشيته فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أى : إنما يخاف الله - تعالى - ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص فى العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته - تعالى - ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحًا للعلماء ، حيث قصر - سبحانه - خشيته عليهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو أخر ؟ قلت : لابد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى . إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله - تعالى - : ﴿ ولا يخشون أحدًا إلا الله ﴾ وهما معنيان مختلفان .

فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟

قلت : لما قال ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته ... أتبع ذلك بقوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنه علمه .

وعن النبى - ﷺ - أنه قال : « أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به »[1] .

وقوله : ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على أنه يعاقب على المعصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحًا .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١١ .

ثم مدح - سبحانه - المكثرين من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ... ﴾ .

أى : إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بأن أدوها فى مواقيتها بخشوع وإخلاص .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ أى : وبذلوا مما رزقناهم من خيرات ، تارة فى السر وتارة فى العلانية .

وجملة ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ فى محل رفع خبر إن . والمراد بالتجارة : ثواب الله - تعالى - ومغفرته .

وقوله : ﴿ تبور ﴾ بمعنى تكسد وتهلك . يقال : بار الشىء يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد .

أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله - تعالى - عليهم ، يرجون من الله - تعالى - الثواب الجزيل ، والربح الدائم ، لأنهم جمعوا فى طاعتهم له - تعالى - بين الإكثار من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية .

واللام فى قوله : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله .. ﴾ متعلقة بقوله ﴿ لن تبور ﴾ على معنى ، يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجورهم التى وعدهم بها ، ويزيدهم فى الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه .

أو متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ غفور ﴾ أى : واسع المغفرة ﴿ شكور ﴾ أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتثبيت فؤاد النبى - ﷺ - ، وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب ﴾ أى القرآن الكريم ﴿ هو الحق ﴾ الثابت الذى لا يحوم حوله باطل .

﴿ مصدقًا لما بين يديه ﴾ أى : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية . كالتوراة والإنجيل .

﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لمحيط إحاطة تامة بأحوال عباده ، مطلع على ما يسرونه وما يعلنونه من أقوال أو أفعال .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى -

وقدرته ، وأثنت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ، والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيماً .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس فى هذه الحياة . ووعدت المؤمنين الصادقين بجنات النعيم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

و « ثم » فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ للتراخى الرتبى . و ﴿ أورثنا ﴾ أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة .. وهو المفعول الثانى لأورثنا ، وقدم على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .

و ﴿ اصطفينا ﴾ بمعنى اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلوص من الكدر والشوائب .

والمراد بقوله : ﴿ من عبادنا ﴾ الأمة الإسلامية التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ميراثاً منك

لأمتك ، التى اصطفيناها على سائر الأمم ، وجعلناها أمة وسطا . وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بهداياته .. وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد - ﷺ - ، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم ... »[1] .

وفى التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .

ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد . ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله .. ﴾ .

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعود إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية .

وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقتصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ جنات عدن يدخلونها ... ﴾ يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعًا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير فى قوله : ﴿ يدخلونها ﴾ يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - فى سورةالواقعة : ﴿ وكنتم أزواجًا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون .. ﴾ .

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه : يقول - تعالى - ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ... وهم هذه الأمة على ثلاثة أقسام : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط فى بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات . ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات .

﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهوالفاعل للواجبات والمستحبات .

قال ابن عباس : هم أمة محمد - ﷺ - ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٩٤ .

وفى رواية عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله - تعالى - ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول - ﷺ - .

وفى الحديث الشريف : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ..

وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - من طرق يشد بعضها بعضا .

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن النبى - ﷺ - أنه قال فى هذه الآية : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

ومعنى قوله « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة »[1] .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله ﴿ يدخلونها ﴾ إنما عنى به المقتصد والسابق بالخيرات ؟

قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل ؟ فإن قال : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولو لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد .

قيل : إنه ليس فى الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله - تعالى - أنهم يدخلون جنات عدن : وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة الله إياه على ذنوبه التى أصابها فى الدنيا ... ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خبر الله - تعالى - بقوله : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾[2] .

وقال الشوكانى : والظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر . وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعائشة . وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور ...ووجه كونه ظالمًا لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب حظا عظيمًا ...»[3] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٣٢ .
(٢) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٢ ص ٩٠ .
(٣) تفسير الشوكانى جـ ٤ ص ٣٤٩ .

قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفًا ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة .. ﴾ .

ولعل السر فى مجىء هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عددا ، ويليهم المقتصدون ، ويليهم السابقون بالخيرات ، كما قال - تعالى - ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وقوله : ﴿ بإذن الله ﴾ أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء .

أى : ذلك الذى أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والضمير للأنواع الثلاثة .

أى : هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات ، ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التى يخلدون فيها خلودًا أبديًا .

يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ أى أنهم يدخلون الجنات دخولا دائمًا ، وهم فى تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات ، وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون فى أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤا ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص .

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾.

والحزن : غم يعترى الإنسان لخوفه من زوال نعمة هو فيها . والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان : الحمد لله الذى أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .

﴿ إن ربنا ﴾ بفضله وكرمه ﴿ لغفور شكور ﴾ أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء للمطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة فى مقابل الأعمال القليلة . ﴿ الذى أحلنا دار

المقامة من فضله ﴾ أى : الحمد لله الذى أذهب عنا الأحزان بفضله ورحمته ، والذى ﴿ أحلنا ﴾ أى : أنزلنا ﴿ دار المقامة ﴾ أى : الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن سنقيم فيها إقامة دائمة وهى الجنة التى منحنا إياها بفضله وكرمه .

وهذه الدار ﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء . يقال : نصب فلان - كفرح - إذا نزل به التعب والإعياء .

﴿ ولا يمسنا فيه لغوب ﴾ أى : ولا يصيبنا فيها كَلال وإعياء بسبب التعب والهموم ، يقال : لَغَب فلان لَغْباً ولُغُوباً . إذا اشتد به الإعياء والهزال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النصَب واللُّغوب ؟

قلت : النصب ، التعب والمشقة ، التى تصيب المنتصب للأمر ، المزاول له .

وأما اللغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النصَب . فالنصب : نفس المشقة والكلفة . واللغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور »[1] .

وبعد هذا البيان البليغ الذى يشرح الصدور لحسن عاقبة المفلحين ، ساقت السورة الكريمة حال الكافرين ، وما هم فيه من عذاب مهين ، فقال - تعالى - :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١٤ .

أى : ﴿ والذين كفروا ﴾ فى الدنيا بكل ما يجب الإيمان به ﴿ لهم ﴾ فى الآخرة ﴿ نار جهنم ﴾ يعذبون فيهاتعذيبًا أليمًا .

ثم بين - سبحانه - حالهم فى جهنم فقال : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ أى : لا يحكم عليهم فيها بالموت مرة أخرى كما ماتوا بعد انقضاء آجالهم فى الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذاب . ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ، بل هى كلما خبت أو هدأ لهيبها ، عادت مرة أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيرا .

والمراد أنهم باقون فى العذاب الأليم بدون موت ، أو حياة يستريحون فيها .

﴿ كذلك نجزى كل كفور ﴾ أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع ، نجزى فى الآخرة ، كل شخص كان فى الدنيا شديد الجحود والكفران لآيات ربه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ...

وقوله - تعالى - : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل ﴾ بيان لما يجأرون به إلى ربهم وهم ملقون فى نار جهنم .

ويصطرخون ، بمعنى يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ، افتعال من الصراخ ، وهو الصياح الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيرًا فى العويل والاستغاثة . وأصله يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .

وجملة ﴿ ربنا أخرجنا .... ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : وهم بعد أن ألقى بهم فى نار جهنم ، أخذوا يستغيثون ويضجون بالدعاء والعويل ويقولون : ياربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا إلى الحياة الدنيا ، لكى نؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالاً صالحة أخرى ترضيك ، غير التى كنا نعملها فى الدنيا .

وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى اعترافهم بجرمهم ، وبسوء أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وهنا يأتيهم من ربهم الرد الذى يخزيهم فيقول - سبحانه - ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ... ﴾ .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله ﴿ نعمركم ﴾ من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال فى الحياة الدنيا إلى الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ ما يتذكر فيه ﴾ نكرة موصوفة بمعنى مدة . والضمير فى قوله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى عمرهم الذى قضوه فى الدنيا .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين عندما يقولون بحسرة وضراعة : ياربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا لنعمل عملا صالحًا غير الذى كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربهم بقوله لهم على سبيل الزجر والتأنيب : أو لم نمهلكم فى الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر والوقت الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق ، وفضلاً عن كل ذلك فقد جاءكم النذير الذى ينذركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولكنكم كذبتموه وأعرضتم عن دعوته .

والمراد بالنذير : جنسه فيتناول كل رسول أرسله الله - تعالى - إلى قومه ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله - ﷺ - .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسأوا فى جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئًا من العذاب الذى يستحقونه .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سعة علمه . فقال : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء سواء أكان هذا الشىء فى السموات أم فى الأرض ، إنه - سبحانه - عليم بما تضمره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض .. ﴾ بيان لجانب من فضله - تعالى - على بنى آدم .

و ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة ، وهو من يخلف غيره .

أى : هو - سبحانه - الذى جعلكم خلفاء فى أرضه ، وملككم كنوزها وخيراتها ومنافعها ، لكى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .

أو جعلكم خلفاء لمن سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من النقم بسبب إعراضهم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به رسولكم - ﷺ - .

وقوله ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أى : فمن كفر بالحق الذى جاءه به الرسول - ﷺ - واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ﴾ أى : لا يزيدهم إلا بغضًا شديدًا من ربهم لهم ، واحتقارا لحالهم وغضبًا عليهم ...

فالمقت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذى يأتى عن طريق هذا الزواج ، المقتى ، أى : المبغوض .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارًا ﴾ أى : ولا يزيدهم إصرارهم على كفرهم إلا خسارا وبوارا وهلاكا فى الدنيا والآخرة .

فالآية الكريمة تنفر أشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله - تعالى - ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خسرانًا وبوارا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على

عنادهم وجحودهم فقال : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتأنيب لهؤلاء المشركين . أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله - تعالى - فى العبادة ؟

إنهم لم يفعلوا - ولن يفعلوا - شيئًا من ذلك ، فكيف أبحتم لأنفسكم عبادتهم ؟

وقوله ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ تبكيت آخر لهم . أى : وقل لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئًا من الأرض ، فهل لهم معنا شركة فى خلق السموات أو فى التصرف فيها ، حتى يستحقوا لذلك مشاركتنا فى العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ﴾ تبكيت ثالث لهم . أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئًا من الأرض ، ولم يشاركونا فى خلق السموات ، فهل نحن أنزلنا عليهم كتابًا أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما يدعون ؟

والاستفهام فى جميع أجزاء الآية الكريمة للإنكار والتوبيخ .

والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها فى شركهم ، وإزهاق باطلهم بألوان من الأدلة الواضحة التى تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله - تعالى - ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما ذهبوا إليه من كفر وشرك .

ولذا ختمت الآية الكريمة بالإضراب عن أوهامهم وبيان الأسباب التى حملتهم على الشرك ، فقال - تعالى - : ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضًا إلا غرورا ﴾ .

أى : أن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئًا لا من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتابًا بأنهم شركاء لنا فى شىء ، بل الحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضًا ، ويعد بعضهم بعضا بالوعود الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهة هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الأتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راعيها .

وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه المعبودات الباطلة من عجز وضعف ، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعميم فضله فقال : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده .. ﴾ .

أى : إن الله - تعالى - بقدرته وحدها ، يمسك السموات والأرض كراهة أن تزولاً ، أو يمنعها ويحفظها من الزوال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا - على سبيل الفرض والتقدير - فلن يستطيع أحد أن يمسكها ويمنعها عن هذا الزوال سوى الله - تعالى - ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ كان ﴾ وما زال ﴿ حليما ﴾ بعباده ﴿ غفورا ﴾ لمن تاب إليه وأناب ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ﴾ .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولئن زالتا ﴾ أى : إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير ، ﴿ إن أمسكهما ﴾ أى : ما أمسكهما ﴿ من أحد من بعده ﴾ أى : من بعد إمساكه - تعالى - أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة فى ﴿ لئن ﴾ ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ... و ﴿ من ﴾ الأولى مزيدة لتأكيد العموم . والثانية للابتداء[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما كان عليه المشركون من نقض العهود ، ومن مكر سيء حاق بهم ، ودعاهم - سبحانه - إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانبًا من مظاهر فضله عليهم . ورأفته بهم فقال - تعالى - :

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٠٤ .

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .. ﴾ : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدًا - ﷺ - حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيه منهم .. »[1] .

و ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أىْ : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد : الطاقة والوسع والمشقة .

يقال : جهد نفسه يجهدها فى الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه .

والمراد : أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق .

أى : أن كفار مكة ، أقسموا بالله - تعالى - قسمًا مؤكدًا موثقًا مغلظًا ، ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾ أى : نبى ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان بالله هو الحق .

﴿ ليكونن أهدى ﴾ سبيلا ﴿ من إحدى الأمم ﴾ أى : ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم فى اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذى يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد - ﷺ - . الذى هو أشرف الرسل .

﴿ ما زادهم إلا نفورا ﴾ أى : ما زادهم مجيئه لهم إلا نفورا عن الحق ، وتباعدا عن الهدى . أى : أنهم قبل مجىء الرسول - ﷺ - كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لا من غيرهم،وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول - ﷺ - نفروا عنه ولم يؤمنوا به .

وإنما كان القسم بالله - تعالى - غاية أيمانهم ، لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وبأصنامهم ، فإذا اشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله - تعالى - .

وقوله ﴿ ليكونن ﴾ جواب للقسم المقدر . وقوله : ﴿ ما زادهم إلا نفورا ﴾ جواب لمَّا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣٥٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ استكبارا فى الأرض ﴾ بدل من ﴿ نفورا ﴾ أو مفعول لأجله ﴿ ومكر السيئ ﴾ معطوف على استكبارا .

والمراد بمكرهم السيئ : تصميمهم على الشرك ، وتكذيبهم للرسول - ﷺ - ، من أجل المعاندة للحق ، والاستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيئ الذى استولى على نفوسهم ، والحقد الدفين الذى فى قلوبهم .

وقوله ﴿ السيئ ﴾ صفة لموصوف محذوف . وأصل التركيب : وأن مكروا المكر السيئ ، فأقيم المصدر مقام أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ بيان لسوء عاقبة مكرهم ، وأن شره ما نزل إلا بهم .

وقوله : ﴿ يحيق ﴾ بمعنى يحيط وينزل . يقول : حاق بفلان الشيء ، إذا أحاط ونزل به . أى : ولا ينزل ولا يحيط شر ذلك المكر السيئ إلا بأهله الماكرين .

قال صاحب الكشاف : لقد حاق بهم يوم بدر . وعن النبى - ﷺ - : لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا ، فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[1] .

وقال الآلوسى - رحمه الله - : والآية عامة على الصحيح ، والأمور بعواقبها، والله - تعالى - يمهل ولا يهمل ، ووراء الدنيا الآخرة ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ فيه المكر عاجلاً فى الظاهر ، ففى الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ حض لهم على الاستجابة للحق ، وترك المكر والمخادعة والعناد . والسنة : الطريقة ..

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون ، إلا طريقتنا فى الماكرين من قبلهم . وهى إهلاكهم ونزول العذاب والخسران بهم ؟ إنهم ما ينتظرون إلا ذلك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ تأكيد لثبات سنته - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٢٠٦ .

أى : هذه سنتنا وطريقتنا فى الماكرين والمكذبين لرسلهم ، أننا نمهلهم ولا نهملهم ، ونجعل العاقبة السيئة لهم . ولن تجد لسنة الله - تعالى - فى خلقه تبديلا بأن يضع غيرها مكانها ، ولن تجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به .

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ مصدر مضاف لمفعوله تارة كما هنا ، ولفاعله أخرى كقوله ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ لأنه - تعالى - سنها بهم ، فصحت إضافتها للفاعل وللمفعول . والفاء فى قوله ﴿ فلن تجد ﴾ لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب . ونفى وجدان التبديل والتحويل ، عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى ، وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما .

والمراد : بعدم التبديل . أن العذاب لا يبدل بغيره . وبعدم التحويل : أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره . وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد المسىء لقبح مكره[1] .

ثم ساق لهم - سبحانه - ما يؤكد عدم تغيير سنته فى خلقه ، بأن حضهم على الاعتبار بأحوال المهلكين من قبلهم ، والذين يرون بأعينهم آثارهم ، فقال - تعالى - : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

أى أعمى هؤلاء الماكرون عن التدبر ، ولم يسيروا فى الأرض ، فيروا بأعينهم فى رحلاتهم إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما ، كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من مشركى مكة قوة ، وأكثر جمعا ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ﴾ أى وما كان من شأن الله - تعالى - أن يعجزه شىء من الأشياء ، سواء أكان فى السموات أو فى الأرض . بل كل شىء تحت أمره وتصرفه .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ كان عليما ﴾ بكل شىء ﴿ قديرا ﴾ على كل شىء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من رحمته بعباده فقال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ من الذنوب أو الخطايا .

﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أى : على ظهر الأرض ﴿ من دابة ﴾ من الدواب التى تدب عليها . ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ الذى حدده - سبحانه - لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون ﴿ فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ أى : لايخفى عليه شىء من أحوالهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٠٠ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة فاطر . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
صباح الأحد : ٢٠ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ - ٧ / ٧ / ١٩٨٥ م

فهرس إجمالى لسورة « العنكبوت »

فهرس إجمالى لسورة « الروم »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « لقمان »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « السجدة »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « الأحزاب »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « سبأ »

فهرس إجمالى لتفسير سورة « فاطر »